جامعة سعد دحلب بالبليدة

كلية الآداب و العلوم الاجتماعية

قسم اللغة العربية و آدابها

مذكرة ماجستير

تخصص : لغة

النحو و البلاغة من النظري إلى التطبيقي
(الحديث المتواتر لفظًا و معنى نموذجًا)

من طرف

كلثوم حسروف

أمام اللجنة المشكلة من

محجوب بالمحجوب	أستاذ محاضر	جامعة البليدة	رئيسا
عمار ساسي	أستاذ التعليم العالي	جامعة البليدة	مشرفًا و مقررًا
محمد العيد رتيمة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر	عضوا مناقشا

البليدة ، أفريل 2008

ملخص

يعالج هذا البحث موضع ربط النحو بالبلاغة في ميدان التعليم، لأنه قد تكرس فصلهما فصلاً أذهب بيان اللسان العربي. فبربط الجانب البلاغي في مراحل التعليم يؤدي بالمتعلم إلى ربط الجانب الشكلي بالجانب الوظيفي، و بهذا يكتسب ملكة لغوية يستطيع من خلالها الاتصال بغيره عن طريق مبدأ ربط النحو بالبلاغة.

و قد بَّين هذا البحث أن مبدأ ربط النحو بالبلاغة هو مبدأ راسخ في نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني، بحيث نستطيع استعماله أيضا لتحليل النصوص، لذلك اخترنا نص الحديث النبوي الشريف لنطبق عليه هذا المبدأ لإفتقار الحديث النبوي للدراسة اللغوية المتخصصة، كما آثرنا تحليل الحديث المتواتر لفظًا و معنى لأنه أجمع علماء الحديث على ان الحديث المتواتر يفيد العلم اليقيني بصحته إلى قائله.

و أثبت التحليل اللغوي لبعض الأحاديث المتواترة لفظًا و معنى خاصية الانسجام بين مستويات هذا التحليل في خدمة المعنى الأساسي للحديث المدروس.

شكر

أشكر الله عز وجل أولاً و قبل كل شيء على مَنِّه و نعمه و توفيقه لي في كل خطوات هذا البحث، الحمد لله رب العالمين، قال الشاعر:

إذا أفادك إنسان بفائدة * من العلوم فأدمِن شكره أبدَا

و قل فلان جزاه الله صالحة * أفادنيها و ألق الكبر والحسدَا

لذلك أشكر جامعة البليدة التي قضيت فيها سبع سنوات في طلب العلم، و أخص بالشكر كلية الآداب و العلوم الاجتماعية، قسم اللغة العربية و آدابها الذي أعتز بالانتساب إليه.

كما أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني من قريب أو بعيد لإنجاز هذا البحث: من زملاء و أصدقاء و أساتذة،وأخص الأستاذين قسوم نسيمة والكالدي محفوظ اللذين ساعداني في تصحيح مخطوطة البحث، و الأستاذ سمير الذي كتب هذا البحث .

وأجزل الشكر لأستاذي الدكتور عمّار ساسي الذي حباني من إرشاده ما قوَّمني و أنا غصن رطيب، فوجدت فيه المُربي الفاضل، و المعلم الأمين، و الوالد الراعي و الأستاذ الكريم، وأشكر كل من يشرفني بقراءة هذا البحث و يتفضل عليَّ بما يراه من تعديل.

قائمة الجداول

الرقم		الصفحة
1-	التغيرات الموجودة في بنية حديث "من كذب علي متعمدًا..."	75
2-	الأصوات الموجودة في حديث "من كذب علي متعمدًا..."	77
3-	التغيرات الموجودة في بنية حديث "كل مسكر حرام"	86
4-	الأصوات الموجودة في حديث "كل مسكر حرام"	87
5-	الأصوات الموجودة في حديث "المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده"	93
6-	مقاربة بين مفردتي مسلم و مؤمن.	95

قائمة الأشكال

الرقم		الصفحة
01-	شكل توضيحي لمفهوم العدول عن الأصل في النحو (المستوى الإفرادي)	36
02-	شكل توضيحي لمفهوم العدول عن الأصل في النحو (المستوى النحوي)	37
03-	ثنائية الوضع و الاستعمال في البلاغة.	41
04-	مثال عن ثنائية الوضع و الاستعمال في البلاغة.	41
05-	العدول عن الأصل في البلاغة .	42
06-	مفهوم العدول عن الأصل في البلاغة (المستوى الإفرادي).	42
07-	مفهوم العدول عن الأصل في البلاغة (المستوى التركيبي).	43
08-	شكل توضيحي لدراسة الجملة.	45
09-	مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني.	61
10-	شكل توضيحي للحديث المتواتر.	69

الفهرس

ملخص
شكر
قائمة الجداول و الاشكال
الفهرس
مقدمة.....08
1. مفهوما النحو و البلاغة..... 12
1.1.تعريف النحو و بيان مراحله..... 12
1.1.1. النحو لغَةً..... 13
2.1.1. النحو اصطلاحًا..... 14
1.2.1.1. تعريف النحو عند القدامى..... 14
2.2.1.1 تعريف النحو عند المحدثين..... 15
3.1.1. مناقشة لمفهومين بارزين..... 15
4.1.1. قراءة لمراحل النحو..... 18
1.4.1.1. المستوى الأول: رصد الصواب و الخطأ في الأداء..... 19
2.4.1.1. المستوى الثاني:إبرازالجانب الوظيفي للغة..... 21
2.1. تعريف البلاغة و بيان مراحلها..... 24
1.2.1. البلاغة لغة..... 25
2.1. 2. 2.عند المحدثين:..... 26
1. 2 . 3. مناقشة لتعدد تعريفات "البلاغة"..... 27
1. 2. 4. قراءة لمراحل البلاغة..... 29
1. 2. 4 . 1. مرحلة التذوق الأدبي:..... 29
1 . 2. 4. 2. مرحلة الازدهار الجرجانية:..... 30
1 . 2. 4. 3.مرحلة التنظيم السكاكية:..... 31
1 .2. 5.البلاغة المعاصرة..... 32
1. 3. مقاربة بين العلمين..... 33
1. 3 . 1.علم النحو وموضوعاته..... 34
1. 3. 1. 1. الهدف من نشأة علم النحو..... 34
1. 3. 1. 2 .النحويدرس البنية اللفظية..... 35
1 . 3 .1. 3. ثنائية الوضع و الاستعمال في النحو..... 35
1 .3 .1. 4 . مفهوم العدول عن الأصل في النحو:..... 36
1. 3 . 1. 4. 1. الجماعة اللغوية..... 37
1. 3 .1 .5.النحو يدرس الإجبار..... 38
1. 3 . 2 .علم البلاغة و موضوعاته..... 39
1. 3 .2 .1 . الهدف من نشأة البلاغة..... 39
1 . 3 . 2. 2 . البلاغة تهتم بالمعنى..... 39
1 .3 .2. 3 . ثنائية الوضع و الاستعمال في البلاغة..... 41
1 .3 .2. 4 . مفهوم العدول عن الأصل في البلاغة..... 2ٰ
1 .3 .2. 3 . البلاغة تدرس الاختيار..... 4ھ
1 .3 .3. 3 . بعض نقاط الاشتراك بين العلمين..... 45

1 .3 .3 .3 .1 . الاشتراك في دراسة الجملة..... 45
1 .3 .3 .3 .2 . كيفية التعليل..... 46
1 .3 .3 .3 .3 . الجانب العلمي والجانب التعليمي في العلمين 47
2. ربط النحو بالبلاغة 49
2 . 1. بيان النحو بالبلاغة..... 49
2 .1 .1 .2 . الاتجاهات التي تدرس علاقة النحو بالبلاغة 49
2 .1 .1 .1 .2 . الاتجاه الأول: فصل النحوعن البلاغة 49
2 .1 .1 .2 .2 . الاتجاه الثاني: ضم النحو للبلاغة: 51
2 .1 .1 .3 .2 . الاتجاه الثالث: ربط النحو بالبلاغة..... 52
2 .1 .1 .3 .1 .2 . التعريف اللغوي لمصطلح "ربط"..... 52
2 .1 .2 . جذور فكرة فصل النحو عن البلاغة 53
2 .1 .3 . طبيعة العلاقة بين النحو والبلاغة..... 54
2 .1 .3 .1 .2 . النحو يحتاج للبلاغة 55
2 .2 . نظرية النظم عند عبدالقاهر الجرجاني..... 57
2 .2 .1 .2 .تعريف النظم لغة واصطلاحا: 57
2 .2 .1 .1 .2 . التعريف اللغوي:..... 57
2 .2 .1 .2 .2 .التعريف الاصطلاحي: 57
2 .2 .2 .2 . فكرة النظم عند عبد القاهر في الدراسات اللغوية..... 58
2 .2 .3 .2 . مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني 59
2 .2 .3 .1 .2 1. ثنائية اللغة و الكلام..... 59
2 .2 .3 .2 .2 . النظم هو توخي معاني النحو 61
2 .2 .3 .3 .2 3. تطبيق نظرية النظم عند الجرجاني..... 62
2 .3 .2 . مفاهيم حول الحديث النبوي الشريف..... 64
2 .3 .1 .3 .2 . تعريف السنة والحديث..... 65
2 .3 .1 .1 .3 .2 . تعريف السنة لغة واصطلاحا..... 65
2 .3 .1 .1 .1 .3 .2 . السنة لغة 65
2 .3 .1 .2 .1 .3 .2 . السنة اصطلاحًا 65
2 .3 .2 .1 .3 .2 . تعريف الحديث لغة واصطلاحا 66
2 .3 .1 .2 .1 .3 .2 . الحديث لغة:..... 66
2 .3 .2 .2 .1 .3 .2 . الحديث اصطلاحًا..... 67
2 .3 .1 .3 .2 . بين السُّنة و الحديث..... 67
2 .3 .1 .4 .2 . كُتب الحديث النبوي الشريف 67
2 .3 .2 .الحديث المتواتر..... 68
2 .3 .3 .1 .2 . تعريف الحديث المتواتر 68
2 .3 .3 .2 .2 . أقسام الحديث المتواتر 69
2 .3 .3 .3 .2 . وجود المتواتر..... 70
2 .3 .3 .4 .2 . حصر لبعض الأحاديث المتواترة في كتب علماء الحديث 71
3.3.2. الدراسات التي تناولت الحديث النبوي الشريف 72
3. تحليل لبعض الأحاديث..... 74
1.3. تحليل حديث "من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"..... 74
1.1.3. رواية الحديث و تواتره:..... 74
2 .1 .3 اختلاف ألفاظ الحديث..... 75
3 .1 .3 . التحليل الصوتي للحديث النبوي الشريف 77
3 .1 .3 .1 .3 .صوت الميم: .....
3 .2 .3 .1.3. صوت النون: .....

3 .1 .4 . التحليل الإفرادي للحديث النبوي الشريف..... 78
3 .1 .4 .1 . دراسة الترادف..... 78
3 .1 .5 . التحليل التركيبي الثابت(النحوي) للحديث النبوي..... 80
3 .1 .6 . التحليل التركيبي المتغير(البلاغي) للحديث النبوي الشريف.....81
3 .1 .6 .1 . جملة الشرط:..... 83
3 .1 .6 .2 . جملة جواب الشرط: 83
3 .1 .6 .3 . الخاصية المميزة للحديث: أسلوب الشرط..... 84
3 .2 . تحليل حديث "كل مسكر حرام" 85
3 .2 .1 . رواية الحديث و تواتره..... 86
3 .2 .2 . اختلاف ألفاظ الحديث..... 86
3.2.3. التحليل الصوتي للحديث النبوي الشريف 87
3 .2 .3 .1. صوت الكاف:..... 87
3 .2 .3 .2 . صوت اللام: 87
3 .2 .4 . التحليل الإفرادي للحديث النبوي الشريف..... 88
3 .2 .4 .1 .دراسة الترادف..... 89
3 .2 .5 . التحليل التركيبي الثابت(النحوي) للحديث النبوي الشريف 89
3 .2 .6 . التحليل التركيبي المتغير(البلاغي) للحديث النبوي الشريف 90
3 .2 .6 .1 .دراسة الجملة الاسمية في الحديث.....90
3 .2 .6 .2 . الخاصية المميزة للحديث :الإيجاز 92
3 .3 . تحليل حديث "المسلم من سلِم المسلمون من لسانه و يده"..... 92
3 .3 .1 . رواية الحديث و تواتره:..... 93
3 .3 .2 . التحليل الصوتي للحديث النبوي الشريف: 93
3 .3 .2 .1. صوت الميم.....94
3 .3 .2 .2. صوت اللام.....94
3 .3 .3 التحليل الإفرادي للحديث النبوي الشريف:..... 94
3 .3 .4 . التحليل التركيبي الثابت(النحوي) للحديث النبوي الشريف: 96
3 .3 .5 . التحليل التركيبي المتغير(البلاغي) للحديث النبوي الشريف: 97
3 .3 .5 .1 . التقديم و التأخير:..... 97
3 .3 .5 .2 . الخاصية المميزة للحديث النبوي: النظم بتوخي معاني النحو. 98
الخاتمة.....100
الملحق.....102
قائمة المراجع.....107

مقدمة

الحمد لله القائل في محكم كتابه العزيز:"نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذِرين بلسان عربي مبين" الشعراء/193-194-195و الصلاة و السلام على رسوله الكريم القائل:"و أن العربية ليست لأحدكم بأب و لا أم، إنما هي لسان فمن تكلم العربية فهو عربي" و على آله و أصحابه أجمعين الذين أحبوا لغة القرآن و تنافسوا في تعلمها، وأثني ثناء حسنا وأدعو بالرحمة لعلمائنا الذين درسوا هذا اللسان و اكتشفوا علومه بحسن بيان أما بعد:

يعتبر النحو و البلاغة علمين بارزين من علوم اللسان العربي، و قد كان لي شغف الاهتمام بهذين العلمين أثناء دراستي الجامعية فاطَّلعت على بعض ما كُتب من دراسات و مؤلفات تخصهما، فوجدت دراسة علمية عميقة و جادة لكل من علم النحو و البلاغة، لكن ما لفت انتباهي هو تكريس فصل النحو عن البلاغة في ميدان التعليم فصلاً أذهب بيان اللسان العربي، مما دفعني إلى تناول هذا الموضوع مع الحرص على توضيح العلاقة التكاملية بين العلمين لذلك وسمتُ بحثي بهذا العنوان:"النحو و البلاغة من النظري إلى التطبيقي" و أقصد به بيان الأساس النظري لمبدأ ربط النحو بالبلاغة و ذلك لتجليه وظيفة اللغة الأساسية و هي الإبلاغ، مع تجاوز الجانب النظري إلى التطبيقي إيمانًا مني بأهمية هذا الجانب في تأكيد الأساس النظري و دعمه أو مخالفته.

أما موضوع اختيار المدونة اللغوية التي سأطبق عليها فهو"الحديث النبوي الشريف" الذي لعله لم يحظ بدراسات لغوية متخصصة، رغم أنه يعتبر المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، فهو يأتي في الدرجة الثانية من حيث سمو بلاغته، و روعة تركيبه، و جمال صورته بعد القرآن الكريم، فقد قال صلى الله عليه و سلم:"أنا أفصح العرب بيد أني من قريش".

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع غرضان أحدهما خاص والآخر عام ،أما الغرض العام فيتمثل في:

1- خدمة السنة النبوية الشريفة من خلال دراسة الحديث المتواتر لفظًا و معنى دراسة لغوية متخصصة.

2- الكشف عن بعض أسرار نظم الحديث النبوي الشريف.

3- التنبيه إلى فتح باب دراسة الحديث النبوي الشريف دراسة لغوية للأجيال اللاحقة.

أما الخاص فيتمثل في الآتي:

1- تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة من خلال ربط النحو بالبلاغة.

2- الكشف عن علاقة النحو بالبلاغة وأهمية الربط بينهما في التعليم.

3- تطبيق مبدأ ربط النحو بالبلاغة في ميدان تحليل النصوص بإسقاطه على بعض الأحاديث المتواترة لفظا ومعنى.

و من هنا تظهر أهمية هذا البحث في خدمة الدراسة اللغوية، من خلال إبراز الوظيفة الإبلاغية للغة التي لا تتم الا بربط النحو بالبلاغة، و تطبيق ذلك على مدونة الحديث المتواتر لفظًا و معنى.

و عليه فإن هدفي هو بيان قيمة ربط النحو بالبلاغة الذي يُعتبر القلب النابض لنظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، و لا أزعم أني أول من يكتب في هذه النظرية ،فالمكتبة العربية من المحيط إلى الخليج زاخرة بالكتب و الدراسات عنها، بل أريد إكمال مسيرة البحث في مبادئ هذه النظرية، لأبرهن أن مبدأ ربط النحو بالبلاغة هو مبدأ راسخ فيها ثم تطبيقه على الحديث المتواتر لفظًا و معنى لافتقاره إلى الدراسة اللغوية المتخصصة، و هنا تظهر الجِدة في موضوعي، حيث لم أجد في الدراسات و المؤلفات التي أسعفني الجهد و الوقت في الاطلاع عليها من تكلم عن هذا المبدأ أو طبَّقة على الحديث النبوي الشريف، اللهم إلاَّ التحليلات المُركزة للدكتور "جعفر دك الباب" –طيب الله ثراه- في مقالاته و كتبه، و الدكتور "محمد العيد رتيمة"، و الدكتور "عمَّار ساسي" – أطال الله في عمرهما- في أطروحتهما.

أما الإشكالية التي سأعالجها فيمكن بيانها في التساؤل التالي: هل يمكن أن يستقل علم النحو عن علم البلاغة (و بالخصوص عن علم المعاني)؟ و تندرج تحتها إشكاليات فرعية مثل: ما هو علم النحو و ما هي مراحله؟ هل يكفي وحده لتجلية وظيفة اللغة الأساسية؟ ما هو علم البلاغة و ما هي مراحله؟ و هل يكفي وحده لبيان جمالية اللغة؟ ما هي الموضوعات التي يدرسها علم النحو؟ و ما هي الموضوعات التي يدرسها علم البلاغة؟ ما هي علاقة النحو بالبلاغة؟ ما مفهوم نظرية النظم؟ هل طُبِّق مبدأ ربط النحو بالبلاغة على الحديث المتواتر لفظًا و معنى؟ كيف يتم تحليل الحديث المتواتر لفظًا و معنى؟ ما هي خصائص نظم الحديث النبوي الشريف؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، اعتمدت الخطة التالية: حيث قسَّمتها قسمين: نظري و تطبيقي.

وقد جعلت القسم النظري فصلين؛ خصصت الفصل الأول لدراسة مفهومي النحو و البلاغة بحيث ضمنته ثلاثة مباحث، جعلتُ الأول لمفهوم النحو و بيان مراحله، لأطرح في نهاية المبحث السؤال التالي: هل يكفي النحو وحده لتجلية وظيفة اللغة الأساسية؟

أما المبحث الثاني فأجبت فيه عن السؤال ودرستُ البلاغة من حيث مفهومهاومراحلها التاريخية مع محاولة تحليل ذلك وفق ميزان تراثي حداثي لأخلُص إلى السؤال التالي: هل تكفي البلاغة وحدها لاكتساب ملكة اللغة؟

و المبحث الثالث اخترت له عنوان "مقاربة بين العلمين" لأبين فيه أن النحو و البلاغة علمان يختلفان في مسار الدراسة و الموضوعات التي يُعالجانِهَا من الناحية العلمية، لكن هناك علاقة وطيدة بينهما، فما طبيعتها؟

حاولت الإجابة على هذا السؤال في الفصل الثاني الذي وسمته بـ"ربط النحو بالبلاغة" و قسمته ثلاثة مباحث أيضا، جعلت الأول لبيان علاقة النحو بالبلاغة مستعرضة جذور فكرة فصل النحو عن البلاغة.

أما المبحث الثاني فقد اخترت أن أبين فيه نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني باعتبارها المجال الحيوي لمبدأ ربط النحو بالبلاغة، ثم ذكرت بعض تطبيقات هذا المبدأ على القرآن الكريم و الشعر العربي و تساءلت في الأخير عن تطبيقه على الحديث النبوي الشريف.

لأفراد المبحث الثالث للكلام عن الحديث المتواتر لفظًا و معنى من حيث تعريفه لغة و اصطلاحًا و تقسيمه، و ذِكر آراء بعض العلماء في وجوده مع حصر لبعض الأحاديث المتواترة التي جمعها أئمة علماء الحديث.

ثم انتقلت إلى القسم التطبيقي الذي وسمته بـ" مبدأ ربط النحو بالبلاغة في الحديث المتواتر لفظًا و معنى"، وجعلتُ تحته فصلاً واحد أبين فيه تحليلي لبعض الأحاديث وفق مبدأ ربط النحو بالبلاغة. و قد

اكتفيت بتحليل ثلاثة أحاديث؛ بحيث أجعل لكل حديث متواتر مبحثًا خاصًا به أدرس فيه رواية الحديث و آراء العلماء في تواتره ثم تحليله وفق مستويات بنية النظام اللغوي للعربية؛ فكان التحليل الصوتي هو المستوى القاعدي، ثم التحليل الإفرادي، ثم التحليل التركيبي الثابت أي النحوي، ثم التحليل التركيبي المتغير أي البلاغي، كاشفة عن خاصية الانسجام بين المستويات في خدمة المحور العام و المعنى الأساسي للحديث المدروس و الأحاديث التي درستها هي:

1- "من كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار".

2- "كل مسكر حرام".

3- "المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده".

اتبعت المنهج الوصفي الوظيفي الذي لعله أنسب المناهج للتعامل مع النصوصْ تحليلاً و تركيبًا، فهو وصفي لأنه يصف البنية اللغوية، و وظيفي في الوقت نفسه لأنه يبين الوظيفة التي تؤديها هذه البنية، فعملت على تتبع خطوات هذا المنهج على طول البحث. و لقد شاع التعامل مع لغة الحديث النبوي الشريف تعاملاً جافًا؛ بإعراب بعضه و تحليل بعضه تحليلاً بلاغيا. و هذا يقتل إشراقة البيان النبوي لأنه يتعامل مع المفردات و هي جامدة لا حياة فيها، فوجدت أن المنهج الوصفي الوظيفي هو الذي يتعامل مع النصوص الحية بالتعامل مع المفردات و هي تتحرك من المتكلم إلى السامع و تؤدي وظيفتها البيانية و التواصلية في آن واحد.

هذا المنهج ينطلق من أسس المنهج العلمي لمدرسة "أبي علي الفارسي" الذي يوجز الدكتور "جعفر دك الباب" التعريف به في كتابه "النظرية اللغوية العربية الحديثة"، صفحة 152:

1- وضع أبو علي الفارسي منهجًا لاتجاه جديد في علوم العربية سميناه مدرسة أبي علي اللغوية. انطلق هذا المنهج من الدراسة الموضوعية لكل مسألة من مسائل الخلاف النحوي على حدة و إبداء الرأي فيها، لذا وسمناه بأنه منهج علمي.

2- تبنى ابن جني المنهج العلمي لأستاذة، و عمقه في بحثه عن الأصول العامة للنحو في كتابه "الخصائص".

3- سار عبد القاهر الجرجاني وفق المنهج العلمي لأبي علي، و عمقه بتأكيد الوظيفة الإبلاغية التي تؤديها اللغة و ذلك بالدعوة إلى عدم فصل دراسة البلاغة عن النحو فكان كتابه "دلائل الإعجاز" بداية مرحلة جديدة في تاريخ علوم العربية هي مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة.

4- تابع الزمخشري السير وفق المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية في صيغته الجرجانية، فكان كتابه "المفصل في علم العربية" يركز على ربط البلاغة بالنحو، و طبق هذا المنهج في "الكشاف".

5- تبنى السكاكي المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية في صيغته الجرجانية و طوره بكشف خصائص النظام اللغوي للعربية في مستوياته المتدرجة" . أما مبادئ هذا المنهج سأذكر بعضها في النقاط التالية:

1- الانطلاق من أن اللغة ظاهرة اجتماعية، حيث ترتبط البنية اللغوية فيها بوظيفة الاتصال التي تؤديها اللغة.

2- اللغة و التفكير يشكلان وحدة لا انفصام لها.

3- إنكار ظاهرة الترادف، و البحث عن الفروق الدقيقة بين ما يظن أنه من المترادفات.

4- يؤلف النظام اللغوي كلا واحدً حيث توجد المستويات المتدرجة للبنية اللغوية فيه في علاقة تـأثير متبـادل فيما بينها. و سيجد الدارس لهذا البحث آثارًا تطبيقية لهذا المنهج في فصوله و مباحثه.

و لا أفشي سرًا إذا قلت أني اعتمدت على مصادر و مراجع و دراسات كثيرة تمت بصلة لعلم النحو و علم البلاغة و نظرية النظم و علم الحديث، فهي روافد هذا البحث . أذكر على سبيل المثال لا الحصر: "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني مصدرًا، و "المدخل إلى النحو و البلاغة في إعجاز القرآن الكريم" للدكتور عمَّار ساسي مرجعاً، و مذكرة الماجستير للأستاذ أحمد سعدي الموسومة بـ "البناء اللغوي في البيان النبوي من خلال المتواتر لفظًا"، بالإضافة إلى دراسات متعددة للدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في اللسانيات العربية. و قد اتخذت من الجامع المسند الصحيح للإمام "أبي عبد الله بن إسماعيل البخاري" مادة لهذه الدراسة لأنه أصح كتاب بعد كتاب الله عز و جل؛ فقد أجمع العلماء على أنه أصح ما روي عن الرسول صلى الله عليه و سلم، فاخترت منه بعض الأحاديث المتواترة لفظًا و معنى لأن الحديث المتواتر هو الذي يفيد العلم اليقيني بثبوت قوله عن الرسول صلى الله عليه و سلم، و إقامة الدراسة على أصل ثابت يُشعر الباحث بالاطمئنان و الثقة بأنه يقوم بعمل علمي متين، لعله ينتهي إلى نتائج يطمئن المرء إليها، و يمكن الاعتماد عليها.

و في خاتمة البحث رصدت بعض النتائج التي توصلت إليها، و جعلت بعضها الآخر موزعًا على فصول هذه الدراسة و مباحثها.
و قد واجهتني عدة صعوبات في طريق البحث، أبرزها جمع الأحاديث المتواترة لفظًا و معنى لأن من جمعها من أئمة علماء الحديث يُعدون على رؤوس الأصابع كما أن مصادرهم مفقودة في مكتبات الوطن، حيث لم أعثر إلاَّ على كتاب "نظم المتناثر في الحديث المتواتر" لأبي الفيض جعفر الكتاني، و" لقط اللآلئ المتناثرة في الأحاديث المتواترة" لمحمد مرتضى الزبيدي،بالإضافة إلى صعوبات يضيق المقام لذكرها، لكن تجاوزتها بعون الله و توفيقه، ثم بمساعدة أستاذي الدكتور عمّار ساسي الذي لم يبخل عليَّ بنصحه و توجيهه و تقويمه لعملي فـ:

هو البحر من أي النواحي أتيته فلُجَّته المعروف و الجود ساحله.

و أشكر لجنة المناقشة على تجشمهم عناء قراءة هذا البحث لتنقيحه. و أرجو من الله أن يتقبل هذا العمل الذي قصدت منه تبليغ بعض أقول النبي صلى الله عليه و سلم لأنه لا ينطق عن الهوى، عملاً بقوله صلى الله عليه و سلم:"بلِّغوا عني و لو آية" و قوله:"ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب فربُّب مبلغ أوعى من السامع".
و منه أردت بلورة فكرة واضحة عن بعض خصائص نظم اللغة النبوية التي خاطبت العالم و حملت إليه رسالة السماء بُغية الاهتداء إلى أطيب النتائج و الثمار، فإذا وُفقتُ إلى ذلك فالحمد لله رب العالمين، و الله من وراء القصد عليه توكلت و إليه أنيب.

كلثوم حسروف
البليدة في ديسمبر 2007م الموافق لـ: ذي الحجة 1428هـ

الفصل 1

مفهوما النحو و البلاغة

1.1.تعريف النحو و بيان مراحله

نظرًا لما للسان العربي من مكانة سامية، فإن البحث فيه و التصنيف في أصوله و فروعه، و إعمال الفكر و التدبر في حكمته يعد نوعًا من العبادة. كيف لا و قد نزل به كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه، قال تعالى **:"نَزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين"**[1]الشعراء/الآية193،195،194. و بنزول هذه المعجزة الخالدة على سيد الخلق محمد صلى الله عليه و سلم، استحقت أن يصْرف العرب هممهم و عنايتهم لدراسة اللسان الذي نزل بها، و اجتهدوا في اكتشاف العلوم التي تدرس هذا اللسان، فأثمر هذا الاجتهاد ثمارًا طيبة، و لعل أبرز هذه العلوم : "علم النحو"، فما هو هذا العلم؟ و هل هو نفسه اللغة؟ إذا كان الجواب بـ "لا" فما هي اللغة ؟ ثم ما هي المراحل التي مرّ بها هذا العلم؟ و هل يكفي علم النحو وحده لامتلاك ناصية اللغة؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة لابد من تعريف اللغة لأنها الوعاء الذهبي الذي يحتوي العلوم، و قد وصلنا من أخبار العلماء اللغويين المتقدمين تعريف للغة يُقَرِّبه الدرس اللغوي الحديث، و نقصد به تعريف أبي الفتح بن جني:"أما حدّها فإنها أصوات يعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم"[2]ج1،ص33. و يحق لنا أن نتساءل: ما المقصود بالأصوات؟ و هل نحن نعبر بأصوات أم بكلمات؟ هل هذا يعني أن"ابن جني" من أنصار النظرية الصوتية (محاكاة الطبيعية) لنشأة اللغة؟ هل وظيفة اللغة تنحصر في التعبير فقط؟ أليس هناك وظائف أخرى للغة؟ و للإجابة عن هذه الأسئلة فإن الأمر يحتاج الى دراسة علمية عميقة مما نتركه لباحثين آخرين وحسبنا إثارة الموضوع.

أما عبد القاهر الجرجاني، فلا نعثر عنده على تعريف جامع مانع للغة، بل يتحدث عنها عرضًا لتدعيم حجة أو تفنيد رأي، و قد بيَّن الدكتور جعفر دك الباب مفهوم عبد القاهر للغة بقوله:"فاللغة إذن نظام لربط الكلم ببعضها وفقًا لمقتضيات دلالتها العقلية"[3]ص32. و هي فكرة لا يمل عبد القاهر من تكرارها و نقصد فكرة الربط و التعليق؛ حيث صار يسقط هذه الفكرة على أي مشكلة تعترضه لاسيما تعريف اللغة؛ فهي عنده نظام لا يتكون من كلمات كيفما جاءت واتفقت بل يربط فيما بينها وفقًا لمقتضيات دلالتها العقلية. و لكن ما معنى مصطلح "الربط" ؟ و لماذا يكون هذا الربط بين الكلمات و ليس بين الأصوات أو بين الجمل؟.

ويعرف عبد الرحمان بن خلدون اللغة بأنها **"**عبارة المتكلم عن مقصوده"[4] ص565،فهل اللغة عبارات أم كلمات أم أصوات؟ و هل الحدث الكلامي يتم من طرف واحد و هو المتكلم مع إهمال السامع؟ و عليه يمكن القول أن تعريف اللغة غير مستقر، و من الصعوبة إيجاد تعريف جامع مانع لها بل هذا حَرِّي ببحث لوحده، وقد حاول الدكتور عمار ساسي أن يقرِّب لنا فهم هذا التعدد؛ حيث شبه اللغة بالكعبة إذ

يقول:"اللغة كعبة ذات زوايا و النظرية نظرة من زاوية و التكامل سمة ثابتة في النظريات اللغوية ،إذ أن كل لاحقة منها تكمل نقص السابقة [5]ص31.

و لسنا هنا بصدد إيجاد تعريف جامع مانع للغة- و لعل الأجيال القادمة ستتجشم عناء البحث عنه سواء عند القدامى و المحدثين أو عند العرب و الغرب- لكن نريد تعريف نقيم عليه صرح ما سيأتي تحليله في بقية فصول هذا البحث، و على هذا فإن اللغة مثل المجتمع كما يشبهها الدكتورعمار ساسي حيث يقول أنها "مفردة في نظام"[6]؛ مثلما أن المجتمع فرد في نظام، فاللغة تقابل المجتمع، و المفردة تقابل الفرد، و ما هذا التعريف إلا تجسيدا للغة باعتبارها مفهوما مجردا، و عقل الإنسان عندما لا يستطيع الحسم في بعض القضايا التجريدية يجسدها في العالم الخارجي (الواقع) ليسهل فهمها."و مفهوم الدكتور ساسي ينطلق من رؤيته الشخصية لأمرين:أما الأول فهو اعتبار اللغة عالم منطوق لعالم مشهود و الثاني هو تأكيده على ثنائية الثابت و المتغير"[6].أفرز هذا الأمر نوعا من المقابلة بين اللغة و المجتمع، فاللغة بدون مجتمع لاعمل لها، و المجتمع بدون لغة لا وجود له، و مثلما أن الفرد متغير و النظام الاجتماعي ثابت فإن المفردة متغيرة و النظام اللغوي قار. و لعل الدكتور توصل إلى ذلك من متابعاته لخطاب القرآن الكريم - كما يصرح هو بذلك- فعندما يتكلم سبحانه و تعالى عن المفاهيم المجردة يربطها بالواقع كمثل قوله : "ألَمْ تر كَيْفَ ضرب الله مثلاً كَلِمةً طيبة كشجرةٍ طيبة أصلُهَا ثابت و فَرعُها في السماء"[1]إبراهيم/الآية26 و الكلمة مثل الشجرة في ثبات الأصل و كثرة الفروع، و ثمرة الشجرة مثل ثمرة الكلمة، منها ما هو حلو لذيذ ينفع الناس، و منها ما هو مسكر أو سم قاتل يضر الناس. و الغريب في الأمر أن اللسانيات الحديثة تستعمل مثال الشجرة لتفريع الفروع من الأصول في بناء النظام اللغوي فهذا الدكتور محمد الصغير بناني يقول:"و هاهي اللسانيات الحديثة تعتمد هي الأخرى مثال الشجرة لتشرح علاقة الأصل بالفرع في البنية الكلامية"[7]ص88 فلو تساءلنا : لماذا شبَّه القرآن الكلمة بالشجرة؟ لطال بنا المقال، و نحن نذكر أوجه الشبه مما نتركه لبحث آخر و نكتفي بما شرحناه من وجهة نظرنا.

و خلاصة القول أن اللغة نظام بالغ الدقة و التعقيد يتألف من عدد من الأنظمة الفرعية التي تتناول وحدات اللغة و هي النظام الصوتي، والنظام الإفرادي، و النظام التركيبي؛ بحيث لا ينفصل أحدها عن الآخر من أجل بناء اللغة،و إن كنَّا سنسلط الضوء على النظام التركيبي فهذا لا يعني فصله عن الأنظمة الأخرى، بقدر ما يعني أخذ الجزء بالتفصيل تسهيلا للدراسة و اتباعًا لخطة تمَّ رسمها مُسبقًا . و الله المستعان على ذلك. و ما الفصل إلاّ لازم من لوازم البحث، "كالنبات أو الحيوان بين يدي العالم، يقتطع من أجزائهما ما يشاء ليوقفك على خصائص الأجهزة و الخلايا مفردة غير مركبة، و ميتة غير حية، و هو يعلم –بعدُ- أنها أمر مختلف في واقع الحياة و الأحياء، إلا أنه يعلم كذلك أن هذه الخصائص التي وقفك عليها حال الموت و السكون لا تعدِم جدواها و لا جميع خصائصها عند النشاط و الحياة" [8]ص60

1.1.1. النحو لغَةً

تعددت تعريفات مصطلح "النحو"، ففيما يخص المعنى اللغوي ، نجد الجوهري في "الصحاح" يقول:"النحو: القصد و الطريق ... يقال: نحوتُ نحوَكَ: أي قصدت قصدك... و الانتحاء مثله، هذا هو الأصل، ثم صار الانتحاء الاعتماد و الميل في كل وجه"[9]ج6،مادة(نحا). أما الفيومي في "المصباح المنير" فيقول:"نحوت:... قصدت (فالنحو) القصد"[10]مادة(نحا). و دفعنا إجماع "الجوهري و الفيومي" على معنى "القصد" لمادة "نَحَا"إلى البحث عن مادة "قَصَدَ" في حد ذاتها، فوجدنا لها معاني عديدة اجتبينا

منها ما يتلاءمُ مع ما نبحث عنه، و ها هو صاحب "لسان العرب" يُعرفها بما يلي **:** "القصد استقامة الطريق، قَصَدَ يقصِدُ قصدًا، فهو قاصد و قوله تعالى :"و على الله قصدُ السبيل" **أي** على الله تبيين الطريق المستقيم و الدعاء إليه بالحجج و البراهين الواضحة"[11]المجلد11،مادة(قصد).

و لعل هذا المفهوم المعجمي يقودنا إلى الرواية التي تداولتها جُل المصنفات؛ من قول **علي** – رضي الله عنه- لأبي الأسود الدؤلي: أنح هذا النحو – إذا صحت الرواية لأنها تحتاج إلى حقائق تاريخية ملموسة- أي اقصد هذا القصد أو اتجه إليه، و أمعِن النظر فيه، لتضع للناس نحوًا أو طريقًا مستقيمًا مدعومًا بالحجج و البراهين الواضحة يستقيم للناس حال مقالهم، و هذا ما سيتضح أكثر من خلال التعريف الاصطلاحي، و عليه فالتعريف اللغوي لمادة "نَحَا" هي القصد و الطريق كما أجمع المعجميون.

2.1.1. النحو اصطلاحًا

1.2.1.1. تعريف النحو عند القدامى

إن المعنى الاصطلاحي لمفهوم النحو نجده لدى أبي الفتح بن جني في الخصائص؛ حيث يقول في باب "القول على النحو":"هو انتحاء سمت كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره كالتشبيه و الجمع، و التحقير و التكسير و الإضافة، و النسب و التركيب، و غير ذلك؛ ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها و إن لم يكن منهم، و إن شذَّ بعضهم عنها رُدَّ به إليها. و هو في الأصل مصدر شائع، أي نحوت نحوا، كقولك قصدت قصدًا، ثم خصَّ به انتحاء هذا القبيل من العلم، كما أن الفقه في الأصل مصدر فقهت الشيء أي عرفته، ثم خص به علم الشريعة من التحليل و التحريم، و كما أن بيت الله خُصَّ به الكعبة و إن كانت البيوت كلها لله"[2] ج1،ص34 تبرز أهمية هذا التعريف في إحاطة **ابن جني** بأربع نقاط هي دعامة تعريف النحو و هي:

1- تعريف النحو بأنه انتحاء سمت كلام العرب أي الاعتماد على محاكاة كلام العرب الفصحاء ثم يقول:"في تصرفه من إعراب و غيره" و بهذا لا يحصر النحو في الإعراب فقط.

2- يذكر ابن جني بعض موضوعات علم النحو على سبيل المثال لا الحصر و هذا ما يدل عليه قوله:".... و غيره"، كما أنه لا يفرق بين علم النحو و علم الصرف لأنه يذكر موضوعات علم الصرف مختلطة بعلم النحو.

3- بيان لفائدة علم النحو و هو تمكين المستعرب في أن يكون كالعربي في فصاحته و سلامة لغته في الكلام.

4- أصل مصطلح "النحو" أنه مصدر من نحوتُ نحوًا ثم اختُص بعلم النحو.

من هذا التحليل نرى أن أبا الفتح بن جني استطاع أن يعطي تعريفًا للنحو ضمَّ فيه مفهومَه و موضوعاته و فائدة و أصل كلمته، و إن كان لم يتوسع في ذكر فوائد تعلم علم النحو، و حصرها في فائدتين كانتا سبب وضع هذا العلم، فالنحو عنده محاكاة كلام العرب تجنبًا للحن، و تمكين الأعجمي من امتلاك ناصية اللغة ، لكن معاصره أبا القاسم الزجاجي يذكر في كتابه **"**الإيضاح في علل النحو**"** الفائدة من تعلم النحو فيقول:"فإن قال قائل: فما الفائدة في تعلم النحو وأكثر الناس يتكلمون على سجيتهم بغير إعراب،ولا معرفة منهم به، فيَفْهَمُون يُفْهِمُون غيرهم مثل ذلك؟ فالجواب في ذلك أن يقال له: الفائدة فيه الوصول إلى التكلم بكلام العرب في الحقيقة صوابًا غير مُبدل و لا مُغير، و تقويم كتاب الله عز وجل .... و معرفة أخبار النبي صلى الله عليه و سلم و إقامة معانيها على الحقيقة" إلى أن يقول: "و بعد فأدب العرب

و ديوانها هو الشعر و لن يمكن أحد من المولدين إقامته إلا بمعرفة النحو"[12]ص95،96 و بهذا نستنتج أن الغرض الجوهري من تعلم النحو في نظر الزجاجي هو:

1- تعلم الفصحى الصحيحة أي التكلم بكلام العرب.

2- القراءة الصحيحة لما لا يحتمل فسادًا و هو القرآن و السنة.

3- الإبداع الشعري.

هذه الأغراض الجوهرية التي قام علم النحو من أجلها جعلته مقاييس لابد من الأخذ بها للاحتراز من الخطأ في التركيب يقول أبو يعقوب السكاكي في القسم الثاني من مُؤَلفه تحت عنوان :"علم النحو: ما هو؟" :"... هو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقايس مستنبطة من استقراء كلام العرب، و قوانين مبنية عليها، ليحترز بـها عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية، و أعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلام على بعض، و رعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك"[13]ص125. و منه فعلم النحو عند أبي يعقوب السكاكي هو قواعد مستنبطة من محاكاة كلام العرب الفصحاء و هو يتسع ليشمُل علم التراكيب .و إذا كان هذا رأي علمائنا القدماء، فما رأي المحدثين في علم النحو؟

2.2.1.1 تعريف النحو عند المحدثين

نجد من بين المحدثين الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ينقل لنا تصور العرب لعلم النحو فيقول:"أما النحو فهو الصورة لهذه المادة يستنبطها النحوي باستقرائه لكلام العرب و النص القرآني (و هو أول نص استقرئ) و هي مجموعة من المقاييس تفرع عليها الفروع انطلاقًا من الأصول التي هي أوضاع اللغة"[14] ص9 و منه فالنحو هو مقاييس لابد منها لمعرفة صحة الكلام من فساده و للدقة العلمية لابد أن نُفْرق بين النحو العلمي الذي نحن بصدد تعريفه اصطلاحا، و بين النحو التعليمي الذي يمتاز بالغاية النفعية. يقول الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح: "النحو العربي العلمي (لا التعليمي أو الفلسفي) هو مجموعة للمثل و القواعد التي يمكن أن تفرع بها و عليها الإمكانات التعبيرية الخاصة بالوضع العربي"[15]ص288.

أما الدكتور عمَّار ساسي فيرى أن النحو:"يدرس الجملة كبنية (المسند و المسند إليه) و هو دراسة ساكنة بعيدة عن حال سامع، و خارجة عن سياق الكلام"[16]ص17 و منه علم النحو لا يهتم بمقتضى الحال بل بمقتضى الوضع؛ و هذا يعكس رؤية الدكتور لثنائية الثابت و المتغير؛ حيث يعتبر علم النحو دراسة للبنية الثابتة و منه فعلم النحو هو مقاييس و معايير تُفرع عليها الفروع انطلاقًا من الأصول، ولإثراء موضوع التعريف الإصطلاحي للنحو لابد من مناقشة مفهومين بارزين، أما الأوَّل فهو اعتبار أن النحو يدرس الإعراب، و الثاني هو اتساع النحو ليشمل علم التراكيب .

3.1.1. مناقشة لمفهومين بارزين

لقد تعددت تعريفات "علم النحو"، فنجد طائفة من النحاة تجعله مرادف للإعراب باعتباره علم يُعرف به أواخر الكلم، فهذا الجوهري يقول: "و (النحو) إعراب الكلام العربي"[9]مادة(نحا)، و على بعُد الزمن بين القدامى و المعاصرين، نجد أحد اللغويين المعاصرين يذهب إلى نفس التعريف فيقول: " إن النحو يمتاز بخصيصة في العربية و هي النظر في أواخر الكلم... و هكذا يتبادر إلى الذهن...الإعراب إذا قيل النحو"[17]ص17،19. و هذا المفهوم قد انفرد في ساحة علم النحو بعد سيبويه؛ حيث أخذ النحاة بعده بالجانب التقنيني للكتاب، و اهتموا بتتبع أواخر الكلم و علامات الإعراب و جعلوا منها صنيعهم الذي يعضون عليه بالنواجذ.

و دخل هذا المفهوم الكتب و المصنفات و المعاجم، و صار لا يذكر النحو إلا و يذكر الإعراب، و لا يذكر الإعراب إلا و يتبادر إلى الذهن تغير أواخر الكلم من رفع و نصب و خفض، فهذا أبو علي الفارسي يعرف الإعراب بما يلي:" إلاعراب أن تختلفَ أواخر الكَلِمِ لاختلاف العامل، مثل ذلك : هذا رجلُ، و رأيتُ رجلاً، و مررتُ برجلٍ، فالآخرُ من هذا الاسم قد اختلف باعتقاب الحركات عليه و اعتقابُ هذه الحركات المختلفة على الأواخر إنما هو لاختلافِ العوامل التي هي هذا و رأيتُ و الباء في مررت برجل"[18]ج1،ص97. ما يلاحظ من ظاهر التعريف أنه يجعل الإعراب أمرا لفظيا لكن أغلب الظن أن علماءنا كانوا يختصرون هذا التعريف، من أجل هدف التعليم فهذا كاظم بحر مرجان يصف كتاب "الإيضاح العضدي" الذي ذُكر فيه التعريف بأنه "من كتب الأصول النحوية المقتضبة التي ألفَّت أساسًا لتعلم النحو لا للتوسع أو التعمق في فهم خفايا"[18]ص35 لأن خفاياه كانت واضحة عندهم،و لعلها غامضة عند من جاء بعدهم من الذين حصروا الإعراب في الجانب اللفظي، و ليس هو المراد، فعبد القاهر الجرجاني يشرح تعريف أبو علي الفارسي بما يلي:"فإن الإعراب في الحقيقة معنى لا لفظ. و لهذا قال: الإعرابُ: أن تختلف أواخر الكلم لإختلاف العوامل، و قولُهُ، أن تختلف بمعنى الاختلافِ و ليس الاختلافُ بلفظ،وإنما هو معنى،كما أن الإسوداد ليس بعين و إنما هو معنى يعرف بالقلب،فالمختلف هو اللفظ كماأنَّ مسود هو العينُ التي تتعلَّق برؤية البصر... فإنّ اختلاف الحركة... ليدُل هذا الاختلافُ على معانٍ مختلفة إعرابُ، و ليس نفسُ الحركة بإعرابٍ" [18] ص98 و منه فإن المتأخرين نظروا إلى ظاهرتعريف أبي علي الفارسي، و عدوا الإعراب تغيير الحركات في أواخر الكلم كبنية شكلية ظاهرة، و هذا لعله تحريف لمعنى "الإعراب" الذي جعله الله وشيا للعربية و حلية لها، و فارق بين المعاني كما يصرح **ابن قتيبة** بذلك فيقول:" و لها الإعراب الذي جعله الله وشيًا لكلامها، و حلية لنظامها، و فارقًا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين و المعنيين المختلفين كالفاعل و المفعول، لا يفرق بينهما، إذا تساوت حالهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا الإعراب،ولو أن قائلا قال:هذا قاتلٌ أخي بالتنوين،و قال آخر:هذا قاتلُ أخي بالإضافة لدل التنوين على أنه لم يقتله ودل حذف التنوين على أنه قتله.إلى أن يقول:أفما ترى الإعراب كيف فرق بين هذين المعنيين"[19]ص14،15.و هو بهذا يوضح أن الرفع و النصب و الخفض ليست أشياء مقصورة لذاتها، و إنما هي أسباب من أسباب توضيح المعاني، و تبيين الفروق الدقيقة بينها **"**فالحركة إذًا آلة الإعرابِ، لأن الاختلاف يحصل بها، و لو كانت الحركةُ إعرابًا، لوجَبَ أن لا يقال: حركاتُ الإعرابِ، إذ الشيءُ لا يضافُ إلى نفسِه، ألا ترى أنك لو قلتَ: حركاتُ الحركاتِ، أو حركاتُ الضمةِ و الفتحةِ و الكسرة كانَ مُحالاً**"**[18]ص99**.**

و مهما يكن من أمر هذه الطائفة من النحاة، التي تجعل النحو والإعراب صنوان، و تحصره في الجانب اللفظي؛ فإننا نرى أنها تمثل مرحلة من المراحل التي مرَّ بها النحو. مثلما نجد طائفة أخرى تنادي بأن يكون علم النحو أعم و أشمل من ذلك بأن يشمل علم التراكيب؛ لأنه لا يكون إعراب بدون تركيب يقول الرضي الإستراباذي في ذلك: مع أن المقصود الأهم من علم النحو معرفة الإعراب الحاصل في الكلام بسبب العقد والتركيب**"**[20]ص25**.** فالإعراب نتيجة للتركيب، و لا يتصور في عقل أن الألفاظ المفردة وحدها تحتاج إلى الإعراب بل لابد من تركيبها مع غيرها تركيبا مفيدًا حتى تستحق الإعراب، و لنسمع **لابن يعيش** و هو يشرح ذلك إذ يقول:**"**الاسم إذا كان وحده مفردًا من غير ضميمة إليه لم يستحق الإعراب لأنَّ الإعراب إنما يُؤَتى به للفرق بين المعاني فإذا كان وحده كان كصوت تصوت به فإن ركَّبته مع غيره تركيبًا تحصل به الفائدة نحو قولك:زيد منطلق و قام بكر فحينئذ يستحق الإعراب لإخبارك عنه**"**[21]ج1،ص49 كل هذا يلفت النظر إلى توسيع دائرة النحو، و إخراجها من مستوى الشكل و الكشف عن المعنى بواسطة

دراسةالتركيب، و هذا ما خَطَّه قلم الدكتور عبد الله عنبر في مقالة بعنوان "علامة الإعراب : مقاربة بنائية بين تحولات المعنى و تشكيل النص"؛ حيث يُبين علاقة الإعراب بالمعنى، التي يقوم عليها التركيب "فالتركيب يبنى على المعنى المراد التعبير عنه ضمن إنجاز يتطلب علامة إعراب تناسبه"[22]ص42.
لذلك نجد الدكتورعمار ساسي يدعو إلى توسيع دائرة النحو ليشمل علم التراكيب حيث يقول:"إن النحو تتسع دائرته إلى علم التراكيب...وهذا أوسع وأشمل و أصح لأن الإعراب هو نتيجة للتركيب، ولايكون إعراب من غير تركيب"[16]ص26،27 فإذا تتبعنا مصطلح تراكيب في المعاجم فهو مشتق من ركّب الذي يعرفه ابن منظور بقوله:" ركب الشيئ وضع بعضه على بعض...وتقول في تركيب الفص في الخاتم و النصل في السهم: ركّبته فتركب فهو مركب و ركيب"[11]مادة(ركب) وعليه فإن علم التراكيب هو العلم الذي يدرس تركيب المفردات، و وضع بعضها إلى جانب بعض في موضعها المناسب مثل تركيب الفص في الخاتم، وليس اعتباطا بل وفق نظام لغوي معروف، وهل اللغة إلا مفردة في نظام ؟ مربوطة بجاراتها وفق مقتضيات دلالتها العقلية و بالتالي لا يماري منصف إذا قلنا أن علماء العرب الأوائل، أدركوا جيدًا دلالة الإعراب، بينما العلماء المتأخرين قصروه على تتبع أواخر الكلم، و ما يطرأ عليها من تغيير الحركات الإعرابية، و هاهو أحد اللغويين المعاصرين، ينسب إلى سيبويه أنه جعل أساس النحو أواخر الكلم فيقول: "و أن يتصدر كتاب سيبويه (ت 180هـ) بباب مجاري أواخر الكلم بعد توطئة بباب علم ما الكلم من العربية يدل –في نظرنا- على أن أساس النحو هو أواخر الكلم"[17]ص17. نقول أن سيبويه نظر إلى النحو نظرة شاملة، تضم عدة علوم، و هذا حال الدراسات التقعيدية، و لكنه وضَّح ترابط اللفظ و المعنى، و عدم الفصل بين الجانب الشكلي و المعنوي."فسيبويه مؤلف"الكتاب" في العلوم اللسانية العربية يسمي الحركات الإعرابية "مجاري أواخر الكلم" و هذا هو الجانب الشكلي للكلام يعقبهما بباب هامَّ جدا سمّاه" استقامة الكلام و الإحالة" ليبين لنا ترابط اللفظ بالمعنى لاقتناء الفائدة من هذا التركيب المتماسك، و هذا احتياط منه لأنه قد يتأتى لنا أن نكوّن تركيبًا مؤلفًا من مسند و مسند إليه و لكنه مُفرغ لا ينطوي على فائدة"[23] ص240 فلولا أهمية أساليب الكلام من حيث الاستقامة و خلافها، لَمَّا ذكر سيبويه باب يشرح ذلك بعد باب "مجاري أواخر الكلم"، و هكذا نستنتج أن علماء العرب الأوائل، استعملوا "معنى الإعراب" اللغوي الذي يعني الإبانة والإيضاح، ثم دخل هذا المصطلح ضمن المصطلحات النحوية محافظًا على معناه الأصلي، و أصبَحوا يسمون النحو إعرابًا، و اصطلحوا على أنه "الإبانة عن المعاني بالألفاظ"[11]مادة(عرب). ثم أصاب "العربية ركود و جمود بسبب ما حل بأهلها من ضعف في مختلف مناحي الحياة الثقافيةو السياسية و التربوية، فانكمش مصطلح الإعراب على نفسه"[23]ص244. و أصبح يدرس جزء واحد مما اهتم به النحاة و هو الحركة الإعرابية.و رسخ هذا المفهوم في معظم المعاجم على أنه "علم بأصول يعرف بها صحة الكلام و فساده"[24]مادة(نحا)؛ و لكن صحة الكلام و فساده لا تعرف من تتبع أواخر الكلم فقط، بل بالنظر أولاً إلى تأليف الكلمات و حسن ترتيبها. و هذا ماردَّ به السيرا في النحوي، على متى بن يونس المنطقي بقوله :"أخطأت لأن صحيح الكلام من سقيمه يُعرف بالنظم المألوف و الإعراب المعروف"[25]ج1،ص109 و هكذا فإن التركيب بين الكلمات و نظمها يسبق الإعراب، لذلك فالمتكلم مُطالب "أن يفهم معنى ما يريد أن يعربه مفردًا أو مركبًا قبل الإعراب فإنه فرع المعنى"[26]ج1،ص179،180. و ما نلاحظه من مراجعة هذه العينة من التعريفات، أن النحاة اختلفوا في وضع تعريف جامع مانع لعلم النحو، و لعل السبب يرجع إلى صعوبة تحديد دائرة القواعد النحوية، و يظن الدكتور عبد العزيز عتيق أن تفسير هذا الخلاف في تحديد دائرة النحو راجع إلى صلة هذا العلم بالفروع الثقافية العربية الأخرى [27]ص135 ، فمما لا يخفى على أحد أن الإرهاصات الأولى لعلم النحو كانت

تشمل الصرف و البلاغة و النظم و الاشتقاق، ثم أدت الحاجة إلى التعمق أن يفصل النحو عن بقية العلوم الأخرى.

وعليه فإن العرب نطقت على سجيتها، و كانت عندهم ملكة لغتهم **"**يأخذها الأخر عن الأوَّل كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغتنا" [4]ص566، أي كانوا ينحون في كلامهم ما هو متداول بينهم بدون صنعة، و لما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية و خالطوا الأعاجم، تسرب الضعف إلى نحيزة العربي، فهبَّ الغيارى على دين الله و حديث مصطفاه (صلى الله عليه وسلم) ووضعوا قواعد تأليف الكلام التي استنبطوها من استقراء كلام العرب و سموا ذلك علم النحو، لكن النحاة اختلفوا في تحديد المجال و الحيز الذي يعمل هذا العلم بداخله، و ما التعريفات التي ذكرناها سابقًا إلاّ عينة مما نقول، فلم نكتف بتعريف واحد، كما لم نذكر كل التعريفات لأن ذكرها يحتاج إلى وقت أطول و معالجة أدق، و هذا لا يقودنا إلى الهدف المنشود.

وخلاصة القول :إن النحو هوهيكل اللغة أي صورتها ولابد من التفريق بين النحو العلمي والنحو التعليمي ،فالأول هوالنظرية البنوية للعربية والثاني هونحوعملي يعمل على اكساب المتعلم القدرة العملية على استعمال اللغة دون أخطاء،وهذا يطرح موضوع آخروهوالمراحل التي مربها النحوفهو موضوع لا ندَّعي أننا أول من كتب فيه، بل هناك من المحدثيين من أفرد المصنفات لدراسة ذلك، لكن ما شدَّ انتباهنا ترديد نفس المراحل، فأردنا أن نقدَّم قراءة جديدة لهذه المراحل معتمدين على ما قام به هؤلاء العلماء من تعبيد السبيل لنا للوصول إلى هذه القراءة (*وعلى الله قصد السبيل*) [1]النحل/الآية9.

4.1.1. قراءة لمراحل النحو

يختلف الباحثون في مجال علم النحو، في تحديد المراحل التي مرَّ بهاهذا العلم و إيضاحًا لذلك كان لزامًا تتبع بعض كتب المتأخرين في تعدادهم لهذه المراحل و بخاصة كتب تاريخ النحو، على قلتها فقد عُني الباحثون المعاصرون بتاريخ الأدب أكثر من عنايتهم بتاريخ العلوم اللغوية و على رأسهم علم النحو، فلم يحظ النحو العربي إلى يومنا هذا –حسب ما وصل إلينا من مراجع و مصادر- بدراسة تاريخية شاملة مثلما حظِي تاريخ الأدب بل إن ما كُتب في تاريخه من مؤلفات يُعد على رؤوس الأصابع مقارنة بالبحوث الأدبية و النقدية، و عليه فالنحو العربي بحاجة إلى دارسة تاريخية جادة لكل مراحله، و في كل عصوره و لا ندّعي أننا سنقوم بهذا العمل العظيم، بل إننا في سبيل قراءة تلك المؤلفات، و ما استنتجناه أنهم ينهجون طريقة واحدة في التأريخ لمراحل النحو معتمدين على نفس الأخبار و الروايات.

فهذا محمد الطنطاوي(28) مثلاً يقسم مراحل النحو إلى أربعة أطوار: طور الوضع و التكوين (بصري)، طور النشوء و النمو (بصري- كوفي)، طور النضج و الكمال (بصري- كوفي) طور الترجيح و البسط في التصنيف (بغدادي- أندلسي)؛ و كأنه يَعتبر هذا العلم كائنًا حيا يخضع لما يخضع له الأحياء من سنن الحياة.

أما صلاح الروّاي في كتابه: "النحو العربي: نشأته، تطوره، مدارسه ورجاله" قد حاول لمَّ شعث الدراسات النحوية، و تجميع ما تفرق منها، تسهيلاً على دارس علم النحو إذْ يقول في المقدمةَ: "و من ثمَّ فقد رأيت – دراءً لهذا العنت، و منعًا لهذه المشقة- أن أجمع شتات الدراسات النحوية في صعيد واحد، و أحشد ما تفرق منها في كتاب واحد"(29) وكان له ذلك، فقد انطلق كعادة غيره من مؤلفي الكتب التاريخية من نشأة النحو إلى تعداد مدارسه و إن كان الكتاب يحتوي مادة تفيد دارس علم النحو كما أوضح الكاتب، لكن

الجمع في حد ذاته ليس هدفًا بل جوهر البحث هو تحليل هذه المادة و إعمال الفكر فيها و تقليبه للإتيان بما يخطو بالعلم خطوة إلى الأمام.

و فيما يخص الدكتور عصام نور الدين [30] فقد ألّف سلسلة تتكون من عشرة كتب – لم نعثر إلا على كتاب واحد في المكتبات ـ ينقل فيها نشأة النحو و تطور الدرس النحوي في البصرة و الكوفة و بغداد و مصر و الشام و الأندلس و المغرب العربي إلى أن ينتهي إلى الأجانب المعاصرين.و كعادة سابقيه يعتمد على أخبار متداولة منذ نشأة النحو. ثم مراحل مروره بالأمصار و كأنه يُعطي للعامل الجغرافي أهمية في تعداد هذه المراحل.

و ما ذِكرنا و اختيارنا لهذه المراجع و غيرها مما سكتنا عنه اقتصارا لا اختصارًا إلاّ لبيان أنها تُكَرر ما وصل إلينا من أخبارعن سلفنا في ميدان تاريخ هذا العلم ، و هذا لا يعني أننا نُنقص من جهود هؤلاء العلماء، فقد استفدنا من قراءة كتبهم إيمانًا منّا بأن تقديم قراءة جديدة لمراحل النحو دون معرفة الإرهاصات الأولى لنشأته، و ظروف تطوره و دون الإحاطة علمًا بكل ما يتعلق به و ما كُتب فيه- مما أسعفنا الوقت و الجهد لقراءته- يُعد عملاً مبتُورًا يَخضع للأهواء و عدم الوصول إلى رأي صحيح يرقى إلى مصاف المعرفة العلمية.

كما لا ننكر أننا استفدنا من نظرة الدكتور جعفر دك الباب للمراحل التي مرَّ بها اللسان العربي، و التي نحسبها ذات صلة وثيقة بالمراحل التي مرَّ بها النحو العربي، باعتباره علم من علوم هذا اللسان؛ حيث يقسمها الدكتور في كتابه "الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني" إلى ثلاث مراحل" :

1- مرحلة الدراسة التحليلية الوصفية الشاملة..

2- مرحلة الدراسة اللغوية المتخصصة في قواعد الصرف و النحو.

3- مرحلة الدراسة الوظيفية للغة العربية" [3]ص29،27.

و نحن نرى أن المرحلة الثانية يمكن ضمها للمرحلة الأولى باعتبار أن مفهوم النحو هوهو لم يتغير إلا بظهور الخلاف بين المدارس و المذاهب النحوية، و يكمن التجديد في المرحلة الثالثة ، لذلك فإن قراءتنا لمراحل علم النحو نابعة من اطلاعنا على تاريخ علم النحو؛ حيث نرى أنه مرّ بمستويين بارزين للدراسة النحوية:

1.4.1.1. المستوى الأول: رصد الصواب و الخطأ في الأداء.

يتمثل هذا المستوى في رصد الصواب و الخطأ في الأداء، و هو ما تميز به عهد النحو التقعيدي، أي تلك القواعد المجرَّدة التي استنبطها، النحاة من استقراء كلام العرب الفصيح؛ أي استقراء الأداء الذي يتلقاه المتلقي، و أظننا لا نجافي المنطق العلمي إذا قلنا أن علم النحو لم يوجد اعتباطًا فكما تقول الحكمة "الحاجة أم الاختراع"، فالحاجة إليه كانت ماسة بعد الإحساس بظهور داء يحتاج إلى دواء، و هذا الداء يُجمع الدارسون و اللغويون على أنه ذيوع اللحن، مما أدى بعلمائنا إلى أن ينهضوا لوضع النحو خشية على القرآن الكريم خاصة و اللسان العربي عامة من هذا اللحن، و بطبيعة الحال فإن أول خطوة إيجابية قام بها العلماء كانت استقراء كلام العرب الفصيح، "و رأينا أبا الأسود الدؤلي ينهض لنقط المصحف ضبطًا لإعرابه فكانت هذه البداية التي لا جدال حولها للنحو"[31]ص24 و يقول الدكتور مصطفى حميدة، "و الأرجح أن توصُّل أبي الأسود إلى الرموز الكتابية الإعرابية الدَّالة على الضمة و الفتحة و الكسرة هو ما جعل درس النحو العربي يتَّخذ العلامة الإعرابية محورًا له ، و حين أخذ النحاة

يبحثون عن تفسير لاختلاف العلامات الإعرابية وضعوا نظرية العامل النحوي"[32]ص21. و بعد الانتهاء من الخطوة الأولى و هي السماع، ينتقل النحوي إلى خطوة أخرى محاولاً وضع القواعد المجردة و استخراج المعقول من المنقول فكان مثلَ ذلك المهندس الذي "يعرف علة كل شيء في البناية يعرف علة الطول و المساحات و المقاسات و علاقتها بالزمن و غيره"[33]ص40 و النحوي أيضا يعرف أصول وضع هذه القواعد و لكن لا يصرح بها بل يستعملها ضِمنيًا في استنباط القواعد، بعد ذلك تأتي خطوة التفسير التي تكون مهمة الأصولي؛ حيث يكتشف الأصول التي استعملها النحوي لوضع القواعد، و هذه الخطوات لعمري تكشف عن التفكير العلمي في النحو العربي.

إن البحث في النحو العربي يجعلنا لا نغفل الكلام عن كتاب سيبويه و هو قرآن النحو باعتباره أول أثر نحوي باق يمثل جهود المرحلة الأولى، فسيبويه كما يقول ابن خلدون:" فإنه لم يقتصِر على قوانين الإعراب فقط بل ملأ كتابَه من أمثال العرب و شواهِد أشعارهم و عباراتهم"[4]ص580 أي أن "سيبويه" نبَّه إلى مقاصد العرب، و أنحاء تصرفاتها في ألفاظها و معانيها، لكن من جاؤوا بعد سيبويه لعلهم انحرفوا بغاية النحو و أخذوا الجانب التقنيني وحده دون سواه من هذا الكتاب الذي أصبح يُأتَم الهُدَاة به، و انحرفت غاية النحو إلى زاوية ضيقة و هي معرفة الصواب و الخطأ في ضبط أواخر الكلم فحسب، أي الاهتمام بظاهرة اختلاف العلامات الإعرابية، و تفسيرهم لهذه الظاهرة اعتمد على فكرة العامل النحوي التي شغف بها النحاة فصاروا لا يرون غيرها و حرصوا على أصول صنعتهم جيلاً بعد جيل و تسلل هذا المفهوم إلى كل مؤلفاتهم في كل الميادين، و جرى في شرايينها حتى أصبح من الصعب إجراء أي جراحة في هذا الجهاز العصبي، ثم طفق النحويون يصنفون الكتب و المطولات و المختصرات و الشروح و شرح المختصرات و اختصار المطولات و المتون و التعليقات،و مثال ذلك ما أُحيطَ بـه كتاب سيبويه من شروح قديمًا و حديثًا، و ما لألفية ابن مالك من اهتمام أيضا، و كما يقول الدكتور مهدي المخزومي: " و تألفت لما كانوا يسمونه بالنحو مكتبة ضخمة قلَّ أن يُتاح لغير النحو مثلها" [34]ص28.

و خلاصة القول أن غاية علماء النحو الأوائل كانت واضحة؛ تتمثل في وضع قواعد مستنبطة من استقراء كلام العرب بالنظر في كل زوايا النحواللفظية والمعنوية والدلالية وغيرها لكن من جاء بعدهم قصروا الدرس النحوي على تتبع أواخر الكلم و حاصروه بنظرية العامل، و هذا لا يعني أبدًا أننا نرفض هذه النظرية فإن تطبيقها أثمرنتائج طيبة تقف شامخة حتى يوم أمام أحدث النظريات، بل ما نريد إيضاحه أن نظرية العامل لا تكفي وحدها لتفسير ظاهرة اللغة، غيرأن لعل تقليد الخلف للسلف، وإجلالهم لبعض كتبهم ككتاب سيبويه مثلاً، أدى إلى غلق باب الاجتهاد بحيث لا يستطيع الباحث إدخال أي جديد مهما كان على منهج النحاة الذي رسموه لأنفسهم.

كما لا يعني أننا لا نعترف بصنيع نحاتنا و قد أنفقوا أعز ما يملكون في إخلاص نادر، و صبر لا ينفذ لإعلاء بنيان شامخ للنحو، الذي لازلنا ملتزمين به إلى يومنا هذا، لكن ما نراه أنهم حصروا علم النحو في هذا الجانب دون سواه حتى جاء القرن الخامس الهجري و قد زهد الناس في النحو لكثرة تعليلاته، و أزاغوا البصر عنه "و ظنوه ضربًا من التكلف و بابًا من التعسف، و شيئًا لا يستند إلى أصل، و لا يعتمد فيه على عقل، و أن ما زاد منه على معرفه الرّفع و النصب و ما يتصل بذلك و مما نجده في المبادئ" [35]ص8، فقدَّر الله عالمًا يعيدُ للنحو روحه و حيويته التي قتلت في الجانب الشكلي و هو

العلاّمة عبد القاهر الجرجاني الذي حاول أن يغربل التراث النحوي، ليقدمه غذاءا لعقول أبناء العربية، لتبدأ بذلك مرحلة جديدة من مراحل علم النحو.

2.4.1.1. المستوى الثاني:إبرازالجانب الوظيفي للغة

و هو يهتم بناحية الجمال و الإبداع التي تتمثل في المرحلة الوظيفية، أي إبراز الجانب الوظيفي للغة، و ليس الجانب الأدائي، فقد أدرك النحاة في هذه المرحلة و على رأسهم عبدالقاهرالجرجاني أن هناك إرتباطا قويا بين التراكيب و المعاني و يُعبر عبد القاهرالجرجاني عن ذلك منطلقًا من المستوى الثاني للنحو،وليس المستوى الأدائي، حيث يقول:"أفليس هو كلاما قد اطرد على الصواب،و سلم من العيب؟ أفما يكون في كثرة الصواب فضيلة؟ قيل:أما و الصواب كما ترى فلا لأنا لسنا في ذكر تقويم اللسان، و التحُّرز عن اللحن و زيغ الإعراب، فنعتدُ بمثل هذا الصواب؛ و إنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة و دقائق يوصل إليها بثاقب الفهم"[35]ص98، من هذا المنطلق دأبنا على دراسة شخصية عبد القاهرالجرجاني التي لم يلتفت إليها أحد، مستهدفين في ذلك محاولة إبرازه في مجال علم النحو بعدما عُرف و لا يزال في مجال علم البلاغة ، فقد أسهم في مجال النحو بأراء و مؤلفات عديدة لم تدرس بعد دراسة علمية معمقة، ولعله لم يلتفت أحد من الباحثين إلى تصانيفه النحوية التي لا يملك الباحث أمامها إلاّ إطالة التأمل في آرائه، من أجل ذلك أردنا إيجاد مفهوم عبد القاهر الجرجاني للنحو من خلال كُتبه النحوية التي تندرج في مجموعتين :

1- مجموعة العوامل المئة و شروحها : و تَضم: العوامل المئة –الجمل (و هو شرح لكتاب العوامل المئة)- كتاب التلخيص (و هو شرح لكتاب الجمل المتقدم الذكر)

2-مجموعة شروح كتاب الإيضاح العضدي:

* الإيجاز؛ و هو شرح مختصر لكتاب الإيضاح.
* المغني في شرح الإيضاح؛ شرح طويل يتكون من ثلاثين مجلدا.
*المقتصد في شرح الإيضاح، وهوشرح متوسط.
* المقتصد في شرح التكملة.
* العمدة في التصريف؛ لم يصل إلينا هذا الكتاب.

أما المجموعة الأولى فليس فيها آراء خاصة أو أفكار جديدة إلاّ ما كان معروفًا مضافًا إليها براعة عبد القاهرالجرجاني في الشرح. و المجموعة الثانية: فكتاب "الإيجاز" لم يصلنا بعد، و هنا نفتح قوسا لنقول: إن هناك من الكتب ما لم يصلنا إلا عناوينها و لا نعرف أثرها و أين هي؟ و هذا يعني أن هناك جانبا من التراث محبوس لم يفرج عنه بعد و لا نعرف منه إلا اسمه و لعله يتوفر على كنز معرفي جليل، و السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا وصلنا بعض كتب عبدالقاهرالجرجاني و بعضها الآخر لم يصلنا بعد ؟هذا السؤال ينتظر فريق بحث ليغنينا عن الإجابة عنه.

و آخر كتبه تخص مجال الصرف، أمّا ما يكشف عن براعة عبد القاهرالجرجاني في النحو فهو المقتصد في شرح الإيضاح :" و على هذا يكون الحديث عن عبد القاهر نحويًا-بالضرورة- هو الحديث عن كتابه هذا"[18]ص33. و من يقرأ الكتاب يجده زاخرا بفكر عبد القاهر النحوي مما يدل على أن أساس الرجل كان نحويًا بالدرجة الأولى، حيث أحي روح المعنى و الحس و التذوق في علم النحو بعد أن عصفت به تعليلات النحويين، و حججهم الدائرة على تتبع أواخر الكلم، صحيح أن للإعراب أهمية كبيرة و لكنه يعبر

عن جانب من جوانب اللغة و لا يركز على خصائصها كلها لذلك فإن عبد القهارالجرجاني أعاد للغة سر جمالها بإعادته لعلم النحو حيويته. و ما يشُد أزر أراء عبد القاهر هو إقرار علم اللغة الحديث بالكثير من أفكاره لا سيما في علم النحو، فنجده يركز في مفهومه للنحو على المتكلم الذي يحوَّل المعنى إلى مبنى ينتقل خلال الهواء ليصل إلى جهاز الاستقبال اللغوي للملتقى، بينما مفهوم النحو في المستوى الأول كان يتجه من المبنى إلى المعنى أي الاهتمام بدورالملتقي لا المتكلم. و لعل الأسباب التي واكبت النحو في مرحلته الأولى جعلته يتجه هذا الاتجاه حيث كان الهدف من وضع القواعد هو إعانه اللاحن (أي المتلقي) على القراءة الصحيحة للقرآن الكريم، و هذا بالنظر إلى علامات أواخر الكلم، و ظلت الحال هذه حتى جاء النحاة إلى البحث عن فهم هذا القرآن الكريم فلم يستطع المنهج التحليلي الذي اتبعوه من تبيان إعجاز القرآن الكريم، لذلك حملت المرحلة الثانية في أحشائها تصورًا جديدًا للنحو، كان على يدي العلاَّمة عبد القهار الجرجاني الذي بَّين مفهوم ربط معاني النحو بأحوال الخطاب؛ بحيث "ينظر للنحوعلى أنه تحصيل الخبرات المتنوعة بأساليب العربية أو تراكيبها، لا على أنه تمييز بين صحة الكلام و خطئه فحسب"[36]ص164، إذ يَقرن بين المعنى و سلامة المبنى.كأن يعمد إلى قوله صلى الله عليه و سلم الذي ذكره الإمام البخاري في صحيحه باب طيب الكَلاَم إذْ يقول: حدَّثنا أبو الوليد حدَّثنا شُّعبة قال : أخبرني عَمُرو عن خَيثَمَة عن عَدِيَّ بن حاتم قَال: ذكر النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) النار فتعوَّذ منها و أشاح بوجهه، ثمَّ ذكر النار، فتعوذ منها، و أشاح بوجهه، قال شُعبَة:إما مرَتين فلا أشك، ثم قال "اتقوا النار و لو بشق تمرة فإن لم تَجِدْ فَبكلمَةٌ طيبِّة"[37]ص1242.

فلعله يحلله كما يلي :

- اِتقى = هو الحدث الذي يوقعه الناس على النار.
- الواو = نائبة عن الأشخاص الذين يجب أن يقع الإتقاء منهم.
- النار= هي ما يجب أن يُتقى.
- و لو بشق تمرة = الحال الذي يتقي به الناسُ النار.

بينما مفهوم النحو في مرحلته الأولى يتجه إلى تحليل الحديث الشريف كما يلي:

- اتقوا = فعل أمر مبني بحذف النون لأنه من الأفعال الخمسة.
- واو الجماعة = ضمير متصل في محل رفع الفاعل.
- النار= مفعول به منصوب ....

فإن عبد القاهرالجرجاني ضَّم هذا التحليل الأخير الذي يضبط سلامة البنية الشكلية إلى ذاك التحليل الذي يحقق الوصول إلى المعنى في تكامل واضح أدى إلى بث الحياة من جديد في علم النحو .

من أجل ذلك أردنا تسليط الضوء على فكر عبد القهار النحوي المُغيب، و لعل الأجيال القادمة تفرد له بُحوثها؛ فقد آن الأوان لنفض الغبار عن التراث النحوي الذي ننظر إليه بنظرة التقديس و نجتهد في إيجاد حقائق مهمة غائبة عن الساحة اللغوية منهاحقيقة ما لعبد القهار الجرجاني من فكر نحوي لم يُدَرس بعد دراسة علمية؛ حيث لا ينظر إلى علم النحو من الزاوية الضيقة التي تهتم بالإعراب فحسب بل من زاوية أعم و أشمل فتحتوي المعنى و ما يترتب على اختلاف الصورة في التركيب من اختلاف في المعنى .

و بعد أن نقل عبد القاهر الجرجاني هذا العلم من الاهتمام بأواخر الكلمات فقط، و البحث عن العلة و علة العلة، إلى علم رحب فسيح بيَّن مبادئه، طبَّق الزمخشري لذلك في "الكشاف" و في "المفصل" الذي

فصّل فيه الكلام عن النحو على النموذج الوظيفي، و قد عمِل ابن يعيش على نفس النموذج في شرحه للمفصل، لكن غُيِّبَ الفكر النحوي للجرجاني و اعتُبر عالما بالبلاغة فحسب، وطغى من جديد مفهوم النحو في مرحلته الأولى.ولازال علم النحو لغاية يومنا هذا يعرف على أنه النظر في أواخر الكلم "و مازلنا ننظر إلى تعليم النحو على أنه مجرد وسيلة لعصمة الألسنة من الخطأ في العلامة الإعرابية" [36]ص26.

و الحق يُقال أنه لا مناص من اعتماد هذا النحو الذي وصلنا و وَصله بمفهوم عبد القاهر الجرجاني، الذي يصلح أن يؤسس لنحو علمي وظيفي، و المعنى النحوي هو بيت القصيد في المستوى الثاني من مراحل النحو و نقصد به معاني أبواب النحو: كالفاعلية، و المفعولية و الحال، و التمييز، و الاستثناء، و النعت و العطف و البدل و الابتداء، و الخيرية....و تربط هذه المعاني مجموعة من العلاقات لبيان المقصود منها في الترتيب.

و المُستَنتَج من كل ما سبق تفصيله؛ أن علم النحو نشأ لعدة أسباب، أبرزها – كما يُجمع معظم الباحثين- هو ذيوع اللحن، و هذا الأمر دفع بعلمائنا إلى استنباط قواعد نحوية من مجاري كلامهم، اصطلحوا على تسميتها "علم النحو"، و كتاب سيبويه هو المصدر الذي دُوِّنت فيه هذه القواعد، مع العلم أنه كتاب جَمَعَ النحو و نظريته، لكن النحاة بعده استثمرُوه لأهدافهم التعليمية، و أغفلوا الجوانب النظرية (نظرية النحو العربي)، و اهتموا بأواخر الكلم، و َوضعوا نظرية العامل معتبرين إيَّاها النواة التي تدور حولها إلكَترُنات الأبواب النحوية، و كَثُرت التعليلات بظهور الخلاف بين المصرين: الكوفة و البصرة، فضاق الناس ذرعًا بالنحاة و تعليلاتهم، لحُزونة أسلوب عرضْهم، و الغُلُو في إبهامه و مزجه بالفلسفة، و كل هذه الملابسات كانت تحيط بالمرحلة الأولى –حسب تقديرنا- للنحو منذ سيبويه إلى القرن الخامس الهجري الذي حمل مفهوما جديدا للنحو على يد عبد القادر الجرجاني الذي يربط القواعد النحوية المعيارية التي اتسمت بها المرحلة الأولى للنحو، و التي تحدد حدود الصواب و الخطأ في الكلام، بأساليب الكلام يقول :"لأنَّا لسنا في ذكر تقويم اللسان و التحرز من اللحن و زيغ الإعراب فنعتد بمِثل هذا الصواب، و إنما نحن في أمور تدرك بالفكر اللطيفة و دقائق يوصل إليها بثاقب الفهم"[35]ص98 هذا يجعلنا نقرأ في كلام الإمام أشياء منها : إنه لا يُنقِّص من قيمة قواعد الإعراب، فهي قواعد حاول فيها علماء النحو أن يحاكوا نظام اللغة، و لعلهم استطاعوا إلى حد بعيد وصف و تفسير عمل "الملكة" و نقصد بهذه المفردة، ترجمة المصطلح "Compétence" الذي ظهر لأول مرة جليًا في مؤلف "تشومسكي" "مظاهر النظرية التركيبية" حيث يعرفه جورج مونان في قاموس اللسانيات بما يلي: " Notion fondamental qui désigne la connaissance implicite qu'un sujet parlent possède sur sa langue, cette connaissance implique non seulement la faculté de comprendre et de produite un nombre indéfini de phrases nouvelles"[38] p45و هي المعرفة الضمنية التي يمتلكها المتكلم – المستمع المثالي، و التي تُخوِّل له التلفظ بعدد غير محدود من جمل لغته. و هذا المفهوم موجود في التراث العربي، فـ "عبد الرحمان بن خلدون" تكلم عن ذلك و يستعمل له مصطلح "ملكة" و هذا ما دفعنا إلى اختيار هذه الترجمة عن سواها كترجمة لمصطلح "Compétence".

و عليه يمكن أن نخرج من هذا المبحث بالنقاط التالية :

1- إن اللغة نظام بالغ الدقة و التعقيد يتكون من الأنظمة الفرعية التالية: النظام الصوتي، النظام الإفرادي،النظام التركيبي.

2- النحو لغة يعني القصد و الطريق.
3- النحو اصطلاحًا مرَّ – حسب تقديرنا- بمرحلتين: النحو بمعناه الشكلي (الأداء). و النحو بمعناه الوظيفي.
4- إن علم النحو عبارة عن قواعد صاغها النحاة بعد أن تصوروا كيفية عمل الملكة، و بالتالي فهم لم يخترعوا شيئًا بل حاولوا اكتشاف النظام اللغوي، و هو نظام تمتلكه الجماعة لذلك فإن المتكلم مجبر على اتباع هذه القواعد و ليس له أن يغير شيئًا فيها لأنها تعلمه كيفية التعبير السليم والسؤال الذي يطرح نفسه: هل النحو كاف لتحصيل ملكة لغوية يستطيع من خلالها المتكلم توصيل ما يقصده لمستمعه؟ أو بعبارة أخرى، هل النحو وحده كفيل بتبيان وظيفة اللغة الأساسية التي هي الإبلاغ؟

2.1. تعريف البلاغة و بيان مراحلها

إن النحو –كما رأينا- يُعد من العلوم التي نشأت للحفاظ على نص القرآن الكريم، و نهض علماؤنا لهذا العمل، فوضعوا قواعد استنبطوها من مجاري كلاهم؛ لكن العلوم تطورت و الإنسانية تقدمت خطوات في ميدان الدرس اللغوي، و العصور تتلاحق، و الله يجعل لأهل كل عصر قدر من العلوم، فهي منح إلهية، و مواهب صمدية [39]ص37. لأجل ذلك لابد من الاجتهاد في النحو، و نقصد بالاجتهاد ما عناه الدكتور أمين الخولي بقوله:"فالذي أريده من الاجتهاد النحوي هو: البحث الحر المنتفع بآخر ما وصلت إليه الإنسانية من جهد في الدرس اللغوي، و عدم قبول أقوال الأولين في ذلك، بلا تمحيص...."[40]ص69. هذا الاجتهاد يجعلنا نقرأ تراثنا النحوي قراءة جادّة لعرضه على الحداثة، بدل إنزوائه في الجانب التعليمي و محاولة تقديمه في قوالب جامدة خالية من روح الممارسة الفعلية.فإذا ربطنا هذا الواقع بما يحدث في بلاد الغرب، نجد أن مجال تعليم اللغات يزخر بالمناهج التي أثبتت التخلي عن طريقة تعليم النحو في قوالب جافة دون ممارسة فعلية فهذا كتاب"ديان لارسن فريمان" المرسوم بـ "أساليب و مبادئ في تدريس اللغة" تصف فيه الطرائق المعروفة في تدريس اللغة بأسلوب علمي و سهل-من وجهة نظرها- و تنتهي المؤلفة بآخر منهج في تعليم اللغات فتسميه المذهب الاتصالي و تقول عنه: "و علماء هذا المذهب الاتصالي... يعترفون كذلك بأهمية التراكيب و المفردات، و لكنهم يعتقدون أن هذه النقاط وحدها لا تكفي، فقد يتقن الطالب معرفة قواعد استعمال اللغة و لكنه يفشل في استعمالها عمليًا"[41]ص139.

و لعل من نافلة القول أن نقول: لابد أن نستفيد من المناهج الحديثة، رغم أن المؤلفة تتكلم عن اللغة الانجليزية – وليست العربية كالانجليزية- و لكن هذا لا يمنع من الاستفادة مما توصل إليه علماء الغرب في ميدان تعليم اللغات لنستطيع تعليم اللسان العربي بطريقة ناجعة، و إذا كان هذا التعليم يعتمد على تعليم علم النحو بالدرجة الأولى، فهل كل مكتسب للملكة النحوية قادر على
استعمالها حسب أحوال الخطاب؟ نقول إن اكتساب الملكة النحوية لا يكفي "لأن الاقتصار في تعليم اللغة بجانب السلامة النحوية دون مراعاة ما تستلزمه عملية الخطاب يبقى هذا التعليم ناقصا"[42]ص210. و ما نقترحه هو ربط جانب السلامة النحوية بالسلامة البلاغية، حتى تُؤتِي العملية التعليمية أكلها، و هذا الدكتورعبد الرحمان الحاج صالح يرى أنه لابد من إدخال البلاغة في تعليم اللغة من البداية ، لحصول الملكة اللغوية التي يعرفها بأنها:"مهارة التصرف في بنى اللغة بما يقتضيه حال الحديث "[43]ج1،ص184.

و إذا كان علم النحو وحده غير كاف لبيان و تبيين وظيفة اللغة الأساسية سننتقل إلى علم آخر علّنا نجد فيه ما كنا نبغي و هو علم البلاغة؛ فما هي البلاغة؟ و ما هي مراحلها؟ و هل تكفي وحدها لاكتساب ملكة اللغة؟ أو لتجلية وظيفتها؟

1.2.1. البلاغة لغة

البلاغة لغة مشتقة من فعل بَلَغَ (بفتح العين و ضمها)، و قد أجمع أصحاب المعاجم على أن معناها الوصول و الانتهاء، و إن كان يضاف لها معنى النضج أيضًا.

1- فهذا أحمد بن فارس في مقاييس اللغة يقول :"الباء و اللام و الغين أصل واحد و هو الوصول إلى الشيء، نقول بلغت المكان، إذا وصلت إليه، و قد تسمى المشارفة بلوغًا بحق المقاربة، قال الله تعالى:(فإذا بلغن أجلهُنَّ فامسكوهن بمعروف) [44] المجلد1، و تقول العرب: بلغ السيل زبى، و بلغت الغاية، و بلغني الخبر إذا وصل إليَّ و يقول لقيط بن يعمر الإيادي:

بلغ إيادا و خلل في سراتهم إني أرى الرأي –إن لم أُعصَ- قد نصعا.

2- و نقول بَلَغَ الولد، و بلغت البنت، و بَلُغَ الزرع، بمعنى وصولهم إلى النضج قال تعالى:*(و ابتلوا اليتامى حتى إذا بَلَغُوا النّكاح فإن أنستهم منهم رُشدًا فادفعوا إليهم أموالهم)* [1]النساء/الآية6 أي حتى إذا وصلوا سن البلوغ و هو سن الزواج.

3-أما بَلُغَ (بضم العين) أي أصبح بليغًا في كلامه يقول ابن منظور: "و رجل بليغ و بَلْغٌ: حسن الكلام فصيحه، يبلغ بعبارة لسانه كُنه ما في قلبه"[11] و منها البلاغة :" التي تمدح بها فصيح اللسان، لأنه يبلغ بها ما يريد"[44]. و قد ذكرت هذه المعاني في القرآن الكريم وهوأعلى مراتب البلاغة، ومن بين الآيات الكريمة التي تناولت المعنى اللغوي للبلاغة مايلي:

قال تعالى : (*وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن*) [1]البقرة/الآية230 أي انتهين من العدة. و قال أيضا: (*أم لكم أيمانٌ علينا بَالغةٌ إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون*) [1]القلم/الآية39 أي منتهية في التوكيد، و قال أيضا: (*كباسط كفيه إلى الماء ليبُلغ فاه و ما هو ببالغة*) [1]الرعد/الآية15 أي و ما هو بمنته إليه و غيرها من الآيات.

و خلاصة الأمر أن البلاغة لغة بإجماع المعجميين هي الوصول و الانتهاء.

2.2.1 .البلاغة اصطلاحا

1.2.2.1. عند القدامى

تناقلت كتب الأدب و البلاغة و النقد عدة تعريفات اصطلاحية "للبلاغة"، نجدها في كتب المتقدمين و المتأخرين على حد سواء، حتى لاكتها الألسن، و مجَّتها الأسماع لذلك لا نريد تكرار ما كُرِّر، و لا نزعم أننا سنأتي بالجديد، لكن سنحاول معالجة هذا الجزء من البحث بأمانة و موضوعية.

لقد ساهم النحاة بقسط في البلاغة، و إن كان عملهم هذا يكاد لا يُذكر في المؤلفات سواء القديمة منها أو الحديثة؛ حيث نجد المكتبة البلاغية تكادُ، تخلو من هذا البحث، و هو حقل بكر لابد أن تكثرالبحوث حَوله،ومن بين النحاة الذين كان لهم أثرا بارزا في الدراسات البلاغية الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي

يعرف البلاغة بأنها "ما قرب طرفاه و بعد منتهاه"[45]ج4،ص190 أي اختصار الألفاظ مع ازدحام المعاني،و هو لم يقصد تعريفا علميا للبلاغة، بقدر ما قصد وصف الكلام البليغ.

و ربما نكون بمنأى عن الاتهام إذا قلنا أن سيبويه- تلميذ الخليل- ساهم هو الآخر في وضع مفاهيم علوم البلاغة-كما قسمها السكاكي في القرن السابع الهجري- لكن الباحثين بعده لم يلتفتوا إلى آرائه البلاغية، كما لم يلتفتوا إلى نظريته النحوية المبثوثة في الكتاب، يقول عبد القادر حسين مؤكدًا دور النحاة:"فالنحاة هم أصحاب الفضل الأول في نشأة البلاغة على الرغم من أنها كانت في البداية نظرات متناثرة هنا و هناك ضمن مباحثهم النحوية، ثم أُتيح لمن أعقبهم أن يصوغ من هذه النظرات العابرة قواعد بلاغية ذات صبغة علمية"[46] وعليه فإن الإرهاصات الأولى لأي علم تبدأ بنظرات مبثوثة في بطون كتب المتقدمين، و ثنايا تحليلاتهم ،حيث يستفيد منها المتأخرون لوضع أسس أي علم بعد دراسة و تمحيص.

أما عن الأدباء فقد أسالوا كثيراً من الحبر في محاولة تعريف البلاغة اصطلاحاً لأنهم عَدُوها أحد أركان الأدب الأساسية. و لعل أبرز من تناول ذلك الجاحظ في (البيان و التبيين)؛ حيث يذكر تعريف البلاغة عند الأمم، و عند الهنود و عند العرب، غير أنه يفضل التعريف الآتي:"و قال بعضهم – و هو من أحسن ما اجتبيناه و دوّناه- لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، و لفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"[47]ص81 و هو بهذا يصف بلاغة الكلام ضاربًا صفحًا عن بلاغة المتكلم، فهو حديث عن أثر الكلام في نفس المتلقي أكثر منه حديثا عن حد البلاغة و مفهومها، و لسنا هنا بصدد التفصيل في الأمر، و ما يهُمنا هو اختيار تعريف يخص المرحلة الأولى للبلاغة، و تعريف يخص المرحلة الثانية لها، فهذا كفيل بإخراجنا من دوامة تعريفات كثيرة. فاخترنا تعريف الخليل بن أحمدالفراهيدي لنُنبْه إلى جهد النحاة في نشأة البلاغة، و اخترنا تعريف الجاحظ، و باقي التعاريف تدور في فلكه لأنهم عايشوا المرحلة الأولى، أما تعريفا السكاكي و القزويني فهما يأخذاننا إلى مرحلة أخرى للبلاغة.حيث يعرف "أبو يعقوب السكاكي" البلاغة بما يلي:" بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدًّا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، و إيراد أنواع التشبيه و المجاز و الكناية على وجهها"[13]ص526.
إن إطلاعنا على الجزء الثالث من كتابه يجعلنا نستنتج أن البلاغة عنده: مراعاة ما شرحه في علمي المعاني و البيان.

أما عن تعريف الخطيب القزويني و تقسيماته الذي سارفي الناس مسرى النار في الحطب كما يقولون، فهو الآتي:"أما بلاغة الكلام فهي: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[48]ج1،ص80، و هو يزيد عن سلفه السكاكي في حدِّ البلاغة شرطي: الفصاحة و مراعاة مقتضى الحال.

2.1. 2. 2.عند المحدثين:

إن تعريف الخطيب القزويني يعتبر قطب رحى لمؤلفات من جاء بعده حتى عصرنا هذا، فنجد مثلاً الدكتور أحمد مصطفى المُراغي- و هو من اللغويين المعاصرين- يعرفها كما يلي:"بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال التي تورد فيها مع فصاحته، و لن يطابق الحال إلا إذا كان وفق عقول المخاطبين و اعتبار طبقاتهم في البيان و قوة المنطق"[49]ص35، و هو لم يزد عمَّا ذكره القزويني شيئًا يذكر إلاّ الشرح و التعليق الذي ساد العلوم بعد القرن الثامن الهجري و كأن الأقلام جفت، و القرائح نضبت و الأبصار

عميت عن كل جديد نافع، و إن كنَّا نعترف أن هذا الوضع أفاد البلاغة بالتعمق في شرح موضوعاتها، و تفصيل القول في علومها و مصطلحاتها. أما الدكتور جعفر دك الباب فيعرفها حسب مفهوم الجرجاني لها،حيث يقول:"البلاغة وصف الكلام بما يلي:

1- حسن الدلالة و تمامها فيما كانت له.

2- تبرج الدلالة في صورة بهية.

و يتم ذلك بتوفر عاملين هما:

1- أن يؤثر المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته.

2- أن يختار للمعنى اللفظ الذي هو أخص به و أكشف عنه و أتم له"[3]ص19.

نلاحظ أنه لم يقدِّم تعريفًا جامعًا للبلاغة، إنما جعل حسن الدلالة و تبرجها في صورة بهية شرطا البلاغة، أما توفر العاملين فلعله يوحي بأن الدكتور يقصد بالعامل الأول مراعاة علم المعاني، و يقصد بالثاني مراعاة علم البيان.

و من المعاصرين الدكتورعمارساسي؛ الذي يأخذ بتعريف أبو هلال العسكري لأنه يجده الأوضح و الأصح بعد أن عرض مجموعة من التعريفات المختلفة إذْ يقول:" و لعل أقرب و خَير تعريف يفصح عن معنى البلاغة و أهدافها هو ما ذهب إليه أبو هلال العسكري: (البلاغة هي كل ما تبلغ به المعني قلب السامع فتمكنه في نفسه، كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة و معرض حسن" [16]ص32. فمدار الأمر كله هو فهم المعنى المباشر، و نقصد ما في نية المتكلم إبلاغه للسامع، على أن يختار صورة صحيحة بهية و لغة يعرفها الطرفان، و هنا نلمس المفهوم اللغوي جليًا لمعنى البلاغة، فإذا كان معناها الوصول و الإنتهاء و لا يخفى على أحد ما للوصول و البلوغ من تفوق، "سواء كان البلوغ بلوغ المكان أو الزمان أو أي أمر من الأمور، فالواصل أقدر من المنقطع قبل الوصول و أمكن منه"[11].

و خلاصة القول أن تعريف البلاغة اصطلاحًا هو إيصال مقصود المتكلم أو غرضه إلى قلب السامع.

1. 2 . 3. مناقشة لتعدد تعريفات "البلاغة"

تناقلت كتب الأدب و النقد حدودًا كثيرة للبلاغة، و أول ما يصادفنا كتاب الجاحظ الموسوم بـ (البيان و التبين) حيث يذكر أقوال الحكماء و البلغاء من عرب و غير عرب في معنى البلاغة إذْ يقول :

"قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال : معرفة الفصل من الوصل.

قيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، و اختيار الكلام.

قيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، و الغزارة يوم الإطالة.

قيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، و انتهاز الفرصة و حسن الإشارة"[47]ص127.

أما عن العرب فقد نقل الجاحظ صحيفة تسمى بصحيفة "بشر بن معتمر". كما ذكر تعريفات أخرى لا يتسع المقام لذكرها، لكن ما نستنتجه؛ أن الجاحظ ينقل إلينا أخبارا كما وصلته دون تعليق أو شرح أو محاولة إيجاد تعريف واضح للبلاغة،كما نجد تعريفات عديدة للأدباء يضيق المقام لذكرها كلها:كتعريف ابن معتز في كتابه"البديع"،وتعريفات أبو هلال العسكري في "الصناعتين"، وتعريف ابن سنان الخفاجي في" سر الفصاحة"، وتعريف ابن رشيق القيرواني في "العمدة في محاسن الشعروآدابه". وهو مايوحي بكثرة التعريفات التي أحيطت بمصطلح بلاغة بل إلى مرحلة مرت بها البلاغة ساهم فيها عدة طوائف منها:طائفة

المتكلمين،طائفة المفسرين، طائفة الأصوليين، طائفة الكتاب والفقهاء و المناطقة، طائفة النقاد. و معظم من جاؤوا بعد الجاحظ أو سبقوه حتى القرن الخامس الهجري كانوا يصفون البلاغة كما يتصورونها في كلامهم و خطبهم و شعرهم، باعتبارهم أمة بيان فقد "عُرف عن عرب الجاهلية كثرة الخطباء و البلغاء.. و اعتزازهم بالبيان و في هذا يقول ضمرة: (إنما المرء بأصغريه: قلبه و لسانه، إن صال صال بجنان، و إن قالَ قال ببيان)" [50]ص11. و لما جاء الإسلام وجد البلاغة فيهم فكانت المعجزة من جنس ما اشتهرت به العرب في جاهليتهم من بيان فعجزوا أن يأتوا بمثله، و عَدُوه من أعلى مراتب البلاغة فإذا بحثنا عن مفهومهم للبلاغة فلنَعُدْ إلى كلام البلغاء من جاهليين و إسلاميين أو مويين و عباسيين؛ حيث البلاغة عندهم ترتاح لها النفوس لأنها صادرة عن قريحه عفوية، و ذوق سليم.

إن البحث في تعريفات البلاغة منذ نشأتها في أوائل القرن الثاني الهجري – و إن كان هناك شذرات لمفهومها في العصر الجاهلي- أخذ ينمو و يتطور حتى وصل ذروة ازدهاره في عصر عبد القاهرالجرجاني و الزمخشري في أوائل القرن السادس؛ حيث وضعًا أسسي علمي المعاني و البيان، لكن من جاء بعدهما في القرن السابع لم يعملوا على إثراء البلاغة "بل وقفوا مبهورين بما توصل إليه كل من عبد القاهر و الزمخشري في ميدان البلاغة فلم يُضيفوا إليه جديدًا، و جعلوا أقصى غايتهم أن يلتزموا ببلاغة عبد القاهر"[50]ص267. ثم وضع كل من السكاكي و القزويني تحديدات منطقية للبلاغة محاولين تقنينها على شكل علم قائم بذاته يقول الدكتور عبد المنعم خفاجي في مقدمة شرحه لكتاب الإيضاح : "و اتخذوا من قوله (يقصد القزويني) في البلاغة مصطلحًا لها و دخل في كتب التعريفات و المصطلحات"[49]ص40.

و ما نلاحظه فيما يخص كثرة تعريفات مصطلح "بلاغة"- و الذي تحتاج إلى مذكرة لوحدها- أنَّ البلاغة منذ نشأتها حتى عصرعبد القاهر الجرجاني كانت تُفهم بالذوق ، لا تقيدها حدود، و لا تُكبلُها قوانين،كانت تقوم على جمال التعبير،وسلامة التفكير، و حسن الإيضاح، و الدقة في تأليف الكلام، فكانت بذلك تنمِي الذوق، و تُعلم كيفية القدرة على التعبير السليم دون الحاجة إلى إيجاد تعريف جامع مانع لها، إلى أن انتهى أمرها إلى أبو يعقوب السكاكي فألَّف كتابه "مفتاح العلوم"، الذي بث فيه خلاصة ما توصل إليه في البلاغة. و لا نوافِق من يتهمه بجمود البلاغة على يديه، فما ذنب الرجل إذا كان عصره عصر جمِع و اختصار، بل لعل اللوم على الخلف الذين انبهروا بصنيعه و لم يحركوا دعائم البحث في كتابه.

و عليه لابد من التفريق بين تعريف مصطلح البلاغة الذي ساد المرحلة الأولى للبلاغة منذ نشأتها إلى عصر عبد القاهر الجرجاني و بين تعريف علم البلاغة الذي قرره السكاكي و من لفَّ لفه حتى عصرنا هذا، و الفرق بين البلاغة و علم البلاغة مثل الفرق بين النحو و علم النحو الذي أخبرنا عنه عبد الرحمان بن خلدون بقوله:"أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة و مقاييسها خاصَّة. فهو علم بكيفّية لا نفسُ كيفيَّة"[4]ص579 كذلك الفرق بين علم البلاغة و البلاغة "لأن البلاغة ممارسة فعلية للكلام البليغ و علم البلاغة نظرة موضوعية للكلام البليغ"[51]ص138.و هذا ما يؤكده الدكتورعبد الرحمان الحاج صالح إذ يقول:"البلاغة هي كيفية استعمال المتكلم للغة و النحو فيما هو مخيرَّ فيه لتأدية غرض معين، أما علم البلاغة فهو النظرية التحليلية لكيفية تخيَّر المتكلمين للألفاظ بغاية التأثير"[43]ص182. البلاغة الحقيقية هي التي تنمي الأذواق، و تكسب المرء القدرة على الاستمتاع بالآثار الأدبية القيمة، و بهذا تصبح البلاغة وسيلة تساعد على تذوق النصوص "و متى أصبحت علمًا أصبحت غاية في ذاتها تلتمس لها الأمثال من الشواهد، و قد كان الأمر بها قبلاً وسيلة إلى التماس الجمال في الأدب لا غاية يسخر لها الأدب و غير الأدب من الأمثال و الشواهد"[8]ص28. لذلك علينا التفريق بين البلاغة و علم البلاغة، أما مفهوم

"البلاغة" فهو ما يوضحه الدكتور بكري شيخ أمين إذّ يقول :"مقتضى الحال هو في الحقيقة لُبُّ البلاغة و جوهرها، إنه وضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب، إنه مخاطبة الناس على قدر عقولهم و فهومهم إنه حديث الأذكياء بما يليق بالأذكياء و إنه مخاطبة الأغبياء بما يليق بالأغبياء..." [52]ج1، ص38 و هو مفهوم سبقنا إليه العرب حين قالوا: هي أن تجعل لكل مقام مقال، و لكل حال ما يناسبها من القول في عبارة فصيحة و معنى مختار، فتخاطب الذكي بغير ما تخاطب به الغبي، و تخاطب الملك بغير ما تخاطب به عامة الناس. و هذا ما نفتقر إليه اليوم، بعد أن اختلط الأمر في الكلام، و أصبح الناس لا يحسبون للمقام المقال الذي يناسبه و ضاعت الأوقات في خصومات تافهة من أجل كلمة غير مناسبة في مكان غير مناسب.
و لكي نتحرى الدقة العلمية نقول أن البلاغة شيء و علم البلاغة شيء آخر، لذلك فإن قضية التعريف لابد أن تُضبط جيدًا في إطار المصطلح، فإذا أردنا تعريف البلاغة فهي كما تصورها العرب "صفة لكيفية استعمال المستعمل لهذه المعطيات اللغوية و المقاييس النحوية إفرادًا و تركيبًا"[14]ص22. لذلك نجد تعاريفها منذ القرن الثاني الهجري حتى عصر عبد القاهر الجرجاني عبارة عن أوصاف لها ليس إلا وهذا ما يؤكده الدكتور عمار ساسي الذي نقل في كتابه "المدخل إلى النحو و البلاغة في إعجاز القرآن الكريم" مجموعة من التعريفات لكي يستنتج في الأخير أنها أوصاف للبلاغة إذْ يقول :"و الحقيقة أن هذه التعاريف ما هي إلا أوصاف للبلاغة، لأن من خصائص التعريف في البحث العلمي، أن يكون جامعًا مانعًا و في غاية الدقة، ثم إن هذه الأوصاف لا تمس إلا ناحية و جانًبا واحدً منها علمًا أن للبلاغة جوانب و نواحح عدة"[16]ص32 إذن للبلاغة نواحي عديدة و إذا كانت عند العرب الأوائل صفة، فهي عند المتأخرين مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته و عليه فالبلاغة عندنا هي استثمار للمعطيات اللغوية و المقاييس النحوية في حالات خطابية معينة. و بالتالي تشمل الكلام و المتكلم أما علم البلاغة فهو :"علم التبليغ الفعَّال، علم التبليغ الذي يكون له نجاعة أي تأثير في مشاعر المخاطَب أو عقله أو مجرد نجاعة بيانية بحسب مقتضى الحال"[53]ص91.

و النتيجة من هذا؛ أن كثرة تعريفات مصطلح "البلاغة" راجع إلى المراحل التي مرت بها، فما هي هذه المراحل ؟ و بماذا تميزت كل مرحلة؟

1. 2. 4. قراءة لمراحل البلاغة

"إن الذي يتتبع الدرس البلاغي من المتقصين لا يجده يخرج عن ثلاثة أصول: بعث لكتابات الجرجاني، أو دراسة تاريخية للبلاغة القديمة، أو نقد جريء يعتمد على النظر إلى التطور و تأثيره في تغيير فن القول"[54]ص281. فإذا نظرنا إلى الدراسة التاريخية نجدها تعتمد المنهج التاريخي الذي يتتبع الظاهرة منذ نشأتها حتى يوم الناس هذا، وإن كانت البلاغة لم تحظ بَعد بدراسة شاملة لتاريخها الطويل شأنها في ذلك شأن علم النحو،وما نريده هو دراسة مراحل البلاغة وفق منهج وصفي وظيفي، و على ضوء ذلك نرى أن البلاغة مرت بمرحلتين بارزتين تفصل بينهما فترة مزدهرة في تاريخها.

1. 2. 4 . 1. مرحلة التذوق الأدبي:

امتدت هذه المرحلة منذ العصر الجاهلي على مدار خمسة قرون حتى مُستهل القرن الخامس الهجري، و التي يمكن أن نسميها المدرسة الأدبية على حد تعبير الدكتور عبد القادر حسين الذي يصف بعض خصائصها فيما يلي:"إنها تستعمل المقاييس الفنية في الحكم على النصوص الأدبية و ترجعه إلى الذوق و الإحساس الفني، و أسلوب كتبها سهل ميسور لا تعقيد فيه و لا عناء لقارئه"[55]ص14، و قد

ساهمت في نموها أطراف عديدة مثل:علماء اللغة، و الشعراء و الأدباء و النقاد، و المفسرين و كتب البلاغة مليئة بأخبار هؤلاء مما لم يترك زيادة لمستزيد. و ما امتازت به هذه المرحلة أن معظم رجالها عاشوا في بيئة عربية خالصة؛ حيث جُبلوا على الذوق السليم و الإحساس الفني الصادق، فلم يهتموا لوضع التحديدات و التقسيمات. و لو أردنا تحليل أي نص وفق مفهومهم للبلاغة. و ليكن هذا النص حديثا نبويا شريفاوالذي يعتبر في قمة البلاغة و الفصاحة بعد القرآن الكريم، كيف لا و قد شهد الرسول صلى الله عليه و سلم على نفسه بذلك فقال :"أنا خير من نطق بالضاد بيد أني من قريش و نشأت في بني سعد فأنى لي اللحن"[56]. و يقول مصطفى صادق الرافعي عن البلاغة النبوية ما يلي:"فهي إن لم تكن من الوحي و لكنها جاءت من سبيله و إن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله"[57]ص227 و عليه سنحاول تحليل حديث نبوي شريف بلاغيا وفق مفهوم البلاغة في المرحلة الأولى و ليكن الحديث التالي:حدثناموسى بن إسماعيل،حدثناوُهيب،حدثناأيوب،عن أبي قِلابة عن أنس رضي الله عنه، قال كانت أم سليم في الثقل وأنجشة غلام النبي صلى الله عليه وسلم يسوق بهن،فقال النبي صلى الله عليه و سلم"يا أنجش رويدك سوقك بالقوارير"[37]ص1269 ولعل محلل الحديث النبوي الشريف يقول بدايةأنه موجز، و الإيجاز من أجل القوة و التأثير،فرغم قلة هذه الألفاظ الا أنها تحمل اتساعا في المعاني، فرويدك دليل على التمهل، وسوقك أي مشيك بالإبل، أما "القوارير"فهي الزجاجات ووجه المعنى ظاهركأنهن- أي النساء داخل الهودج- يشبهن الزجاج في نوره و صفائه و رقته، فلا بد من حفظه و مراعاته و الرفق به. و المحلل لا يخفي عنه النظر إلى المقام و الجو الذي قيل فيه الحديث؛ فرؤية النبي صلى الله عليه و سلم لحادي الإبل و هو يسرع بها، جعله يشفق على حال النساء داخل الهودج الذي يضطرب بهن، فأخبر الحادي في عبارة موجزة أن يتمهل أولاً، ثم أردف ذلك بوصية خالدة و هي (الرفق بالنساء) اللاتي شبههنَّ بالقوارير لرقتهن فكان كلامه مطابقًا للمقام الذي كان بصدده، و هذه ميزة من مميزات الخطاب النبوي، يقول الدكتور حسين الحاج حسن في مطابقة كلام الرسول صلى الله عليه و سلم للمقام المناسب:"و هو ما سارت عليه سنته صلى الله عليه و سلم في مخاطباته لمختلف الطبقات و الأجناس، و القبائل، فكان إذا خاطب غير العرب كملوك الفرس و الروم كتب إليهم بما يسهل ترجمته، و يعرفه من له أدنى معرفة بلسان العرب، و إذا كتب إلى أقيال العرب أجزل العبارة و فخم اللفظ، و انتقى المعني مراعاة لقدرة ملكاتهم على فهم ذلك ،وما جبلوا على سماع مثله"[58]ص132 فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يراعي لكل حال ما يناسبه و لوتركنا القلم لأنطلق يصف بلاغة الرسول صلى الله عليه و سلم في حديثه مما نتركه لفصل آخر من البحث، و ما يهمنا أن البلاغة في مرحلتها الأولى كانت وسيلة تساعد على تذوق النصوص .

1 . 2. 4. 2. مرحلة الازدهار الجرجانية:

لقد أخذت البلاغة تزدهر منذ القرن الخامس على يد عبد القاهر الجرجاني الذي كان كتاباه "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة" يحملان في أحشائهما ميلاد بلاغة حية؛ حيث دوّن فيها أصول البلاغة صيانة لها، فإذا كانت "كتب الجاحظ حُبلى بجنين البلاغة، و لكنها لم تمنح هذا الجنين فرصة الميلاد"[31]ص297،298 فإن كتب الجرجاني أطَّرت البلاغة، و قامت على دراسة الذوق و الإحساس الجمالي إلى جانب الضوابط الشكلية. يقول الدكتور عبد العزيز عتيق:"و هو بهذين الكتابين يعد بحق واضع أسس البلاغة العربية و الموضح لمشكلاتها و الذي على نهجه سار رجال البلاغة بعده و أتموا البيان الذي رسم حدوده و معالمه و أرسى قواعده و أركانه"[50]ص246 و لا نفشي سرًا إذا قلنا أنه لم يفعل ذلك وحده، بل سعة اطلاعه، و تبحره في عدة علوم واستعابه لأراء و أفكار من قبله جعله يؤطر البلاغة و يرسي أسسها على

قواعد ثابتة فإذا أردنا تحليل نفس الحديث النبوي الشريف على ضوء من فكرعبدالقاهرالجرجاني، بعد أن تأخذنا الروعة، و يكتنفنا السحر و نحن نتأمل هذا الحديث أو أحاديث شريفة أخرى، و قد لا ندري سببا لإعجابنا، و لا نعرف علّة لسرورنا، يأخذ بيدنا ابن الصنعة – كالجرجاني و الزمخشري- فيقفُنا على موطن الجمال الذي استهوانا و يربط بينه و بين أنفسنا برباط من ذوقه و فكره، فإذا سبب الإعجاب مكشوف لأعُيننا، واضح أمام ناظرنا، فنزداد فوق إعجابنا بالجمال إعجابًا بمعرفة سرّه و نشوةً بإدراك أمره [52]ص45. فلوعُرض عليه الحديث النبوي للتحليل لعله يقول ما يلي:"إن الحديث النبوي يمتاز بالإيجاز و الاختصار من أوله إلى آخره، حيث تدل أول كلمة فيه و هي "رويدك" على ذلك و باعتبارها اسم فعل نجد الجرجاني يقول في أسماء الأفعال ما يلي :"اعلم أن هذه الأسماء يؤتى بها لضرب من الاختصار ...كَرُويد، و هو مصدر في الأصل من أرْوَدُ يُرودُ أرْوَدَ أمهل، و ما هو خلاف الإرهاق"[18]ج1 ص570. ولعل هذا المعنى المعجمي الذي ذكره الجرجاني هو ما جعل رسولنا الكريم عليه السلام يختارمفردة "رويدك"بالذات دون كلمات أخرى مثل:لاتسرع،لاتعجل و غيرها. مما يدل على أن مفردة"رويدك" هي المناسبة لهذا المقام، ثم إنّ جل ألفاظ الحديث أسماء، و لا يخفى على المحلل: ما للأسماء من دلالة الثبات الذي يناسب المقام الذي قيل فيه الحديث يقول مصطفى صادق الرافعي:"و قوله لأنجشة، و كان يسير بالنساء في هوادجهن، و هو يحدو بالإبل و ينشد القريض و الرجز، فتنشط و تجِدُّ و تنبعث في سيرها فتهتزّ الهوادج و تضطرب النساء فيها اضطرابًا شديدًا فقال عليه الصلاة و السلام "رويدك رفقًا بالقوارير"[57]ص265، فالمقام يستدعي ذكر الأسماء التي تدل علىالثبات، لترغيب حادي الإبل على الرفق بالنساء حتى لا تضطرب بهن الهوادج، ثم إنه قال: سوقك بالقوارير، ولم يقل:بالقواريرسوقك، فقدم مفردة سوقك تنبيها للسامع وتبيينا له للفعل الذي يجب القيام به ثم يخصص هذا الفعل بفئة النساء، و لو قدّم مفردة(القوارير) لما علم السامع العمل المطلوب منه، لذلك كان التقديم من أجل العناية و الاهتمام .وكنى عن رقة النساء و لطفهن بالقوارير لأنها سريعة التكسر يقول ابن حجر العسقلاني:"كنى عن النساء بالقوارير في الرقة واللطافة و ضعف البنية، وقيل المعنى سقهن كسوقك القوارير لو كانت محمولة على الابل "[59]ج10،ص614 ولو بقينا نشرح الصفحات الطوال لما أنهينا الكلام عن بلاغة أحاديث النبي صلى الله عليه و سلم خاصة إذا شرحها لنا العلامة عبد القاهر الجرجاني .

1 . 2. 4. 3.مرحلة التنظيم السكاكية:

طغت التحليلات المنطقية على هذه المرحلة حتى سُميت "بالمدرسة الكلامية"؛ التي يبين "مصطفى الصاوي الجويني" بعض خصائصها بقوله :"فتمتاز بخاصة أهلها المتكلمين في الجدل و المناقشة و التحديد اللفظي، و العناية بالتعريف الصحيح، و القاعدة المقررة و الإقلال من الشواهد الأدبية، وعدم العناية بالناحية الفنية من خصائص التركيب و تقدير المعاني الأدبية"[60]ص73.و قد كانت هذه المدرسة أوفر حظًا عند المتأخرين أمثال : الفخر الرازي و السكاكي و القزويني، حيث قننُّوا البلاغة في مصطلحات و تعريفات محددة عكف عليها من جاء بعدهم، و أصبحت سنة التقليد فيما بعد سنة حميدة، كيف لا؟ و هم يقولون: "من قلّد عالمًا لقى الله سالمًا"، و هاهو عبد العزيز عتيق يؤكد ذلك بقوله"و ما أكثر ماأخرج البلاغيون المتأخرون من كتب و شروح و مختصرات، قد تعلّم قواعد البلاغة و نظرياتها و لكنها قلّما تُنشِئ البليغ !" [50]ص269. و لو أردنا تحليل نفس الحديث النبوي السابق-وفق مفهوم بلغاء هذه المرحلة لعلهم يقولون ما يلي: هناك استعارة تصريحية في الحديث الشريف،حيث صرح بالمشبه به فقط دون أركان التشبيه الأخرى، والمشبه به هو الزجاجات والاستعارة التصريحية التحقيقية"هي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما

وضع له. وقد تقيد بالتحقيقية، لتحقق معناها حسا أو عقلا،أي تتناول أمرا معلوما يمكن أن ينص عليه و يشار إليه إشارة حسية أو عقلية"[49]ص407. وعندما ينتهي المحلل لا نجد في أنفسنا روعة ولاجمالا،لأنه بصدد وضع التعريفات لمصطلحات استعملها أثناء التحليل، "و هكذا يأتي عالم البلاغة ليقول لك:إن فيه كذا و كذا نوعاً من البديع، فلا يزيد النص جمالاً في عينيك، و لا يُغني شعورك بجديد، و إنما هي أسماء تعارفوا عليها و اصطلاحات وضعوها يحللون النصوص ليستخرجوها منها كما يستخرج عالم الكيمياء عناصر مادة يحّللها، دون أن يكون لتحليلهم صلة بالجمال أو رابطة بالذوق"[52]ص45،46 وهذا لعمري ما أصاب البلاغة، فوصلت إلينا مثقلة بالمنطق والقوانين والتعريفات، محصورة في ميدان التعليم.والسؤال الذي يطرح نفسه:ماهي مميزات البلاغة في عصرنا؟

1 .5.2.البلاغة المعاصرة

مفهوم البلاغة في عصرنا ينحصر في ميدان تدريسها منفصلة عن النحو و مستغنية عن الأدب، في أمثلة مقتضبة، و مصطلحات بلاغية فلسفية، و قواعد جافة زاغت عن الهدف الذي ينبغي أن تحققه، و للخروج من ذلك لابد من الانطلاق من النصوص الأدبية الجيدة لدراسة البلاغة و فهمها من الداخل "كمثل من تريد أن تعرّفه بحقيقة التفاح و نكهته و طعمه، فبديل أن تصف له من بعيد لون التفاحة و شكلها و رائحتها و مذاقها، و تمعن في الدراسة النظرية لهذه الفاكهة الطيبة، قدِّم له تفاحة و اجعله يأكل منها، و يختبر حقيقتها و يتذوقها و يتنشق فوحها، ثم بعد ذلك أن تساعده على استخراج ما تريد أن تعلمه إياه و من حقيقة التفاح في بضع عبارات واضحة شاملة. هكذا يكون تدريس البلاغة و تدريس أي علم من العلوم اللغوية أيضًا؛ بالاعتماد على النص و الانطلاق منه إلى استخراج ما نريد معرفته من حقائق"[61]ص13.

وقد درجت المؤلفات المختلفة في البلاغة على تخصيص كتب للكلام عن نشأتها، و كثرة تعاريفها و دراسة مصطلحاتها و المراحل التي مرت بها حتى استوت علمًا قائما بذاته، كما لا نعدم الدراسات التي تريد تقديم نظرة جديدة للبلاغة عملاً على عصرنتها استنادًا إلى دراساتٍ حديثة، و نذكر على سبيل المثال لا الحصر كتاب أمين الخولي الموسوم بـ"فن القول"، و كتاب محمد عبد المطلب الموسوم بـ"البلاغة و الأسلوبية" و غيرها من المؤلفات التي يضيق المقام لذكرها.وإذا كان هذا حال البلاغة منذ أن ظهرت كشذات في العصر الجاهلي و مرورها بمرحلة التذوق، ثم مرحلة ازدهار، فمرحلة تنظيم علمي، فتعرضها للجمود؛ و هذا فسادًا للذوق في عصر الانحطاط، وغلبة الصنعة و البعد عن الطبع، إلى عصرنا الحالي. لابد من إعادة النظر في هذا التراث البلاغي لإخراجه من قوالبه الصدئة التي سُجنت في كتب التدريس، و في عقول المدرسين و الطلاب على حد سواء- إلا من رحم ربي بقوة الفكر و نضج العقل و التحلل من قيود التقليد- "لأنه في الأساس علم الجمال الأدبي و وسيلة فهمه و تذوقه و إدراك أسراره، و الوقوف على مظاهره في كل عمل أدبي أيًّا كان نوعه"[61]ص15. و هذا ما دأبنا عليه في هذا المبحث من دراسة لتعريف البلاغة و علم البلاغة، و قراءة لمراحلها حتى عصرنا هذا ؛ ربطًا منا للتراث مع الحداثة، و اعترافًا بأعمال القدماء التي أردنا أن نقرأها بروح العصر الذي لا يمكن أن ننزعه بداخلنا، باعتبارنا نعايش هذا العصر لا عصورهم؛ فهذا استمرار لسنة التطور و أخذ بأسباب النمو العقلي و عليه يمكن أن نخلص الى النقاط التالية:

1- البلاغة لغة تعني الوصول و الانتهاء.

2- البلاغة اصطلاحًا كثُرت تعريفاتها.
3- هناك فرق جوهري بين البلاغة و علم البلاغة. فالبلاغة هي الممارسة الفعلية للكلام البليغ و علم البلاغة نظرة موضوعية للكلام البليغ.
4- مرت البلاغة بمرحلتين بارزتين، كانت في الأولى وسيلة لتذوق النصوص و في الثانية غاية في ذاتها تمتاز بما يمتاز به العلم المقنن.
5- أبرز مرحلة مرت بها البلاغة في مسارها الطويل هي مرحلة الازدهارالجرجانية و التي أفردنا لها مرحلة بكاملها و إن كانت قصيرة في عمر البلاغة.
6- البلاغة المعاصرة لا تعدو أن تكون دراسة تقليدية نظرية لما تركه جهابذة علماء البلاغة و أساطين البيان، أو دراسة تطبيقية جافة تُملأ بها كتب التدريس.

و إذا كان ذلك كذلك فهل يستغني المتكلم بعلم البلاغة عن بقية العلوم لإيصال ما يريده إلى مستمعه؟ أو بعبارة أخرى: هل القدرة على تبليغ كل الأغراض الممكنة في أحوال خطابية معينة كاف لاكتساب الملكة اللغوية؟

1. 3. مقاربة بين العلمين

إن البلاغة لاينحصراستعمالها في التعبيرالأدبي،بل هي من الضروريات في الاتصال اللغوي ولكن لاتكفي وحدها لاكتساب ملكة اللغة مالم يراعى فيها جانب السلامة النحوية وهي تضافر لثلاث مراحل متعاقبة؛ هي مرحلة التذوق الأدبي، مرحلة الازدهار الجرجانية، ثم مرحلة التنظيم السكاكية تقول الدكتورة خديجةالسايح:"و إذا كان الجهد البلاغي قد توقف تقريبًا عند المرحلة السكاكية فإن هذا التوقف كان محصورًا في الأصول أما الفروع فقد تم تجاوزها تنظيرًا و تطبيقًا، على معنى أن تابعي السكاكي داروا في فلكه، لكنهم و سعوا دوائره البحثية طولاً و عمقًا، طولاً بالإضافات و التعديلات و عمقًا بالشروح و التفصيلات"[62]ص141 و عليه فلا جدوى من اجترار مقولة أن البلاغة جفَّت بعد العصر السكاكي و لا سبيل لإحيائها، بل إن سنة التطور و الارتقاء في مسار البلاغة كانت واضحة حيث مرت بمرحلة تذوق تليها مرحلة ازدهارفمرحلة تنظيم ثم توسع و تعليق و شرح دقيق للفروع. و قد آن أوان ترك الفروع و الاتجاه صوب الأصول للبحث فيها؛ لعلنا نظفر بكل جديد مبتكر.
آخذين بنصيحة الدكتور تمَّام حسان التي يقول فيها:"و إذا لم نعمل نحن المعاصرين من العرب على محاربة هذا التعبد بأقوال المتقدمين، و على محاولة الخلق و الابتكار و المزج بين أفكار التراث و بين العلم المعاصر، فسوف يقول من بعدنا عنَّا ما نقوله نحن عمن تقدمنا، و لو وقف الأمر عند مُجرد القول لهان الخطب، ولكن الذي في الميزان هو فكر أمة و سمعة حضارة"[31]ص358 و إن كنَّا نعتقد أن فكر الأمة و سمعة الحضارة لا يكون فقط بالمحاربة، و المحاولة و المزج كما ينصح الدكتور بذلك، لكن بالعمل على تطوير الذهنية و شحذ الهمم للاجتهاد و الابتكار، لذلك لا نوافق الذين يتهمون البلاغة بالجمود و ما أكثرهم، و هم الذين يقدسون الذوق الفني و لا يهتمون بالعلم المُقنن، كما لا نوافق الذين ينادون بعلمنة البلاغة و إبعادها عن دراسة التعبير الأدبي، بل نحن مع الذين ينظرون إلى البلاغة و هي فن التعبير الجميل الذي ليس بالعشوائي و لا بالاعتباطي، و هذا المفهوم نجده ماثلاً في أفكار عبد القاهر الجرجاني؛ الذي ربط بين الذوق و العلم، فأثمر مرحلة مزدهرة من مراحل البلاغة، لكن أعمال الجرجاني نُسيت، و طغى اليوم سمت التقليدعلى البلاغة، و أصبحت تُقدم للناشئة في قوالب جافة، مثلها مثل علم

النحو؛ و كأن العلمين يتشبهان في هذه الفترة من عمرهما، فهل يتشابهان أيضا في موضوع الدراسة؟ أو بعبارة أخرى هل علم النحو و علم البلاغة يدرسان نفس الموضوعات أو يجيبان عن نفس الإشكالات؟

1. 3 . 1.علم النحو وموضوعاته

1. 3. 1. 1. الهدف من نشأة علم النحو

إن النحاة لما هبُّوا لوضع قوانين أسموها "علم النحو" انطلقوا من المبنى إلى المعنى لأن البيئة الفكرية آنذاك كانت تستدعي ذلك؛ حيث كان سبب وضع هذه القواعد هو ذيوع اللحن، بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية، حفاظًا على لغة القرآن الكريم إضافة الى مساعدة الأعاجم على تعلم لغة الدين الجديد؛ و هذا ما يبينه "ابن جني" بقوله معرفا للنحو:"هو انتحاء سمت كلام العرب ... ليلحق مَنْ ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة"[2]ص33 لذلك نقول أن نُشوء قواعد اللغة كان لهدفين اثنين و هو ما يؤكده الدكتورالطاهرقطبي بقوله:"أولهما: الحفاظ على العربية الفصحى من اللحن الذي بدأ يفشو في أوساط المجتمع الإسلامي،ومن ثم كان التفكير في علم النحو ،للحفاظ على لغةالقرآن، و ثانيهما: هدف تعليمي هو وضع قوانين تساعد الأعاجم على تعلم لغة الدين و الدولة، و هي في الوقت نفسه لغة العرب المالكين للسيادة، فهم أعيان المجتمع و أسياده و من ثَمَّ كان تعلّم الأعاجم المسلمين لهذه اللغة أمرًا حتميًا"[63]ص21. فكان بموجب ذلك أول العلوم التي نشأت لخدمة اللغة العربية و القرآن هو علم النحو. و إذا كان هذا حال علم النحو عند نشأته فما حاله اليوم؟.و ما دفعنا الى طرح هذا السؤال، مقالة للأستاذ عبد السلام شقروش يتساءل في مطلعها قائلاً:"هل التحدي الراهن الذي تواجهه اللغة العربية على الصعيد الداخلي و الخارجي يتمثل في ظاهرة اللحن؟"[64]ص369. ثم يجيب بنفسه عن السؤال بما يلي:"إن التحديات الراهنة التي تواجه اللغة العربية؛ هي عدم استعمالها كلغة للتواصل بين أبنائها و لا لغة للتفكير، فضلاً عن عدم مسايرتها للتطور التكنولوجي الرهيب الذي شهده القرن الماضي، و لا يزال يشهده القرن الحالي"[64]ص369. و عليه إذا كان علماؤنا الأوائل هبُّوا إلى وضع دواء لداء اللحن، فإنا نحن نعلم ما هو داء اللغة العربية الراهن و علينا أن نهب أيضا لإيجاد الدواء الشافي لما تعانيه اللغة، و لا نقعد مع القاعدين، نمضغ أقوال السابقين، بل لابد من البحوث العلمية، لتجلية وظيفة اللغة الأساسية المتمثلة في التواصل الذي يعتبره الأستاذ "عبدالسلام شقروش" من التحديات الراهنة و هو ما نريد أن نبينه على طول هذا البحث.

وبماأن علم النحو ينطلق من المبنى إلى المعنى،كما يقول الدكتور تمام حسان : " فالنحو ... يجعل نقطة البداية هي المباني، و ينطلق منها للوصول إلى غايته من المعاني، و ذلك ما نلاحظه بوضوح من إعراب الجملة، إذ نبدأ بالمبني و ننتهي بالمعنى"[31]ص344.فإن النحاة الذين جاؤوا بعد سيبويه حصروه في الإعراب، و أقاموا صرحه على نظرية العامل؛ و هي لعلها لا تكفي وحدها لتوضيح عمل الملكة اللغوية. يقول صاحب"كشاف اصطلاحات الفنون":"علم النحو و يسمى علم الإعراب.... و هوعلم ما يعرف به كيفية التركيب العربي صحة و سقاما، ثم قال: و الغرض منه: الاحتراز عن الخطأ في التأليف، و الاقتدار على فهمه و الإفهام بـه" و قال:"و موضوع النحو في اللفظ الموضوع مفردًا كان أو مركبًا؛ و هذا هو الصواب، يعني موضوع النحو اللفظ الموضوع باعتبار هيئته التركيبية و تأديتها لمعانيها الأصلية"[65]ص24،25. يقر هنا صاحب الكتاب أن موضوع النحو هو اللفظ الموضوع لتأدية أصل

المعنى مطلقًا-على حد تعبير السكاكي في تعريفه للنحو- و نقصد به المعنى الوضعي و على هذا يمكن عرض السؤال التالي : هل علم النحو يدرس الكلام كبنية، أو يدرس الكلام كخطاب؟

1. 3. 1. 2 .النحويدرس البنية اللفظية

إن علم النحو يهتم بالبنية اللفظية و ما تمتاز به من دلالة وضعية، و هو ما يصفه الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح "بالجانب اللفظي الصوري...أي ما يخص اللفظ في ذاته و هيكله وصيغته بقطع النظر عما يؤديه من وظيفة في الخطاب غير الدلالة اللفظية"[66]ص3.

و الخلط بين هذا الجانب، و الجانب الوظيفي أو الاستعمالي لا يفضي بنا إلى المعالجة العلمية :".. و قلَّ من انتبه بعد ابن جني إلى الضرر العظيم الذي يسببه التخليط بين هذين الجانبين في التحليل"[66]ص3 و على هذا فعلم النحو هو قواعد درست الكلام كبنية لفظية تدل على المعني بالوضع. و هنا لابد من توضيح معنى الوضع و الاستعمال.

1 . 3 .1. 3. ثنائية الوضع و الاستعمال في النحو

أما الوضع فهو –برأينا- المعرفة الضمنية الكامنة في ذهن المتكلم و هو يقابل معنى "الملكة" أو Compétence عند (نوام تشومسكي). و الاستعمال هو تطبيق أو إجراء ذلك الوضع في عملية الخطاب؛ و هو يقابل معنى "التأدية" أو Performance عند تشومسكي أيضا؛و مصطلح Performance يعرفه" قالسون و كُوست" بما يلي :

« Dans la théorie de Chomsky processus de mise en œuvre, d'actualisation de la compétence pour la production et l'interprétation d'énoncés, dans des conditions réelles de communication, c'est-à-dire par des sujets en situation »[67] p407.

و ممن اهتم بهذه الثنائية الدكتور الحاج صالح حيث يعرفها بما يلي: "و على هذا فإن اللغة مجموعة منسجمة من الدوال و المدلولات ذات بنية عامة و بُنى جزئية تندرج فيها و هذا هو الوضع و ما يسمى بالقياس،... أما الاستعمال فهو كيفية إجراء الناطقين لهذا الوضع في واقع الخطاب"[68]ص195 فهو يرى أن اللغة وضع و استعمال؛ و ما الوضع إلاّ تلك المعرفة المجردة الذهنية الثابتة، و ما الاستعمال إلاّ تلك العملية الإجرائية المتغيرة لذلك الوضع، و هذا ما يراه الدكتور "عمّار ساسي" في كتابه "اللسان العربي و قضايا العصر" إذْ يقول:"الوضع لا محالة أن يكون عملية محكمة من حكيم حاذق... و الاستعمال صورة عملية تطبيقية للوضع"[5]ص85،84 أو بعبارة أخرى؛ الوضع تنظير و الاستعمال تطبيق، و علم النحو يدرس ثنائية (الوضع و الاستعمال). ومن المفردات ماهوموجود في أصل الوضع وفي الاستعمال مثل "اقتراب".ومنه غير المستعمل فينظر في علته ماهي ، يقول الدكتورعمارساسي:"كما الأصل في غير المستعمل أن لا يلغي إنما يبحث عن علة إهماله"[5]ص85.و مثال ذلك "قال" أصله "قَوَلَ" لكنه لم يخرج للاستعمال لعلة، هذا في المستوى الصرفي. أما في المستوى النحوي فمثاله : "يا عبد الله" أصلها "يا أنادي عبد الله" لكنها وردت في أصل الوضع و لم ترد في الاستعمال لعلة، فأصل الوضع كالقالب يعطيك كل الممكنات الموجودة في ذهن المتكلم مثلاً التقليبات الست لمادة (طبل)هي : طبل، بلط بطل، طلب، لطب، لبط و منها المستعمل، و منها غير المستعمل (أي المهمل)، و الاستعمال له قوانينه الخاصة لأنه يختار أحسن و أفضل الممكنات بماأنه يصدر عن جهاز صوتي لا يمكن أن ينطق بكل الممكنات. و هنا نستنتج أن

للوضع قانونا خاصا به، و للاستعمال أيضا قانونه؛ و الأصول غير المستعملة هي المحتملة في الوضع و لكنها لم تخرج للاستعمال لعلة و هي ثلاثة أضرب:

1-أصل أهمل لثقله إهمالاً تامًا و هنا يظهر مصطلح "المهمل" الذي يحتاج إلى البحث المستفيض و مثاله ما نجده في صيغ الاسم الثلاثي فقد أحصى الخليل بن أحمد الفراهيدي عشر صيغ أهمل منها: فِعُلُ، و فُعِلْ.
2-الاستغناء عنه بما في معناه مثلما: استُغني عن (ودع) بـ (ترك).
3-أصل غيَّروه وفق قاعدة مطردة، و هذا التغيير ما يسمى "بالعدول عن الأصل" و لقد تتبعنَا كُتب القدامى فوجدنا هذا المفهوم مذكورا ضمنيا في تحليلاتهم، يقول أبو الفتح بن جني في الأصول غير المستعملة أو"الأصول المنصرف عنها الى الفروع"كما يسميها،أنها على ضربين:أحدهما ماإن احتيج إليه جاز أن يراجع و الآخر:"وهو مالا يراجع عند الضرورة،وذلك كالثلاثي المعتل العين،نحو قام و باع وخاف و هاب وطال.فهذا ممالا يراجع أصله أبدا،ألا ترى أنه لم يأت عنهم في نثر و لانظم شيئ منه مصححا، نحوقوَم وبيَع ولاخوف ولاهيب ولاطوُل"[2]ج2،ص348 فاستنتجنا أن العدول عن الأصل: هو التغيير الذي يطرأ على الأصل لعلة، و قد يكون مطردا مثل: قال ← قَول

باع ← بيع

طال ← طوُل

أو شاذ كقولنا:"أكلوني البراغيث"، و" هذا جحر ضبٍ خربٍ". و منه فهو مفهوم مجرَّد يحصل في ذهن المتكلم عفويًا. لذلك فإن النحاة لم يتكلموا عن الأصل الذي خرج للاستعمال كما هو و لكن الأصول غير المستعملة هي التي ينظرون في ماهية علتها.

1 .3 .1. 4 . مفهوم العدول عن الأصل في النحو:

هو التحويل الذي يحدث على الأصل لعلة مثل (قال) الذي خرج عن أصله (قوَلَ)؛ حيث تمَّ إبدال الواو ألفًا.وهذا يخص المستوى الإفرادي من مستويات اللغة والعمليات التحويلية التي تجري فيه هي: الإعلال، الإبدال، الإدغام و القلب المكاني.

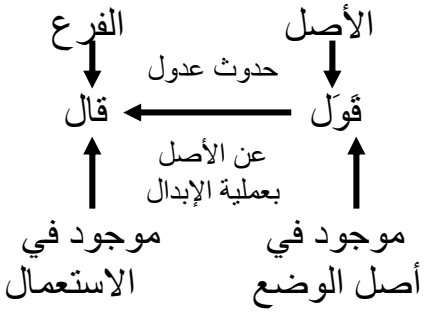

شكل رقم 01: شكل توضيحي لمفهوم العدول عن الأصل في النحو (المستوى الإفرادي)

كما يحدث في المستوى النحوي و العمليات التحويلية الخاصة به هي: الحذف، الزيادة، التقديم و التأخير، استبدال في الموضع و إجراء على الموضع و مثاله ما يلي: الحذف مثلاً هو إحدى العمليات التحويلية التي تجري كما يلي:

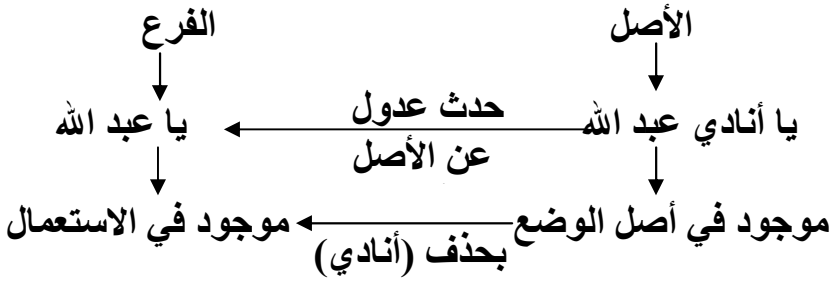

شكل رقم 2:شكل توضيحي لمفهوم العدول عن الأصل في النحو(المستوى النحوي)

و يمكن التعبير عن هذا المفهوم بلغة اللسانيات بأنه تغيير يحدث في البنية العميقة عند خروجها إلى البنية السطحية؛يقول الدكتور ممدوح عبد الرحمن:" فمنهج النحويين العرب في تناول الظاهرة اللغوية كان منهجاً يقوم على إفتراض (بنية عميقة)....و بنية سطحية لم يعبروا عنها أيضا بهذا المصطلح و لكنهم عبروا عنها بما يفيد هذا المفهوم و تعاملوا مع عدد من (القوانين التحويلية) التي تحكم تحوّل البنية العميقة إلى بنية سطحية و يمكن أن نطلق على هذا (التحويل) لديهم أنه تحويل عفوي قائم على دقة النظر للأمور"[69]ص110.لقد شرح الدكتور عملية التحويل، التي أطلق عليها القدامى اسم "العدول عن الأصل" و إن كان المفهوم يحتاج إلى تفاصيل أكثر لمعرفة آلياته، و قواعده، و عملياته و وجوده في التراث العربي، و في اللسانيات الغربية. و يكفي أن نثير الموضوع، على أن نخصص له بحوثاً أخرى لاحقة؛ و النتيجة التي نحتفظ بها هي : العدول عن الأصل هو فرضية نفسر بها بعض الظواهر اللغوية، و هذا يدفعنا إلى القول أن النحوي لا يعمل على وصف ظاهر اللغة فقط بل يلجأ إلى تفسير ظواهرها بافتراض فرضيات، و عليه فهو مكتشف لكيفية عمل النظام اللغوي و ليس مخترعا له، و هذا يقودنا إلى التساؤل: من المسؤول عن وضع تلك القواعد؟ الجواب عن السؤال يربطنا بعنصر آخر من هذا المبحث و هو :

1. 3 . 1. 4. 1. الجماعة اللغوية

إن الجماعة اللغوية هي التي تعارفت و اصطلحت على تلك القواعد. لذلك فالجماعة اللغوية هي مسؤولة عن وضعها و الاتفاق عليها، بينما النحوي يسأل عن النظام الموجود في ذهن المتكلم؛ فيقول: ما هي القواعد التي يخضع لها المتكلمون (أي الجماعة اللغوية) ؟ و منه فمهمة النحوي هي التعرف على ذلك النظام المختزن في ذهن المتكلم، و وصفه، و استنباط قوانينه، أي أن مهمته هي اكتشاف كيفية عمل الملكة اللغوية. و عليه فالنحوي يقوم بمحض اجتهاد قابل للمناقشة، و هذا ما يعبر عنه الخليل بن أحمد الفراهيدي بقوله "عند ماسئل عن العلل التي يستخدمها النحاة لتفسير الظواهر اللغوية:"فقيل له:عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك !" قال :"إن العرب نطقت على سجيتها و طباعها، و عرفت مواقع كلامها و قام في عقولها علله، و إن لم ينقل ذلك عنها و اعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه، و ان أكن أصبت فهو الذي التمست، و إن تكن هناك علة له، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارًا محكمة البناء، عجيبة النظم و الأقسام، و قد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق، أو البراهين الواضحة، و الحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها، قال :"إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا و كذا، و لسبب كذا و كذا سنحت له و خطرت بباله، محتملة ذلك" فجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا أن ما ذكره الرجل محتمل أن يكون علة لذلك، فإن صحَّ لغيري علة لما عللته من النحو هي أليق بالمعلول فليأت بها"[12]ص66.إن

هذا النص يكشف عن عدة أمور ظاهرة و باطنة، ولا يعترض علينا معترض إذا قلنا إن تفسيرات علمائنا الأوائل أوعللهم هي مجرد اجتهادات قد تقارب الحقيقة أحيانًا و قد تباعدها أحيانًا أخرى لكنها استطاعت إلى حد بعيد اكتشاف عمل الملكة، كما نستنتج من كلام "الخليل" أن النظام اللغوي الذي يحاول النحوي اكتشافه هو نظام تمتلكه الجماعة، و هو ما عبَّر عنه "الخليل" بأن العرب نطقت على سجيتها و طباعها، و عرفت مواقع كلامها و قام في عقولها علله، ومنه هل المتكلم مجبر أو مخير في الأخذ بهذه القواعد؟

1. 3 .1 .5.النحو يدرس الإجبار

إن المتكلم مجبر على اتباع قواعد النحو، و ليس له أن يُغيَّر أو يبتدع شيئًا فيها أو في أوضاع اللغة لأن واضع اللغة حكيم، وهذا ما حدده "الخليل" في قوله حيث يرى أن اللغة بناء محكم، شبهها بالدار المحكمة البناء الدالة على حكمة بانيها و حسن صنعه، يقول الدكتورمخلوف بلعلام في هذا السياق:"اعتقاده (أي الخليل) أن اللغة العربية بناء تحكمه وحدة من النظام و الانسجام و نستشف ذلك من تشبيهه إياها بالدار المحكمة البناء العجيبة النظم و الأقسام"[70]ص31.

و عليه فإن المتكلم مجبر على الالتزام بالأوضاع سواء كانت الألفاظ الموضوعة أو القواعد النحوية؛ و يؤكد عبد القاهر الجرجاني هذه الفكرة فيقول:"و إذا نظرنا وجدناه (أي المتكلم) لا يستطيع أن يصنع باللفظ شيئًا أصلاً، و لا أن يُحدث فيه وضعًا. كيف و هو إن فعل ذلك أفسد على نفسه، و أبطل أن يكون متكلمًا. لأنه لا يكون متكلمًا حتى يستعمل أوضاع اللغة على ما وضعت له"[35]ص402،401. فلا مناص من الأخذ بهذه الأوضاع اللغوية لأنها تمثل النظام اللغوي القار في وعي الجماعة، "و هي و إن كانت قيودًا فهي موضوعة لخدمة المتكلم و إعانته على غايته،وهي البيان و الوضوح و هي تشبه تمامًا القوانين التي تحكم التعامل بين الناس، فلو افترضنا أن كل إنسان عاش وحده في جزيرة مثلاً ما ظهرت الحاجة إلى قوانين، و إنما دعا إليها قيام المعاملات بين الناس، و الفرد لا يملك أن يُغيرَّ وحده شيئا من تلك القوانين"[32]ص55 هذه القواعد هي افتراض من النحوي لكيفية عمل النظام في ذهن المتكلم، و هذا ما صرَّح به "الخليل" في كلامه. "إن أستاذ سيبويه كان ينظر إلى العلل باعتبارها مجموعة من الضوابط يستنبطها النحوي أو يفترضها قصد تفهم ما يمكن أن نسميه اليوم نظام اللغة العربية و تناسق عناصرها"[71]ص118. ولهذا فإن علم النحو؛ هو العلم الذي يدرس كيفية عمل الملكة لذلك له موضوعاته و إشكالاته التي يجيب عنها، و عليه يجب عدم المزج بين علم النحووعلم البلاغة، فعلم النحو يحفظ القول من الخطأ و الفساد "فإذا تكلم عن الجمال اقتحم الخط الفاصل بين العلمين و دخل نطاق البلاغة"[8]ص3 و النحوي يحاول الإجابة عن أسئلة تختلف عن أسئلة البلاغي، فما يدخل في اعتبار النحوي هو سؤاله، لِمَ رفع الفاعل و نصب المفعول مثلاً؟ و ليس هذا من شأن البلاغي بل يبني على هذا الفهم النحوي، ليصل بتحليله إلى فضول الكلام، و هنا نلاحظ نوعًا من الوضوح في الحدود بين العلمين، فلكل علم اختصاصه في ميدان البحث يقول حلمي علي مرزوق: "و لا أظن النحاة يخوضون في شيء من ذلك لأنهم يحملون أنفسهم –عندئذ- حملين: حمل الصحة النحوية، و حمل الخصائص البلاغية أو خصائص الجمال في التعبير و هما أمران يتشابكان و لكنهما ينفصلان و لابد عند التعمق في البحث و التدقيق"[8]ص77. فنحن لا ننكر أبدًا ما للعلمين من تكامل في ميدان اللغة، و لكن عند التعمق و الاختصاص لابد أن ينفرد كل علم بخصائصه المميزة، و يدافع عن موضوعه و منهجه. و لعل المثال يوضح أكثر ما نقول مثلاً مباحث الاستفهام، فالنحاة درسوا الأدوات و ضمنوها المعاني البلاغية لأنه لا انفصال بينهما، أما البلاغيون فقد عكسوا العمل بدراسة المعاني البلاغية، ثم ذكروا لكل معنى ما يستعمل له من أدوات، و هذا لا يعني أي

تناقض بين العلمين، و يقول الدكتور "تمام حسّان" مؤكدًا ذلك:"و ليس في اتجاه كل من العلمين اتجاه معاكسًا للآخر ما يدل على تناقض بينهما بالضرورة؛ فذلك إنما يعني في نظر معظم الدارسين- و في مقدمتهم العلامة عبد القاهر الجرجاني- أن العلمين متكاملان بحيث لا يستغني أحدهما عن الآخر"[31]ص344 لكن العلماء في عصر الانحطاط فصلواعلم النحو عن علم البلاغة، وانفرد كل علم بدراسة جانب من الجملة، أما علم النحو فاهتم بالدراسة المنطقية لها،وعلم البلاغة درسها دراسة إبلاغية، و لو أخذنا مثالا عن رأي النحوي في مسألة من المسائل لبان لنا كيف انفرد المتأخرون بالجانب اللفظي وفصلوه عن جانب الإفادة في التحليل اللغوي مثل باب "التقديم والتأخير" فالنحوي يبصرك متى يجب التقديم و متى يجوزو يقفك على شروط ذلك كله يقول ابن هشام الأنصاري في تأخر الفاعل عن المفعول:"الأصل في الفاعل أن يلي الفعل....قال الله تعالى:(*و ورث سليمانُ دَاودَ*) [1]لنمل/الآية16 و قد يتأخر الفاعل عن المفعول، و ذلك على قسمين: جائز و واجب، فالجائز كقوله تعالى:(*و لقد جاء آل فرعونَ النذُرُ*) [1]القمر/الآية41... و الواجب كقوله تعالى:(*و إذِ ابتلى إبراهيمَ رَبُهُ*) [1]البقرة/الآية123 و ذلك؛ لأنه لو قُدِّم الفاعل هنا فقيل:"ابتلى ربه إبراهيم" لزم عود الضمير على متأخر لفظًا و رتبة، و ذلك لا يجوز"[72]ص248،249. هذا هو عمل النحوي لأنه يهدف إلى المحافظة على الكلام من الخطأ. يقول حلمي علي مرزوق:"يحفظون لك القول من الخطأ و الفساد فإن أوجَبوا التقديم و أخرت أو التأخير و قدمت أفسدت الكلام، و إن جوزوا لك التقديم أو التأخير فأنت تنظر بعين البلاغة في النسق المعتاد للكلام"[8]ص75 و منه نستنتج أن علم النحو يدرس الجملة كبنية ساكنة لإقامة السلامة النحوية وافقت المعنى أو خالفته دون النظر إلى حال السامع أو سياق الكلام ،يقول خميس حسن الملخ :"وقد أشار سيبويه إلى أن النحو يسعى إلى إقامة الاستقامة النحوية وافقت المعنى أوخالفته، فسمى الموافقة بالمستقيم الحسن،وسمى المخالفة بالمستقيم الكذب"[33]ص139 لأن النحو يدرس الجملة دراسة منطقية، وإذا كان هذا حال علم النحو فما حال علم البلاغة؟

1 .3 . 2 .علم البلاغة و موضوعاته

1. 3 .2 .1 . الهدف من نشأة البلاغة

مثلما ذكرنا الهدف من نشأة علم النحو، سنذكر الهدف من نشأة علم البلاغة و الذي يختلف عن الأول:" فقد جعلها الدارسون هدفين: الأول:الوقوف على أسرار البلاغة في النصوص الفصيحة، خصوصًا القرآن الكريم، و الثاني: الوقوف على إعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف و براعة التركيب"[63]ص21،22 فقامت البلاغة و علومها من أجل هذين الهدفين، و لم يكن علم النحو ليفي بالغرض من الوصول إليهما؛ لأنه يدرس اللفظ الذي يدل على المعنى الأصلي، ومنه إن تلك الأهداف :"لفتت أنظار أئمة البلاغة إلى أن يضعوا قوانين و ضوابط يتحاكمون إليها عند الاختلاف، و تكون دستورا للناظرين في آداب العرب منثورها و منظومها و نشأ من ذلك البحث في علوم البيان أو علوم البلاغة"[49]ص8 هذه القواعد تدرس المعاني، ولكن السؤال: ماهو المعنى الذي تدرسه؟

1 . 3 . 2 .2 . البلاغة تهتم بالمعنى

إن البلاغيين القدامى انطلقوا من المعنى إلى المبنى، فجعلوا موضوع البلاغة أو منطلقها هو المعنى ليصلوا إلى المبنى، و هذا تمام حسان يؤكد ذلك بقوله:"أما علم المعاني فربما اتجه اتجاهًا معاكسًا لاتجاه النحو، فبدأ من منطلق المعنى باحثًا له عن المبنى"[31]ص344. و نحن نرى أن كل علوم البلاغة تهتم بالمعنى و ليس

علم المعاني وحده؛ لكن: ما هو المعنى الذي تهتم به البلاغة؟ للإجابة عن السؤال كان لابد من التعرف أولاً على تقسيم العرب للمعنى؛ و لقد قسَّم الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح الدلالة عند العرب إلى ثلاث حيث يقول في ذلك:

"و لابد هاهنا من الإشارة أن الدلالة عندهم هي ثلاث: دلالة اللفظ، و دلالة المعنى و دلالة الحال. فدلالة اللفظ هي التي يقتضيها اللفظ بالوضع فالمعنى هنا وضعي. ثم تأتي دلالة المعنى، و يسميها عبد القاهر الجرجاني "معنى المعنى" و هي التي يقتضيها المعنى الوضعي لكن من حيث هو معنى طريقها العقل لا الوضع و ذلك مثل المجاز و الكناية و غيرهما. أما دلالة الحال فهي التي يقتضيها حال الخطاب"[73]ج1 ص 261 و على هذا نقول أن دلالة المعنى هي ما تهتم به البلاغة؛ "فالمعنى هو الأساس الذي تمَّ بحسبه تفريع الفروع الثلاثة"[31]ص310 المعاني و البيان و البديع، و إن كانت هذه الفروع تتفق في هذا الطابع العام، فهي تفترق في أمور أخرى ينفرد بها كل فرع، و هوماسنبينه. فعلم المعاني مرتبط في جوهره بعلم النحو فهو يدرس "معاني النحو" –حسب تعبير الجرجاني- و نجد الإمام أبا يعقوب السكاكي يعرفه بقوله:"هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة"[13]ص77 و التعريف يبين لنا بوضوح صلة علم المعاني بعلم النحو، يقول الأستاذ الحاج صالح:"فلولا كلمة "الإفادة" لكان ذلك هو النحو نفسه "ففي الإفادة" تدل على أن علم المعاني هو مرتبط في جوهره بالنحو (بمعناه الواسع)" [14]ص22. فإذا كان علم النحو يدرس أصل المعنى مُطلقًا، بهدف تحديد معايير الخطأ و الصواب ليس إلاَّ و لا يؤدي إلى تفاصيل في مستويات الكلام فإن علم المعاني هو الذي يدرس التمييزبين كلام و كلام لا من حيث الصحة اللغوية أو النحوية بل من حيث الفنية و المزية و التفاضل و هو ما يقصده "عبد القاهر الجرجاني" بالفروق بين أساليب مختلفة من الكلام تبدو من منظور النحو أساليب متساوية؛ حيث يُبينها الدكتور نصرحامد أبو زيد بقوله: "و ليست معاني النحو التي يتحدث عنها عبد القاهر هي القوانين المعيارية التي يتحتم أن تتحقق في أي كلام لكي يكون كلامًا، و لكنها المعاني التي تحدث الفروق بين أسلوب و أسلوب و بين نظم و نظم"[74]ص168 و عليه نحن نتقاطع مع هذا الرأي لأن قواعد النحو لازمة حتى يكون الكلام كلامًا، و المتكلم ملزم بالأخذ بها للإفهام و إلاَّ أبطل أن يكون متكلمًا و هذا ما يهم لغة التخاطب، أما معاني النحو فهي ما يدرسها علم المعاني.

و لو عدنا إلى الموضوع الأساس السابق لخلصنا إلى أن علم المعاني الذي هو فرع من فروع البلاغة يدرس المعاني النحوية.

أما علم البيان فهو الآخر يدرس المعنى أيضا، لكنه يختص في المعاني الثانوية و ليس المعنى الوضعي الذي هو شغل علم النحو كما يبين عبد القاهرالجرجاني فيما يلي:"الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، و ذلك إذا قصدت أن تُخبر أن (زيد) مثلاً بالخروج عن الحقيقة فقلت : خرج زيد... و ضَربٌ آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، و لكن يدُلُّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دِلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، و مدارُ هذا الأمر على الكناية و الاستعارة و التمثيل"[35]ص262 و يسمي الجرجاني الضرب الأول "المعنى" و يسمى الثاني بـ"معنى المعنى" و ما يدل أكثر على أن علم البيان يدرس المعنى، تعريف أبويعقوب السكاكي لهذا العلم إذ يقول:"هو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة "[13] ص249 فإيراد المعنى الواحد هو دليل على اهتمام علم البيان "بالمعنى"، و الطرق المختلفة هي الأبواب التي يدرسها علم البيان.

أماعلم البديع، فيجعله الدكتور تمام حسَّان وسطًا بين علم المعاني و علم البيان في موضوع دراسته فيقول: "ثم إن لعلم البديع موضوعه الذي يتراوح بين منطلق البيان (في حقل المحسنات المعنوية) و بين الدلالات الطبيعية التي تقترب من بعض مباحث الفصاحة في علم المعاني (كتنافر التأليف أو المعاظلة و الكراهة في السمع و التعقيد اللفظي...إلخ)" [31] ص 340 و هو بالتالي يدرس المعنى بعلاقة التعدية الرياضية. و منه نستنتج أن البلاغة تدرس "المعنى" و قد بَّينا ذلك بدراسة كل فرع من فروعها على حدة، فوجدنا أنهم يدرسون المعنى في الموضوع العام و ينطلقون منه ليصلوا إلى المبنى ثم ينفرد كل فرع بموضوع دراسته. و المعنى الذي تدرسه البلاغة ليس المعنى الوضعي بل تتخذ من هذا الأخير كوضع لها يخرج إلى استعمال معين يتمثل في المعاني الثانوية. ومنه فللمعنى وضع واستعمال.

1 .3 .2 .3 . ثنائية الوضع و الاستعمال في البلاغة

اللغة؛ وضع و استعمال، أما الوضع فيتكون من دال و مدلولات، و للفظة مدلولات عديدة في وضع اللغة و هذا ما يهتم به علم النحو، و للفظة في الاستعمال مدلول واحد يختاره المتكلم إما أن يكون المدلول الوضعي لذلك نقول أن للنحو وضعًا و استعمالاً، و إما أن يكون المدلول المختار مرتبطًا بالأول ارتباط لزوم و ليس هو المعنى الموضوع له اللفظ في أصل اللغة بل هو معنى متوسع فيه أو معنى المعنى-حسب مصطلح الجرجاني- و هو ما يهتم به البلاغي، و العلاقة بينه و بين المعنى الوضعي علاقة عقلية، فالوضع في البلاغة يتمثل في المعنى الوضعي، أما الاستعمال فهو معنى المعنى، لذلك قلنا سابقًا أن علم المعاني مكمِّل لعلم النحو و يبدأ حيث ينتهي النحو، و عليه نقول أن البلاغة فيها وضع و استعمال كما يلي:

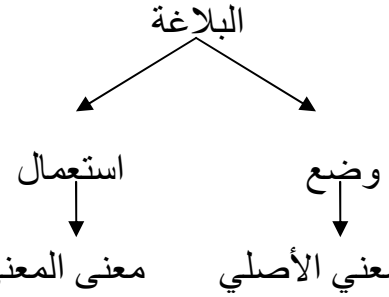

شكل رقم 03: شكل توضيحي لثنائية الوضع والاستعمال في البلاغة

و الأمثلة كثيرة تقررما نراه نذكر منها هذا المثال:

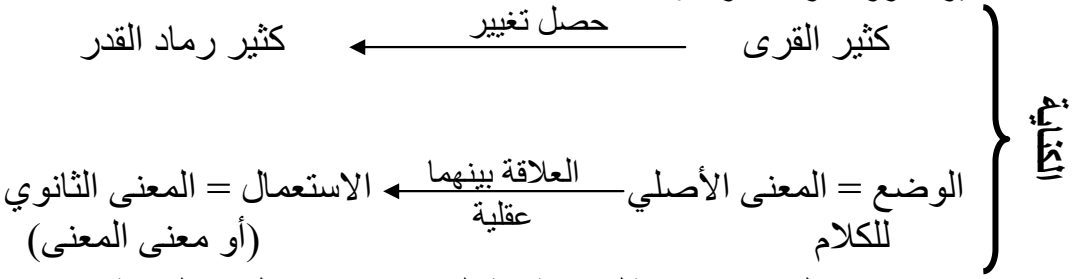

شكل رقم 04 : مثال عن ثنائية الوضع و الاستعمال في البلاغة

و مثلما نلاحظ أن المعنى انتقل من أصل له إلى معنى ثانوي، بعلاقة يتدخل فيها العقل، و يمكن أن نسمي هذا الانتقال أو التغيير بـ"العدول". فما مفهوم العدول عند البلاغيين؟

1 .3 .2 .4 . مفهوم العدول عن الأصل في البلاغة

سبق و أن قلنا إن العدول عن الأصل هو التغيير الحاصل في الأصل عند الانتقال إلى الفرع لعلة، فإذا فرضنا أن الأصل هو المعنى الوضعي؛ أي المعنى الذي وُضع للفظ في أصل اللغة، فإن انتقاله إلى معنى آخر يُعتبر فرعا له وفق عمليات تحويلية، وقد بحثنا عن معنى العدول عن الأصل في كتب البلاغة فوجدناه مذكورا ضمنيا في كلامهم يقول عبد القاهرالجرجاني موضحا حقيقة الاستعارة في أنموذج (رأيت أسدا):"فإن الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكرالمشبه من البين(أي تعدل عن الأصل)، وتطرحه، وتدعي له الاسم الموضوع للمشبه به كما مضى من قولك: رأيت أسدا،تريد رجلا شجاعا...فالاسم الذي هو المشبه غير مذكوربوجه من الوجوه، كما ترى، وقد نقلت الحديث الى اسم المشبه به لقصدك أن تبالغ فيه،فتضع اللفظ بحيث يخيل أن معك نفس الأسد،كي تقوى أمرالمشابهة وتشتد"[75]ص242.

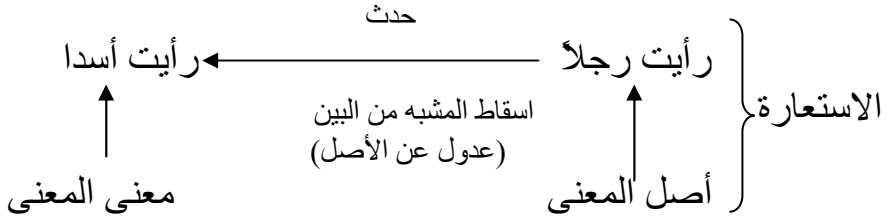

شكل رقم5 :العدول عن الأصل في البلاغة

و يتم هذا العدول في المستوى الإفرادي و مستوى التركيب و مستوى ربط الجمل؛ يقول الدكتور الحاج صالح: "ثم إن هذا التصرف البلاغي لا يخص التراكيب وحدها كما قد يستنتجه بعضهم من كلام الجرجاني بل يشمل كل مستويات اللغة"[14]ص25. و هذا يؤكد أن عبد القاهر الجرجاني أورد معنى (العدول عن الأصل) ضِمنًا في كلامه عن البلاغة و علومها، التي لم يقصد إلى تقسيمها، لكن ذكر كل ذلك في مَعرض شرحه لنظرية النظم – كما سيأتي ذكره في الفصل القادم- المهم أن العدول البلاغي يوجد في المستوى الإفرادي و من بين العمليات التحويلية في هذا المستوى:"الزيادة".

و لنأخذ كمثال "نزل" :

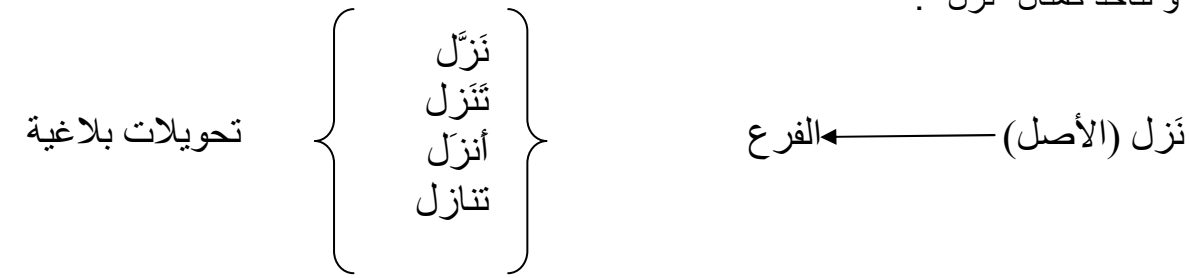

شكل رقم 06 :مفهوم العدول عن الأصل في البلاغة (المستوى الإفرادي)

فلكل واحد من هذه الأمثلة عدول عن الأصل كقوله تعالى: (*ونزلناه تنزيلا*) [1] الإسراء/الآية 106و هي تحمل معنى التدريج، و (تنازل) تحمل معنى المشاركة، و (أنزل) معنى التعدية.

(فنَزَلَ) هو الأصل، و معناه الوضعي في أصل اللغة هو هو، و قد لا يخرج للاستعمال كما هو مثل (نزَّل)؛ نقول أنه حصل تغيير أو تحويل الفعل من أصل إلى فرع بواسطة عملية الزيادة، أي زيادة التضعيف و الذي أدى إلى زيادة في المعنى فأصبح يعني التعدية و التكثير يقول الدكتور عبد الواحد وافي:

"و تجيء صيغة (فعَّل) و ما تصرف منها للدلالة على معان كثيرة أهمها: التكثير في الفعل (كقتَّل)... و التعدية (كعلَّم)...و التوجه إلى الشيء (كشرَّقت)...." [76]ص217. هذا ما يسمى بالعدول البلاغي في المستوى الإفرادي، فإذا أردنا رأي علم النحو بمفهومه المعياري في (نزل و نزَّل) فيراهما صيغتين متساويتين و يعربهما: فعلا ماضيا مبنيا على الفتح، لكن تختلف الرؤية في النحو الوظيفي الذي يحاول الربط بين القاعدة الشكلية و توظيفها أثناء الخطاب، و هذا زبدة ما يريد المتكلم الوصول إليه، حيث يضرب عصفورين بحجر واحد –كما يقولون- فيتعلم القاعدة النحوية و المعنى المراد منها، أو الغاية منها في آن واحد.

أما عن العدول في ميدان التركيب فنجده واضحًا جليًا في علم المعاني؛ حيث تنتقل التراكيب من أصل لها و هي الجملة النواة إلى فروع عدة هي في نظر علم النحو أساليب متساوية، و هذا ما سنوضحه من خلال أمثلة عبد القاهر الجرجاني حيث يقول:" وذلك أنا لا نعلم شيئًا يبتغه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب و فروقه فينظر في ... و في الحال إلى الوجوه التي يراها في قولك: (جاءني زيد مسرعًا) (و جاءني يسرع). (و جاءني و هو مسرع أو و هو يُسرع) (و جاءني قد أسرع) (و جاءني و قد أسرع)" [35]ص81 ،82و توضيح مفهوم العدول من خلال هذه الأمثلة يكون كما يلي:

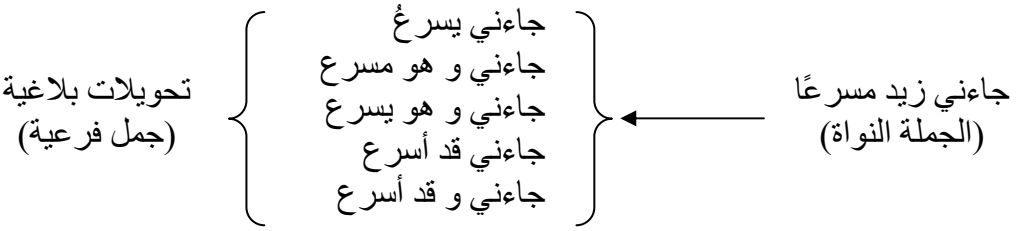

شكل رقم 07: مفهوم العدول عن الأصل في البلاغة(المستوى التركيبي)

فلكل من تلك الجمل الفرعية مزية بلاغية و ذلك باستعمال (يُسرع) مثلاً بدل(مسرعا)، لأن الفعل عند البلاغيين يدل على التجديد بخلاف الاسم الذي يدل على الإثبات، يقول الدكتور تمَّام حسان في ذلك :"الأصل في الجملة الاسمية أن تفيد ثبوت الحكم دون نظر إلى تجدد أو استمرار، و الأصل في الجملة الفعلية أن تفيد التجدد في زمن معين مع الاختصار"[31]ص346. لذا نقول حدث عدول عن الأصل و نوعية العملية التحويلية هي "الاستبدال في الموضع"، كما نجد معنى الفصل و الوصول في قوله (جاءني قد أسرع) و (جاءني و قد أسرع). و هذا العدول جرى بواسطة زيادة الواو. و المتكلم يختارإحدى هذه الوجوه وفق الغرض الذي سَيُؤَديه و هذا يتعلق بالبلاغة.

و مثلما نجد في علم النحو أصولاً خاصة به مثل قولنا: الأصل في الاسم:"النكرة" و الفرع فيه المعرفة، نجد في البلاغة أيضا أصولاً خاصة بها.يقول الدكتور مخلوف بلعلام: "فجعلوا (أي النحاة القدماء) النظام اللغوي كله أصولاً، و فروعًا محمولة على تلك الأصول بعلل"[70]ص28 كذلك نجد للبلاغة أصولاً قد يعدل عنها؛ مثل كون الأصل في الأمر أن يفيد الإيجاب، أي طلب الفعل على وجه اللزوم، يقول "أحمد مصطفى المُراغي":"و الأصل في صيغة الأمر أن تفيد الإيجاب أي طلب الفعل على وجه اللزوم و هذا هو المفهوم منها عند الإطلاق نحو: قُم و سافرْ"[49]ص71. و قد يخرج عن هذا الأصل إلى أغراض أخرى

يذكرها "المُراغي" فيما يلي:الدعاء، الالتماس، الإرشاد، التعجيز، التهديد، الإباحة...و يعطي مثالاً عن التعجيز بقول (الفرزدق) يخاطب (جريرا):

أُولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع" [49]ص72

فكل ذلك عدول عن الأصل في المعنى، و يأتي تمام حسّان بمثال آخر في كتابه (الأصول) فيقول:"و إذا كان الأصل في الخبر أن يفيد المخاطب الحكم أو علم المتكلم بالحكم، فإنه قد يعدل عن هذا الأصل، فيساق الخبر لإظهار الأسف، أو الضعف، أو الإسترحام، أو الفرح...و هكذا الأمر في بقية الأصول"[31]ص347.

و نحن نرى أن البحث في أصول البلاغة بحث بكر لم يطرقه كثير من الباحثين، لذلك نتركه إلى بحوث مستقبلية، ونطرح السؤال التالي:هل البلاغة تدرس الإجبار أم الاختيار؟

1 .3 .2 .3 . البلاغة تدرس الاختيار

إن المتكلم مخير فيما يخص المعاني، و التي نقصد بها المعنى الدلالي للجملة والمعاني المعجمية والوظيفية للمفردات و المعاني النحوية العامة كالإثبات و النفي و الخبر و الإنشاء و الشرط و التأكيد، و المعاني النحوية الخاصة كالفاعلية و المفعولية و الإضافة، لكنه مجبر فيما يخص المباني كما سبق و أن ذكرنا "و ليست هذه المباني سوى شكلٍ مُطلق تختلف الجماعات اللغوية في أصوله و قوانينه و لكنه لا يخرج عندها جميعًا عن كونه وسيلة للتعبير عن المعاني، أي أن الجماعات اللغوية تتفق في الغاية و هي المعاني، و تختلف في الوسيلة و هي المباني"[32]ص51 ذلك أن المعاني موجودة في ذهن كل فرد بدليل أن متعلم أي لغة ثانية ليس بحاجة إلى تعُلم معاني الاستفهام أو الشرط أو الإثبات بل إلى معرفة نظام تلك اللغة في التعبير عن تلك المعاني و هذا مسؤولية الجماعة اللغوية، و هو ما أطلقنا عليه اسم "المباني" التي "تشمل كل ما يقدمه النظامان الصوتيّ و الصرفي للغة، كما تشمل العناصر التحليلية المستخرجة من هذين النظامين"[32]ص51 و العلم الذي يدرس اختيارات المتكلم من تلك المعاني هو علم البلاغة، لذلك نقول أن له موضوعاته الخاصة و إشكالاته التي يحاول الإجابة عنها، فالبلاغي يسأل عن المعنى أو الغرض الذي يريده المتكلم من وراء كلامه، فيقول: ما هي أغراض المتكلم من كلامه؟ ما هي الاختيارات الموجودة في ذهنه ؟ ثم لماذا اختار هذا التركيب و لم يختر الآخر؟ مثلاً لماذا اختار قول :"زيد منطلق"و لم يختر قول"زيد ينطلق"؟ وفق هذه الرؤية نجد علم البلاغة في الأساس و أثناء التعمق في البحث، ينفرد بموضوعه الخاص، و لو أخذنا مثالا تطبيقيا يبين مسار البلاغي في تناول موضوعاته، لبان لنا انفراده عن بقية العلوم و ليكن موضوع التقديم و التأخير الذي تناولناه في شرحنا لمسار النحوي، يقول حلمي علي مرزوق: "فقولنا: (إياك نعبد) معناه:أخصك و أنزهك و أفردك بالعبادة يا الله... و هذه الزيادة في المعنى هي التي يتولاها عالم البلاغة، لأنها زيادة في المعنى و لا ألفاظ تقابلها"[8]ص74، فلو أردنا مقاربة هذا المفهوم البلاغي "لموضوع التقديم و التأخير" مع مفهومه النحوي الذي سبق و أن شرحناه لوجدنا الهُوة واسعة بين العلمين، واضحة للعينين ، و ما نذهب إليه أن لكلا العلمين موضوعه الخاص عندما نتعمق و نختص في دراسة كل علم من الناحية النظرية، لكن لا فصل بينهما عمليًا، وها هو العلامّة عبد القاهر الجرجاني يربط بين العلمين ببراعة في باب التقديم و التأخير، إذ يقول :"هو باب كثير الفوائد.... و اعلم أن تقديم الشيء على وجهين: تقديم يقال إنه على نيَّة التأخير، و ذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حُكمه الذي كان عليه... كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ....و تقديم لا على نيَّة التأخير، و لكن على أن تنُقل الشيء عن حكم إلى حكم، و تجعل له بابًا غير بابه و إعرابًا غير إعرابه"[35]ص106 و إلى هذا الحد نجد الإمام يشرح الباب بعقلية نحوية بحتة و لا غرابة في ذلك إذا عرفنا أساس الرجل النحوي، ثم يذهب لتقديم تعليلات أخرى لهذا الباب، مصحَّحًا ما علق بظنون الناس رَدحًا من الزمن فيقول: "و قد وقع في ظنون النّاس أنه

يكفي أن يقال:"إنه قدم للعناية و لأن ذِكرَه أهم"... و لتخيلهم ذلك قد صغُر أمُر "التقديم و التأخير" في نفوسهم"[35]ص108 ثم يشرح مفهومه النحوي البلاغي لباب التقديم و التأخير بالأمثلة و البراهين و الحجج، مما يجعل القارئ يُعجب ببراعة شرحه لسر تقديم هذا وتأخيرذاك،والمقام يضيق لذكر ذلك لكن ما نستنتجه أن لكل من علم النحو و علم البلاغة موضوعه الخاص به، و الإشكالات التي يحاول الإجابة عنها و إن كنَّا لا نستطيع حصر حدود كلا العلمين بسهولة و لكن ما أوضحناه سابقًا من اختلافات بين العلمين، هي اختلافات تكامل و تنوع لاخلافات تضاد و تنافر و تناقض لذلك نلاحظ وجود بعض نقاط الاشترك بينهما نُجملها فيما يلي:

1 .3 .3 . بعض نقاط الاشتراك بين العلمين

1 .3 .3 .1 . الاشتراك في دراسة الجملة

كلاهما يشترك في دارسة الجملة علم النحو و علم البلاغة (علم المعاني على وجه الخصوص)؛ و لكن النحو يبدأ بالمفردات لينتهي إلى الجملة في الغالب الأعم، بينما البلاغة تبدأ من الجملة و تتخطاها إلى الجمل يقول الدكتور تمام حسان:"إذا كانت الشركة في دراسة الجملة قائمة بين علم النحو و علم المعاني فإن النحو يبدأ بالمفردات و ينتهي إلى الجملة الواحدة، على حين يبدأ علم المعاني بالجملة الواحدة و قد يتخطاها إلى علاقاتها بالجمل الأخرى في السياق الذي هي فيه"[31]ص341 و هذا ما نذهب إليه و نؤكد على اشتراك كلا العلمين في دراسة الجملة، و لكن للدقة العلمية نجد أن علم النحو قد يتعدى الجملة إلى الجمل فيما بينها فيدرس الجملة الشرطية و هي جملتان: شرط و جواب أو الجملة الاستفهامية، و يدرس عطف الجمل بعضها على بعض و الجمل الموصولة و غيرها مما يعد دراسة للجُمل و ليس للمفردات،كما أن علم المعاني يدرس المفردات كأحوال الإسناد و أحوال متعلقات الفعل [63]ص5. و كل ذلك يدل على تكامل العلمين، و تكاملهما لا يعني الخلط بينهما أو الزعم بأنهما علم واحد فالجملة وفق هذا التحليل تدرس في علم النحو كبنية و تدرس في علم البلاغة كخطاب ذي فائدة يقول الدكتور عمّار ساسي مؤكدًا ذلك:"علم النحو يدرس الجملة كبنية (المسند و المسند إليه) و هو دراسة ساكنة بعيدة عن حال السامع و خارج عن سياق الكلام، علم البلاغة يدرس الجملة في إطار الفائدة حسب حال السامع في سياق الكلام"[16]ص17 و يمكن توضيح رأي الدكتور بالمخطط التالي:

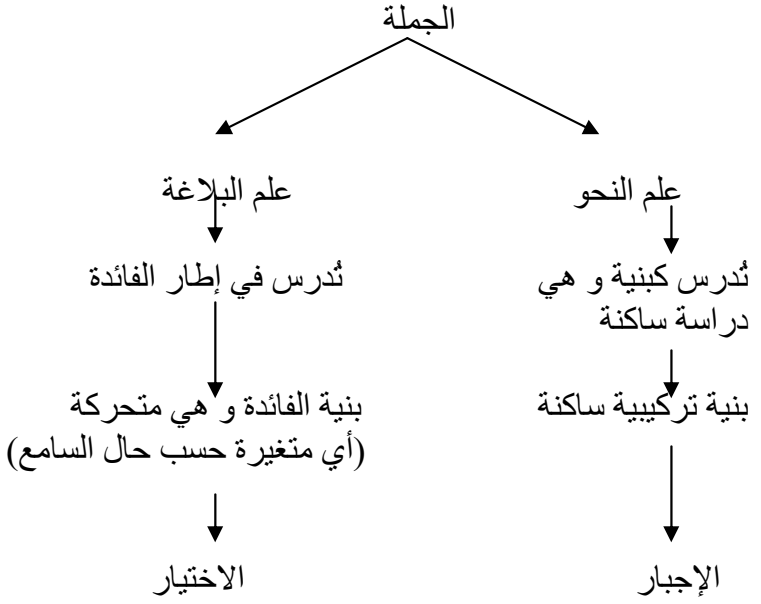

شكل رقم 8:شكل توضيحي لدراسة الجملة(16)

و هذا يبين وجود علاقة وطيدة بين علم النحو و علم البلاغة خاصة في فرعها الأول علم المعاني، فالنحو هو الأول ثم تأتي البلاغة التي لا تنطلق من العدم بل تبني أفكارها على أرض النحو الصلبة.

1 .3 .3 .2 . كيفية التعليل

نجد أن العلمين يستعملان نفس الطرائق لتعليل المسائل، فلا يماري منصف أن النحاة اعتمدوا على التعليل في طريقهم لوضع القواعد، و ما أكثر الكتب التي تدرس ذلك نذكر منها:"علل النحو" لابن الورّاق، "شرح علل النحو" للمهلبي،"المجموع على العلل" محمد بن علي العسكري، و "الإيضاح في علل النحو" للزجاجي.

يقول الدكتورمخلوف بلعلام مُؤكدًا اهتمام النحاة بالتعليل:"إن اعتقاد النحاة القدماء أن لغتهم من وضع واضع حكيم و إيمانهم بأنها محكومة بنظام معلل دقيق فتح عليهم بابًا واسعًا للتعليل حتى راحوا يبحثون عن علة كل ما خرج عن الأصل من فروع"[70]ص28 إذن، المُسَلّمة التي انطلق منها النحاة و هي أن (واضع اللغة حكيم) جعلتهم يهتمون كثيرًا بتعليل المسائل، كذلك نجد البلاغيين يهتمون بالتعليل، و قد درس الأستاذ الطاهرقطبي في كتابه "بحوث في اللغة – الاستفهام بين النحو و البلاغة-دراسة مقارنة" هذا الموضوع و لعله لم يسبقه إلى ذلك أحد، حيث يقول: "و قد تكون علل البلاغيين من العلل الثوالث و لكنها تكون مقنعة و ذات سند صوتي، كالذي نجده عند ابن قيم الجوزية، حين يتحدث عن علّة دلالة "ما" على الأجناس، و دلالة "من" على الأشخاص فيقول متحدّثًا عن "ما":"و لا يجوز أن توجد إلا واقعة على جنس تتنوع منه أنواع، لأنها لا تخلو من الإبهام أبدا، و لذلك كان في لفظها ألف آخر لِمَا في الألف من المد و الاتساع في هواء الفم مشاكلة لاتّساع معناها في الأجناس، فإذا أوقعوها على نوع بعينة و خصّوا به من يعقل و قصروها عليه أبدلوا الألف نونًا ساكنة فذهب امتداد الصّوت، فصار قصراللفظ موازيًا لقصر المعني"[63]ص41. و قد نقلنا هذا النص مع التمثيل لنُبيِّن وجود فكرة التعليل في العمل البلاغي، و هذا موضوع بكر، نعتبره يدخل في أصول البلاغة التي تحتاج إلى الدراسة العلمية المعمقة، بالرجوع إلى التراث و ربطة بالحداثة. ومثلما نجد في علم النحو من يرفض العلة والتعليل، نجد في علم البلاغة مثل ذلك، يقول عبدالقاهرالجرجاني:"فإن من الآفة أيضا من زعم أنه لاسبيل الى معرفة العلة... وأن ليس إلا أن تعلم أن هذا التقديم وهذا التنكير:أو هذا العطف وهذا الفصل حسن وأن له موقعا من النفس وحظا من القبول، فأماأن تعلم لم كان كذلك؟ وما السبب؟ فمما لاسبيل إليه"[35]ص292. وهذا ماعابه عبد القاهرالجرجاني على هؤلاء،معتبرا أن العلة ضرورية، فيقول:"وأن تعرف العلة والسبب فيما يمكنك معرفة ذالك فيه وان قل فتجعله شاهدا فيما لم تعرف،أحرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك،وتأخذها عن الفهم والتفهم،وتعودها الكسل و الهوينا"[35]ص292. والتعليل برأينا – سواء النحوي أو البلاغي- ضروري لأنه يكشف عن حكمة الله في الصيغ وأحوال الخطاب،يقول جلال الدين السيوطي:"إذا تأملت علل هذه الصناعة علمت أنها غير مدخولة ولامتسمح فيها.فنحن إذا صادفنا الصيغ المستعملة والأوضاع بحال من الأحوال وعلمنا أنها كلها أو بعضها من وضع واضع حكيم- جل وعلا- تطلبنا بها وجد الحكمة المخصصة لتلك الحال من بين أخواتها"[77] ص13و الخلاصة أن كلا العلمين يعتمد على التعليل لأنه وجه من وجوه النشاط الفكري يمكن استعماله لقضايا نحوية أو بلاغية.

1 .3 .3 .3 . الجانب العلمي والجانب التعليمي في العلمين

إن النحو كما وصل إلينا يحتاج إلى إعادة قراءته، للتفريق بين النحو العلمي و النحو التعليمي، فالنحو العلمي يسعى إلى وصف و تفسير الظواهر اللغوية علميًا لذلك فإن النحاة يدرسون الجانب اللفظي الصوري للجملة و يتركون الجانب المعنوي لعلماء المعاني. و هذا التخصص في العلمين مفيد لدراسة الظاهرة اللغوية؛ التي يعجز العقل البشري عن دراستها في صورتها الكُلية، فيلجأ إلى تجزئتها بتفريع العلوم التي تختص بدراسة كل جانب من اللغة. هذا التفريع يخص الجانب العلمي في الدراسات العليا و الأبحاث اللغوية المتخصصة و هو يُعين النحو التعليمي بتزويده بالنظرية التي يكيِّفها مع غايته النفعية، المتمثلة في إقدار المتعلم على استعمال اللغة.

فالنحو التعليمي هو الذي يُكسبنا أن نتكلم كما تكلمت العرب؛ أما النحو العلمي فَيُكسبنا معرفة أن واضع اللغة حكيم بمعرفة كيفية عمل الملكة. و هذا ما يبينه ابن السَّراج فيما يلي: "و اعتلالات النحويين على ضربين: ضرب مِنها هو المؤدِّي إلى كلام العرب كقولنا: كل فاعل مرفوع، و ضرب آخر يُسمى علة العلة مثل أن يقولوا: لمَ صار الفاعل مرفوعًا و المفعول منصوبًا؟ و هذا ليس يُكسبنا أن نتكلم كما تكلمت العرب، و إنما نستخرج منه حكمتها في الأصول التي وضعتها"[78]ج1،ص35.

أما علم البلاغة كما وصل إلينا أيضا فنجده قواعد مُصاغة بمصطلحات فلسفية، أوهو أحلام طافية لا تخضع إلى التقنين و هي تحتاج لا محالة إلى قواعد النحو المعياري لكي تقوم قائمتها، هذا فيما يخص البلاغة التعليمية، أما الدراسة العلمية للبلاغة؛ فتكاد تندر و لابد من التنبه للدراستها، أو البحث عنها في التراث البلاغي.

و عليه نقول أن للجملة بنيتين: إحداهما تختص بالصياغة اللفظية و هو ما اهتم به النحاة بعد سيبويه، و لا يزالون ينفردون بدراسته، و ثانيهما تختص بمستوى الخطاب و إفادة المعاني و هو ما اهتم به علماء المعاني بعد عبد القاهر الجرجاني:"و كل منهما يمتاز تحليله عن الآخر بمنهجية خاصة به و مبادئ و قوانين لا تمت بسبب إلى الجانب الآخر"[66]ص3. لكن الجانبين مهمان و لازمان و ضروريان في التحليل اللغوي، و لا فصل بينهما في كتب علمائنا الأوائل أمثال: الخليل و سيبويه و عبد القاهر الجرجاني .لكن المتأخرين من النحاة الذين تشبعوا من موائد المنطق اليوناني، فصلوا بين جانبي دراسة الجملة، فصلاً أزهق روح العربية، مما أدى إلى عدم اكتساب ملكتها، يقول عبدالرحمان بن خلدون :"و أما المخالطون لكتب المتأخرين العارية من ذلك، إلاّ من القوانين النحوية، مجرَّدة من أشعار العرب و كلامِهم، فقلَّما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة"[4] ص580. فباستقلالهم بالنظر للكلام كبنية فقط، و إهمالا النظر إليه كخطاب جعلنا:" نجد كثيراً من جهابذة النُّحاة، و المهرة في صناعة العربية المُحيطين علمًا بتلك القوانين، إذا سُئِل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودَّتِه أو شكوى ظُلامَةٍ أو قصدٍ من قُصودِهِ، أخطأ فيها الصوابَ و أكثر اللحن، و لم يُجِدْ تأليف الكلامِ لذلك، و العبارة عن المقصودِ فيه على أساليبِ اللسان العربيِّ"[4] ص580 . كما أنه من حفَل بالنظر للكلام كخطاب و أهمل جانب اللفظ لا يستطيع اكتساب الملكة أيضا. كأن يريد أن يصبح أحد جهابذة الفصاحة و أساطين البلاغة و هو لا يحسن إعراب الفاعل من المفعول و لا المرفوع من المنصوب و لا شيئًا من قواعد النحو. و هذا محال؛ يقول عبد القاهر الجرجاني:"و أنك إذا عَمَدتَ إلى ألفاظٍ فجعلتَ تُتبِعُ بعضها بعضًا من غير أن تتوخَّي فيها معاني النحو، لم تكن صنعت شيئًا تُدعى به مُؤلِّفًا"[35] ص370. و الفرق بين العلمين كما بيّناه واضح، و التمييز بينهما موضوعي

يقولالدكتورالحاج صالح :"إن هذا التمييز العلمي الموضوعي لا نجده إطلاقًا في اللسانيات الغربية اللهم إلا في نظرية جانيوبان الفرنسي. و قد اكتشف ذلك برصده لمدة عشرين سنة للمصابين بأمراض الكلام فبيَّن أنّ من تلك الآفات ما يُصيب القدرة على التركيب، و منها ما يُصيب القُدرة على استبدال مفردة بأخرى يقصدها و معرفة معانيها"[66] ص12. و هكذا تُثبت بالتجربة أن المستوى اللفظي الصوري يختلف عن المستوى الوظيفي التبليغي و لكنهما ضروريان و متلازمان في أي دراسة للغة، و ما الفصل بينهما إلاَّ عند التعمق في الكشف عن خفايا اللسان العربي و التخصص في النحوالعلمي، أو البلاغة العلمية. أما الجانب التعليمي فيظهر فيه جليًّا الحاجة إلى الربط بينهما.

و خلاصة القول إن علم النحو يدرس الجملة كبنية لفظية صورية، أما علم البلاغة فيدرسها في مستوى الإفادة حسب أحوال الخطاب، و السؤال الذي يطرح نفسه:ما علاقة النحو بالبلاغة؟

الفصل 2

ربط النحو بالبلاغة

2 .1 . بيان لعلاقة النحو بالبلاغة

سبق و أن ذكرنا في الفصل الأول أن علم النحو لا يكفي وحده لاكتساب ملكة اللغة و تجلية وظيفتها الأساسية،كما أن علم البلاغة لا يكفي وحده- كما وصلنا مفصول عن النحو و مُستغنيًا عن الشواهد الأدبية- لاكتساب ملكة اللغة و تبيين استعمالاتها المختلفة، ثم إن المقاربة بينهما أثبتت تخصص كل علم في مجال معين، فالنحو يدرس الكلام كبينة، و البلاغة تدرس الكلام كخطاب ،ولكن ماهي حقيقةعلاقة النحو بالبلاغة؟

2 .1 .1 . الاتجاهات التي تدرس علاقة النحو بالبلاغة

2 .1 .1 .1 . الاتجاه الأول: فصل النحوعن البلاغة

أول هذه الاتجاهات: الاتجاه الذي ينادي بفصل علم النحو عن علم البلاغة، و قد عُدَّ كُل منهما علمًا مستقلاً بذاته، و لا علاقة له بالآخر. و من بين الباحثين المعاصرين المؤيدين لهذه الفكرة الأستاذ"عبد الفتاح لاشين"؛ حيث يرفض ضم أو مزج العلمين في كتابه الموسوم ب:"التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر" إذْ يقول:" و هل أصبح النحو هزيلاً ضعيفًا حتى تُضم إليه البلاغة لتسنده و تقويه؟ و هل عاد سهلاً ميسرا على الناشئة حتى نزيدهم أبوابًا و فصولاً في دلائل الإعجاز و أسرار البلاغة؟ هل استوعبه دارسوه، و عرفوا دقائقه حتى نُضيف إليهم أسرار الإعجاز و لطائف البيان"[79] ص237. إن تعليقنا على هذا الرأي يكون من وجهين؛ الأول هو استعمال الدكتور لمصطلح "ضم"، الذي لعله يقصد به المزج بين العلمين و الخلط بينهما، و هذا أمر لا يُقِره العقل لأن انفراد كل علم بموضوعاته و قضاياه أقرب إلى تنظيم العلوم، أما ما ننادي به فهو ربط العلمين و مصطلح "الربط" غير مصطلح "المزج"- كم سنُوضح ذلك في موضعه- أما ثانيا؛ فهو يركز على كيفية تيسير النحو للناشئة لذلك حصر رأيه في النحو التعليمي و يحق لنا أن نتساءل: ما العيب في صرف هِمم الدارسين- في ميدان النحو- إلى اكتشاف أسرار الإعجاز ! أليس اللسان العربي هو اللسان الذي نزل به الوحي من السماء، و قواعد النحو قواعد استنبطها النحاة من إستقراء ذلك اللسان، فما يُضيرُ في محاولة فهم إعجاز القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين. فنحن اليوم أشد احتياجًا إلى فهم ديننا و النحو من أول العلوم التي تُعين على ذلك. كما أننا أشد احتياجًا إلى قراءة التراث العربي الإسلامي قراءة جادة لنتخذ منها منطلقًا لنهضة معاصرة، و أشد احتياجًا إلى تدوين علومنا الحديثة و أفكارنا بلغة عربية لنصل الماضي بالحاضر بالمستقبل، و لتحقيق ذلك لابد من ربط النحو بالبلاغة لتجليه وظيفة اللغة الأساسية و هي الإبلاغ.

و نجد الدكتور "لاشين" يذهب إلى أبعد من ذلك في رفضه لفكرة الربط فيقول:"ألم يفصل الباحثون في اللغة الآن-فضلاً عن السابق- بين النحو و الصرف و وشائج القُربى بينهما غير خفية، و أصبح لكل منها علماء يُشار إليهم بالبنان؟ فلماذا يعاب –أيها الرواد- الفصل بين (النحو و البلاغة)، و ليس بينهما ما بين (النحو و الصرف) من الصلات؟ و سواء كان ذلك في مراحل التخصص الدقيق، أو ما دونها"[79] ص237. نحن نُقّر بتخصص كل علم لكن ما كان انفراد كل علم بموضوعه إلا بعد أن كَثُرت هذه العلوم التي تدرس اللغة العربية فكان نتيجة هذه الكثرة انقسام كل علم عن الآخر من أجل التخصص و البحث العلمي، لكن لا يخفى على أحد– كما نظنه لا يخفى على الأستاذ "لاشين"- أن اللغة هي كل تلك العلوم التي تُكمِّل بعضها بعضًا و إن كان انفصل علم النحو عن علم الصرف، فهذا من أجل دواعي التعمق في البحث، لكن لا ينكر أحد الصلة الوثيقة بينهما؛ يقول الدكتورعّمار ساسي :"و الأصل أن اللغة كل متكامل و أجزاء يرتبط بعضها ببعض إذ لا يمكن معرفة حقيقة جزء منها إلا بالارتباط بالسابق و اللاحق من السياق... و من هنا فما اللغة إلا صرف و نحو و بلاغة موصول بعضها ببعض"[16] ص47. أما عن الناشئة التي يحمل الأستاذ "لاشين" همَّها، فهي تحتاج إلى دراسة علوم اللغة و هي مركبة متكاملة مرتبطة كالبنيان المرصوص، أو على الأقل توضيح وشائج القربى بين شتى علوم العربية، لا أن تُفتت إلى موضوعات ينفرد بها كل علم فيصعب على الأجيال الوصل بينها و هذا ما يؤكده الدكتورعمارساسي بقوله :" و هذا هو الذي ينبغي أن يُعطي للأجيال حتى نحافظ عليها و تُبقِي للغة العربية قدرها و مكانتها التي بوَّأها الله إيَّاها في أن جعلهالغة الوحي.وبالفصل بين هذه العلوم نزهق روح العربية"[16] ص47. فمن هذا الربط بين علم النحو و علم البلاغة يتعلم الأجيال قواعد اللغة إلى جانب تبليغ أغراضهم بعبارات صحيحة و فصيحة، لكن الاقتصار في التعليم على علم واحد و التركيز عليه يُعد نقصا في العملية التعليمية. و اللغة كما قلنا هي كل متكامل "و كما يتصورها المبدعون من علمائنا أمثال الخليل و سيبويه و ابن جني وغيرهم ممَّن ظهر في الصدر الأول، هي قبل كل شيء استعمال ثم استعمال الناطقين بها أي إحداثهم لفظًا معينًا لتأدية معنى و غرض في حال الخطاب تقتضي هذا المعنى و هذا اللفظ و ليست فقط صوتًا و لا نظامًا من القواعد و لا معنى مجردًا من اللفظ الذي يدل عليه و لا أحوالاً خطابية معزولة عن كل هذه الأشياء" و إذا كان ذلك كذلك فلا يصح في عقل أن يستغني علم النحو عن علم البلاغة، إلاّ في ميدان التخصص العلمي.

أما الأستاذ حلمي علي مرزوق فهو أيضا ينادي بفصل العلمين، و يَحسن تسليط الضوء على رأيه لأهميته؛ حيث يقول:"من أجل ذلك نعى على النحاة (يقصد الإمام عبد القاهر الجرجاني) موقفهم عند حد لم يعدوه، و طالبهم أن يمدوا البصر إلى ما وراء ذلك مما مدَّ هو بصره إليه، و لكن النحاة لو فعلوا ما فعل – إذن- لخلطوا علمين كان لابد لهما أن ينفصلا، لأنه لابد من علم يبحث في صحة الكلام، و آخر يبحث في جماله"[8]ص78 نحن نتقاطع مع هذا التحديد الأخير و هو الحاصل فعلاً فعلم النحو يبحث في صحة الكلام، و علم البلاغة يبحث في فُضول الكلام، لكن الأوَّل يُكمِّل الثاني، مثل القفل و المفتاح، و لقد رأينا في الفصل الأول كيف أنَّ علم النحو وحده رغم اختصاصه في أبواب معينة لكنه لا يكفي لتجليه وظيفة اللغة و اكتساب ملكتها، و نفس القول بالنسبة لعلم البلاغة. و لعل ما يتخوف منه الأستاذان "عبد الفتاح لاشين و حلمي علي مرزوق" هو ضم علم البلاغة(علم المعاني) إلى علم النحو و خلط موضوعات هذا بموضوعات ذاك، و بالتالي تُصرف همم الباحثين في تقليب النظر و البحث في اختصاص كل علم؛ و هذا من الوسائل المهيأة لتناسيهما. و هذا التخوف لعله راجع لاتجاه آخر ينادي بمزج العلمين و هو الآتي:

2 .1 .1. 2 . الاتجاه الثاني: ضم النحو للبلاغة:

و رائد هذا الاتجاه الثاني هو "إبراهيم مصطفى" صاحب "إحياء النحو"، و لا ينكر أي باحث ما أثاره هذا الكتاب من قضايا، لم تَهدأ ريحُها حتى الآن؛ منها قضية ضم النحوو البلاغة. لذلك أردنا ذِكر هذه المحاولة التي تعتبر قريبة مما ننادي إليه و لكنها ليست نفسها.

إن الأستاذ "إبراهيم مصطفى" يعيب على النحاة –في الشطر الأول من منهجه- تقصيرهم في حصر النحو في أحوال الإعراب و البناء "و تركهم جهات أخرى من العربية هي (في نظره) أقوم قيلا، و أجدى على الفكر و اللغة مما تمسكوا به، فهم أخذوا الفتات و قنعوا بالدون من أحوال اللغة العربية، و تركوا لغيرهم- و هم علماء البلاغة- الزبدة و الخلاصة "[79] ص233 و قد تولى الأساتذة الكرام الرد على هذا الرأي بما لم يترك زيادة لمستزيد مثل الأستاذ "محمد الخضر حسين" في كتابه "دراسات في العربية و تاريخها" و "عبد الفتاح لاشين" في كتابه "التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر". و قد بيَّنا في المبحث الأول من الفصل الأول كيف أن علم النحو مرَّ بمرحلتين، مرحلة القواعد الشكلية، و مرحلة القواعد الوظيفية. أما الشطر الثاني من منهجه فهو ما يهم هذا المستوى من البحث؛ حيث يرى بضم علم المعاني إلى علم النحو و مزجهما تدريسًا و تأليفًا و تصنيفًا. إذْ يقول :"فجمهور النحاة لم يزيدوا به في أبحاثهم النحوية حرفًا، و لا اهتدوا منه بشيء، و آخرون منهم أخذوا الأمثلة التي ضربها عبد القاهر بيانًا لرأيه، و تأييدًا لمذهبه، و جعلوها أصول علم من علوم البلاغة سموه:"علم المعاني" و فصلوه عن النحو فصلاً أزهق روح الفكرة و ذهب بنورها"[80] ص19. نحن نعترف بأن قاعدة "عبد القاهرالجرجاني" نحوية؛ بل هو يعد من كبار النحويين و مؤلفاته النحوية دليل على ذلك، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كان عبد القاهر في "الدلائل" يكتب في النحو أو في البلاغة؟ و هل صحيح أنه جاء بمفهوم جديد للنحو؟ و جوابًا نقول إن "عبد القاهر" في "دلائل الإعجاز" كتب في الربط بين النحو و البلاغة، و هو مبدأ أساسي في نظرية النَّظم، و أثناء شرحه لهذه النظرية جاء بالجديد الذي يستوجب الدراسة، لكن الباحثين لم يفهموا كلام "عبد القاهر" و ظنوه يتكلم في علم جديد سموه "علم المعاني"، أو أنه يدعو إلى مزجه بعلم النحو، لكن عبد القاهر-طيَّب الله ثراه- أراد أن يبين أن إعجاز القرآن الكريم راجع إلى النظم، و نظرية النظم هذه تحمل في أحشائها عدة مبادئ لابد للباحثين أن يكتشفوها؛ و هذا ما نعزم القيام به –إن شاء الله- حيث سنحاول قراءة أفكار "عبد القاهر الجرجاني" كما حاول هو قراءة أفكار من سبقه، كما سَنبينُه في موضعه.

و ما قادنا إلى الكلام عن "عبد القاهرالجرجاني" هو اعتماد إبراهيم مصطفى – رائد الاتجاه الثاني أراء عبد القاهر الجرجاني في تبرير منهجه في ضم النحو للبلاغة، و اتهامه للنحاة بالتقصير في حق علم النحو، و هذا يحتاج إلى دراسة علمية معمقة تفصل في هذا الأمر، كما أن هناك من المعاصرين من أيَّد إبراهيم مصطفى في منهجه نذكر منهم الأستاذ مهدي المخزومي في كتابه "في النحو العربي-نقد و توجيه-" و حسن عون في كتابه "تطور الدرس النحوي"، و هم من دعاة تيسير النحو، الذين يرون أن النحاة قصروا النحو على البحث في أواخر الكلم إعرابًا و بناءً مما جفَّف النحو، و صعبه على الدارس، و نفّر منه طلابه، و كان مما قدموه كعلاج ضم علم المعاني إلى علم النحو حتى تُعاد له الحياة. و لا يماري منصف إذا قلنا أن علم النحو كما وصل إلينا هو فعلاً جاف، و هذا ما لاحظناه بالتجربة في الميدان.مَما أدى إلى نفور الطلبة من هذه المادة الأساسية لتعليم اللغة العربية. و هذه مسألة أسالت كثيرا من حبر الباحثين و العلماء إلى اليوم و عُقدت لها مؤتمرات و ملتقيات تحت عنوان "تيسير النحو" و الأمر هذا يحتاج إلى تفصيل، و لكن نريد أن نبين أن ربط النحو بالبلاغة لايعني الخلط بينهما.

2 .1 .1 .3 . الاتجاه الثالث: ربط النحو بالبلاغة

أما الفريق الثالث فهو الذي يسعى إلى الاستفادة من كلا الاتجاهين ليُوضَّح فكرته على ضوء من فكر عبد القاهر الجرجاني، و هكذا يستوعب التراث و الحداثة استيعابًا يشير إليه توظيف الحديث لخدمة القديم والعكس صحيح؛ حيث يرى هذا الفريق أن ربط النحو بالبلاغة هو مبدأ من مبادئ اللسان العربي بل هو من الخصائص الثابتة في اللسان العربي يقول الدكتور عمَّار الساسي: "إن الوظيفة الأساسية للغة هي الإبلاغ، و لا يحصل إبلاغ إلا عن طريق ربط النحو بالبلاغة. و مبدأ العلاقة بين النحو و البلاغة مبدأ أصيل في اللسان العربي المبين، و عريق في الدراسة اللغوية و الأدبية القديمة"[5] ص71. ينطلق رواد هذا الفريق من اعتبار الوظيفة الأساسية للغة الإبلاغ و لا تؤدي اللغة هذه الوظيفة إلاَّ بربط النحو بالبلاغة و الربط لا يعني ضم هذا لذاك و مزجه به حتى تختلط موضوعات كلا العلمين بعضها ببعض. و لعل البحث عن التعريف اللغوي لمصطلح "ربط" سيبين لنا ما نذهب إليه من رأي.

2 .1 .1 .3 .1 . التعريف اللغوي لمصطلح "ربط"

جاء في "لسان العرب" لابن منظور :"رَبَطَ الشيء يَرْبِطُه و يَرْبُطُه ربطًا فهو مَربوطٌ و رَبيط: شدَّه. و الربَّاط: ما رُبِطَ به، و الجمع رُبُطٌ... و الربَّاط و المُرَابَطةُ: مُلاَزمة ثَغرَ العدُوِّ، و أصله أن يَربط كلُّ واحد من الفريقين خيلَه، ثم صار لزومُ الثغر رباطًا، و ربما سُمِيت الخيل أنفُسها رباطًا... و في الحديث عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: ألا أدُلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا و يرفعُ به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال:إسباغ الوضوء على المكاره، و كثرة الخُطى إلى المساجد، و انتظارُ الصلاة بعد الصلاة، فَذلِكم الربَّاطُ، الربَّاطُ في الأصل: الإقامة على جِهاد العدوِّ بالحرب ... فشبَّه ما ذكر من الفعال الصالحة به. قال القتبي:... و منه قوله: فذلكم الربَّاط مصدر رابطتُ أي لازمتُ، و قيل: هو هنا اسم لما يربط به الشيء أي يُشَدُّ، يعني أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي و تكفه عن المحارم .... و الرِّباطُ: الفؤاد كأن الجسم رُبط به، و رجل رابطُ الجأش و ربيط الجأش أي شديد القلب كأنه يربط نفسه عن الفِرار يَكُفُّها بجرأته و شجاعته ....و ربط الله على قلبه بالصبر أي ألهمه الصبر و شدَّه و قوَّاه" و قد وجدنا في القرآن الكريم بعض الآيات تدل على هذا المعنى اللغوي، كقوله تعالى:(*و ليربط على قلوبكم*) [1] الأنفال/الآية11،(*و ربطنا على قلوبهم*) [1]الكهف/الآية14،(*يا أيها الذين آمنوا اصبروا و صابروا و رابطوا و اتقوا الله لعلكم تفلحون*) [1]آل عمران/الآية200 من هذا التعريف اللغوي الذي قصدنا نقله رغم طوله، لتوضيح معنى الربط، نُدرك أن معنى ربط النحو بالبلاغة هو ملازمة هذا العلم لذاك، و شدُّ كلاهما بالآخر شدًا لازمًا ينتج عنه تجليه وظيفة اللغة، التي هي الإبلاغ، هذا يعني أن العلمين مترابطان أي متلازمان لأن أحدهما يُكمِّل الآخر. يقول الأستاذ أحمد شامية عن ذلك:"إن النحو و البلاغة عنصران متلاحمان في اللغة بهما تُفهم اللغة و تدرك أسرارها، و بهما يعرف سر الإعجاز في القرآن الكريم"[81] ص148.

و إذا كان ذلك كذلك، فرغم ما يوجد من حدود بين العلمين؛ فهذا لا يعني انفصالهما التام كما نادى أتباع الفريق الأول، و إذا كانوا يتخوفون-حسب اعتقادنا- من فكرة الضم و المزج التي أتى بها الأستاذ"إبراهيم مصطفى" في "إحياء النحو" فقد بيَّنا أن الربط غير المزج، مع الأخذ بعين الاعتبار أن ربط النحو بالبلاغة كان معروفًا عند علمائنا الأصلاء أمثال؛ الخليل و سيبويه و أبي علي الفارسي و ابن جني، و لكن من جاء بعدهم قصروا علم النحو على جانبه الشكلي، و فصلوا عنه جانبه المعنوي الذي تركوه لعلم البلاغة. و هذا يدفعنا إلى محاولة ضبط الصورة التاريخية للأمر كيف حدث.

2. 1. 2 . جذور فكرة فصل النحو عن البلاغة

ليس هناك تاريخ مُحدد لفكرة فصل النحو عن البلاغة، لكن المتتبع لتطور علوم اللغة العربية يستطيع أن يستنتج أسباب هذا الفصل ناهيك عن نتائجه يقول الأستاذ أحمد شامية: "إن اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب أضعف سليقتهم اللغوية، فأخذوا يلحنون ...مما دعا الغيارى منهم على دينهم و قرآنهم أن يجتهدوا ...لوضع قواعد و قوانين لغوية ..... و مع مرور الزمن تحولت هذه الدراسات اللغوية إلى دراسات شكلية، و فصلت الدراسات النحوية- التي اختلفت فيها المذاهب- عن الدراسات البلاغية، و أصبحت الأجيال العربية تتعلم هذه القواعد التي قد تضبط الألسنة نوعا ما، و لكنها لا تساعد على الفهم الصحيح الذي يمكن من معرفة أسرار التعبير و الأساليب العربية"[80] ص151و نحن نتقاطع مع الأستاذ لأن فصل النحو عن البلاغة قد يؤدي إلى إعداد أجيال تنفر من العلمين معًا، وليس هذا الهدف الذي نريده، و لو توقف الأمرعند ذلك لهان الخطب، و لكن الأدهى و الأمر أن هذه الأجيال لا تحسن لغتها و لا تستطيع التعبير بها.

و لقد تفطن لهذه المسألة بعض العلماء القدماء، فصرفوا جهدهم في اكتشاف خصائص العربية أمثال:"أبي علي الفارسي" و تلميذه "ابن جني"، ثم جاء "عبد القاهر الجرجاني" الذي حاول أن يعيد لفكرة الربط اعتبارها "هو أول من نظر إلى تركيب الجملة العربية نظرة شاملة متكاملة، و ذلك حين توصَّل إلى نظرية "التعليق"، إلا أنَّ النحاة من بعده لم ينتفعوا بهذه النظرية في درسهم للجملة؛ لأنَّ "الإعراب" القائم على العلامة الإعرابية و فكرة العامل كان قد رسَخَ في نفوسهم رُسُوخًا، و تلقَّف البلاغيون تلك النظرية الجليلة التي سبقتْ عصرها بقرون طويلة، فجعلوها أساسًا لصرح علم جديد، هو علم المعاني، و كان من نتيجة ذلك كلّه أن انشطر درسُ تركيب الجملة إلى شطرين متباعدين: شطر عند النحاة يتناول الجانب اللفظي، و شطر عند البلاغيين يتناول الجانب المعنوِّي. و الأمر المؤسف أننا مازلنا حتى اليوم نتَّبع في معاهدنا العلمية المنهج نفسه القائم على هذا الانشطار العجيب"[32] ص144 لذلك فإن مبدأ ربط النحو بالبلاغة هو مبدأ راسخ في نظرية النَّظم التي درست تركيب الجملة العربية في شقيها أو في شطريها – كما يحلو للأستاذ "حميدة" تسميته- و قد آن الأوان أن نعيد ربط هذين الشطرين، لكي نعيد للسان العربي بهاءه و رونقه الذي عرفه ردحًا من الزمن، في مرحلة الدراسة الوظيفية للغة التي يعتبرها الدكتور جعفر دك الباب ثالث مرحلة مرَّ بها اللسان العربي [3] ص29. و فكرة الربط التي دافع عنها الإمام عبد القاهر الجرجاني لم تأت من العدم بل كانت أراؤه الموجودة خاصة في دلائل الإعجاز، تتويجا و خلاصة لأعمال علماء قبله يُشار إليهم بالبنان، أمثال أبي علي الفارسي و تلميذه أبي الفتح بن جني، ثم أكمل الإمام عبد القاهرالجرجاني صَرح ما تركوه. و ها هو الدكتور جعفر دك الباب يشرح هذه السلسلة المتلاحقة من أعمال علمائنا حتى انتهى الأمر بنظرية لغوية متكاملة؛ إذْ يقول:" أدت تلك الظروف الموضوعية إلى بروز حاجة ماسة للخروج عن الوضع الذي آلت إليه الدراسة النحوية المتخصصة... فعمد الإمام السيرافي –و هو معتزلي- إلى شرح الكتاب مؤكدًا جانب الوظيفة الإبلاغية للغة و ظهر مع أبي علي الفارسي-وهو معتزلي- إتجاه جديد أخذ يستعرض الأراء في كل مسألة و يأخذ ما يراه صوابا منه، دون التقيد المسبق بأراء معينة- و تابع تلميذه ابن جني- و هو معتزلي- هذا الخط و عمقه و شعر ابن جني بأنه من أجل الخروج من هذا الوضع الذي وصلت إليه الدراسة النحوية المتخصصة يجب اكتشاف النظام العام للغة و راح في سبيل ذلك يبحث في كتابه "الخصائص" عن الأصول العامة للنحو. و أما الإمام عبد القاهر الجرجاني و هو متكلم على مذهب الأشعري- فقد بلغ السير في طريق اكتشاف النظام العام للغة، و تصدى بحزم للتيار الذي اهتم باللفظ دون المعنى و أكد الوظيفة الإبلاغية التي تؤديها اللغة، و دعا إلى عدم فصل البلاغة عن النحو فكان كتابه –

دلائل الإعجاز- بداية مرحلة جديدة في تاريخ علوم اللغة العربية هي مرحلة تأكيد الوظيفة الإبلاغية للغة عن طريق ربط النحو بالبلاغة"[3] ص29 نحن نتقاطع مع الأستاذ في هذا المسار التاريخي، لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد إنما وجدنا من تابع السير في الطريق الذي عَبَّده الإمام عبد القاهرالجرجاني، مثل الزمخشري الذي كان كتابه "المفصل في علم العربية" نموذجًا لشرح مبدأ الربط، كما طبَّق هذا المبدأ في مصنفه "الكشَّاف"، ثم أخذ السكاكي على عاتقه مواصلة السير على نفس النهج؛ فجعل البلاغة ثلاثة علوم: علم المعاني، علم البيان و علم البديع، و عرَّف علم المعاني بأنه:"تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة و ما يتصل بها من الإستحسان و غيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[13] ص247. و لا يماري منصف إذا قلنا أن "السكاكي" حَافظ على العلاقة الموجودة بين علم المعاني و علم النحو، و هي علاقة تشبه علاقة الروح بالجسد، لكن "القزويني" الذي شرح الجزء الأخير من كتاب السكاكي، وضع تعريفًا آخر لعلم المعاني و هو الذي سار في الناس مسرى النار في الحطب، و تكرس من جديد فصل النحو عن البلاغة يقول الدكتور "جعفر داك الباب" عن تعريف السكاكي:"و علم المعاني وفق هذا التعريف دراسة تطبيقية تتجلى في تتبع كيفية ارتباط الإسناد بالإفادة عن طريق دراسة الجملة في السياقات المختلفة. و قدم القزويني في "الإيضاح" تعريفًا بديلاً لعلم المعاني و هو "علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال". فأسقط القزويني بذلك الجانب التطبيقي الذي أكده السكاكي و المتمثل في (تتبع كيفية إرتباط الإسناد بالإفادة). و قد ساد تعريف القزويني لعلم المعاني إلى يومنا، و تكرس بسبب ذلك فصل النحو و البلاغة بعضها عن بعض"[82] ص153. هذه الحقائق التاريخية تكشف لنا عن وجود فكرة الربط في أذهان و أعمال علمائنا الأوائل، ثم غُيِّبَت لأسباب تمَّ ذكرها سابقًا، وهاهو الدرس اللغوي الحديث يكشف من جديد عن علاقة النحو بالبلاغة من بين سائر العلوم الأخرى؛ فما هي هذه العلاقة؟

2 .1 .3 . طبيعة العلاقة بين النحو والبلاغة

هذه العلاقة تتجلى في كون البلاغة تمام النحو، و هي تبدأ حيث ينتهي هو، يقول ابن كمال باشا موضحًا ذلك:"فما يبحث عنه في علم النحو من جهة الصحة و الفساد، يبحث عنه في علم المعاني من جهة الحسن و القبح و هذا معنى كون علم المعاني تمام علم النحو"[79] ص231. فإذا كان النحو يدرس التركيب لتأدية المعاني الأصلية فإن البلاغة تدرس التركيب لتأدية المعاني الثانوية، و منه فالنحو يهتم بضرب أولي من الكلام و هو ما يصفه عبد القاهر الجرجاني بقوله:"ضربٌ أنت تصل منْه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، و ذلك إذا قصدت أن تُخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت خرج زيد"[35] ص262. أما البلاغة فتدرس ضرب آخر من الكلام يعرفه الجرجاني بقوله:"و ضربٌ آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، و لكن يَدُلُّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه و مدار هذا الأمر على الكناية و الإستعارة و التمثيل"[35] ص262 و هي أبواب نجدها في البلاغة، و هنا يظهر الفرق واضحًا لتناول كل علم من العلمين ضرب من الكلام و قيام دراسته على أساسه، فكلاهما بحر شاسع من القضايا و المسائل و الاجتهادات و لكن كما قال الله جلَّ شأنه:(*مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان*) [1] الرحمان الآية 17،18 فهما علمان مترابطان و متكاملان و لكن لا يختلط أحدهما بالأخر، و رب قائل يقول : العلوم كلها متكاملة أو تبحث عن التكامل و تخدم بعضها بعضًا، هذا صحيح لكن خدمة النحو للبلاغة، و البلاغة للنحو أوجب، و هي كلها روافد تنبع من أصل واحد، و تتلاقى عند منصب واحد لقصد معين و غاية واحدة هي الفهم و الإفهام، و البيان و التبيين أو بالمصطلح العصري الإبلاغ و الإتصال. يقول الأستاذ صالح بلعيد:"كانت العلوم اللغوية يخدُم بعضها بعضًا، و لم تكن منفصلة عن النحو. و لهذا لم نر سيبويه يحدث

شرخًا بينهما"[83] ص71 بل إن كتاب سيبويه ضم كثيرا من علوم اللغة بين دفتيه، و من يتصفح الكتاب يَجد كلاما دقيقا و مُركزا عن مباحث نعدها اليوم من صميم البلاغة، مما يؤكد العلاقة التكاملية بين العلمين، و نتمثل ذلك كتكامل كل الثنائيات في هذا الكون الفسيح، كتكامل الليل و النهار، و الأرض و السماء، و الشمس و القمر... يقول الدكتورعمارساسي في ذلك :"و بهذا تثبت العلاقة التكاملية بين العلمين علم النحو و علم المعاني و هو كتكامل القاعدة بالقمة و الأرض بالسماء فلا يمكن أن يكون هناك علم المعاني في غياب علم النحو و العكس صحيح"[16] ص46 و هذا التكامل يمتد ليشمل كل علم البلاغة: فحتى علم البيان و البديع بحاجة إلى علم النحو"بحيث لا يستغني أحدهما عن الآخر فالنحو بغير المعاني جفاف قاحل، و المعاني بغير النحو أحلام طافية ينأى بها الوهم عن رصانة المطابقة العرضية، و ينحاز بها إلى نزوات الذوق الفردي" [31] ص344 و لكن نجد من يقول :"إن البلاغي يحتاج إلى النحو فهو عنده القاعدة لكن النحوي لا يحتاج إلى البلاغة".

2 .1 .3 .1 . النحو يحتاج للبلاغة

حُجة من يزعم أن النحو لا يحتاج للبلاغة أن البلاغة لا تنطلق من العدم، بل تتخذ من قواعد النحو أرضًا صلبة تقوم عليها، و هذا أمر بديهي يقول تمام حسَّان:"البلاغيون لم يبدأوا التفكير في موضوعهم من نقطة الصفر، و إنما بنوا صرح البلاغة على أساس من جهود مَن تقدمهم من النحاة و اللغويين"[31] ص348 فالبلاغيون يؤكدون على أن النحو هو قاعدة البلاغة، و من لا يتوخى في تركيبه قواعد النحو، فكيف يدَّعي البلاغة بعد ذلك؟ وعبد القاهرالجرجاني يؤكد مرارًا ذلك في "دلائل الإعجاز"، و يبين أن الخطأ في التركيب النحوي و التساهل في مراعاة قواعده في الأساليب العربية يخل بالتركيب و يفسد المعنى و ما أكثر الأمثلة التي ضربها ليؤكد حُسن النَظم في توخي معاني النحو، و فساده في مخالفة النحو"[35] ص83.

لكن ما يحتاج إلى البيان أكثر هو ظن بعض المؤلفين أن علم النحو ليس بحاجة إلى البلاغة؛ حيث يقول الأستاذ عبد الفتاح لاشين:"فإذا راعى المتكلم حال المخاطب كان الكلام صحيحًا بليغا، لكن إذا لم يراع المتكلم ذلك بأن قال المتكلم للمخاطب المنكر لحرارة الشمس:

الحرارة الشديدة، فبماذا نصف عبارته تلك؟ أما من جهة البلاغة فالعبارة غير بليغة، لأنها أغفلت حال المخاطَب، إذ الواجب أن تؤكد العبارة له مراعاة للإنكار عنده، أما من جهة النحو فالعبارة صحيحة، و ما أغفل من مراعاة حال المخاطَب لا يؤثر في صحتها"[79] ص242 نقول: من المؤكد أن العبارة صحيحة نحويًا و لا غبار عليها، هُذا في قانون الوضع، و لكن ألا يستعملها المتكلم أبدًا؟ الصواب أن يستعملها حتمًا و هو بذلك يحتاج إلى معرفة كيف يستعملها و متى؟ حتى ينقل أغراضه بوضوح؛ فإذا استعمل جملة:الحرارة شديدة، في المقام نفسه الذي ذكره الأستاذ "لاشين" يكون المتكلم جانب الصواب فحصل اللبس. و هذا يذكرنا بتَساؤُل الكندي الفيلسوف عندما قال:"إني لأجد في كلام العرب حشوًا ! فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون:"عبد الله قائم"، ثم يقولون:"إن عبد الله قائم"،ثم يقولون:"إن عبد الله لقائم" فالألفاظ متكرِّرة و المعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لإختلاف الألفاظ، فقولهم:"عبد الله قائم"، إخبار عن قيامه، و قولهم:"إنَّ عبد الله قائم" جوابٌ عن سؤال سائل، و قوله:"إن عبد الله لقائم" جوابُ عن إنكار مُنكر قيامَهُ. فقد تكرَّرت الألفاظ لتكرُّر المعاني. قال فما أحارَ المتفلسف جوابًا"[35] ص231 فنلاحظ جليًا كيف أن أبا العباس ثعلب النحوي المشهور فرَّق بين تلك

الجمل باعتماده على البلاغة، و لو كان الأمر كما يَظُنه الأستاذ "لاشين" لقال "أبو العباس" أن هذه الجمل صحيحة نحويًا، و هذا ما يهمنا نحن النحاة، و ماعدا ذلك ليس من اختصاصنا، و هو ما يدل على حاجة علم النحو للبلاغة.

نحن لا ننكر أن النحو يهتم بدراسة الكلام، و البلاغة تهتم بفضول الكلام، لكن كلاهما يحتاج إلى الآخر، و هذا ما يوضحه سيبويه في الكتاب "فسيبويه لم ينظر إلى الصحة و الفساد فحسب، و لكنه وضع نصب عينيه الحسن و القبح، لأن إحساسه يتعلق بهما و هذا أدخل شيء في اهتمامه بالفصاحة و سلوك طريق البلاغة، و مراعاة تأليف الكلام و حسن النظم القائم على توخي معاني النحو"[46]ص80 و لا أدلَّ من ذلك الأبواب التي ذكرها في كتابه، فتكلم في علم المعاني عن التقديم و التأخير، و أسلوب الاستفهام، كما تكلم في علم البيان عن التشبيه و الاستعارة و المجاز و الكناية، و نبَّه في علم البديع إلى "تأكيد المدح بما يشبه الذم". و قد درس الأستاذ عبد القادر حسين هذه الموضوعات في كتابيه "أثر النحاة في البحث البلاغي" و "المختصر في تاريخ البلاغة" كاشفًا عن جهد سيبويه في التقعيد للبلاغة لكي يقول في الأخير:"نظن أننا بمنأى عن الاتهام إذا قلنا إن سيبويه قد ساهم مساهمة فعَّالة في وضع علم المعاني، و ساعد في وضع الأساس لعلم البيان، و نبَّه على البديع"[84] ص60.و قد يعترض علينا معترض ليزعم أن سيبويه كان يقصد النحو بكلامه عن هذه الأبواب البلاغية، و الجواب عنه سهل، فإن سيبويه لم يفصل بين النحو و البلاغة في كتابه، فالنحو عنده ليس دراسةلأواخر الكلم كما استقرَّ في كتب المتأخرين، بل نظرإلى النحو نظرة شاملة رابطًا إياه بالبلاغة لأنه يشمل أيضا تأليف الجملة و نظمها و بيان ما فيها من حسن و قبح و من أمثلة ذلك قوله و هو يدرس جملة: أنا عبد الله منطلقًا: "و ذلك أن رجلاً من إخوانك و معرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقًا، و هو زيد مُنطلقًا، كان محالاً؛ لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق، و لم يقل هو و لا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأن هو و أنا علامتان للمُضْمَر، و إنما يُضمِر إذا عَلِم أنك قد عرفت من يعني، إلاّ أن رجلاً لو كان خلف حائط أو في موضع تجهله فيه فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقًا في حاجتك، كان حسنا"[85]ج2،ص80-81 فنلاحظ كيف أن سيبويه لم يكتف بالنظرة الشكلية و إلاَّ لعدَّ الجمل السابقة سليمة نحويًا، لكنه لا يفصل الجمل عن ملابسات استعمالها. و هذا ما أرد عبد القاهر الجرجاني التدليل عليه في "دلائل الإعجاز"؛ فاعتمد على أراء سيبويه و نوَّه بها و عارضها أحيانا، لأنه بصدد التقعيد لنظرية جديدة قطعت شوطا بعد سيبويه حتى عصر الجرجاني، نظرية لا تفصل بين النحو و البلاغة.

و خلاصة القول إن ربط النحوبالبلاغة مهم و ضروري لدراسة اللسان العربي و معرفة خصائصه، وإذا جئنا للكلام عن اللغة، فاللغة ليست هيكلا أو جسما عاريا مُخيفا صامتا،" و إنما هي أجسام حية ناطقة و قد أكمل علماء المعاني ما بدأه اللغويون و النحاة، و أعادوا إلى التراكيب اللغوية روحها التي فقدتها في كتب النحو المتأخرة. و أن أية دراسة تتخذ من تحليل التركيب وحده منهجًا لن تخدم اللغة. و قد كان لما كتبه عبد القاهر في دلائل الإعجاز و لخصه البلاغيون في علم المعاني أبلغ الأثر في بعث الدراسات اللغوية و النحوية، و لو استمر منهج عبد القاهر لأغني العربية و لأفاد الأدباء، و لكن الذين جاءوا بعده لم يقفوا على نظرية النظم وقفة المتذوق فجمدت في قوالب بلاغية أظهرتها شروح التخليص في صور حائلة ليس فيها ما ينير السبيل"[86]ص59. و لعل المتتبع لخطوات هذا البحث، لا يجد صعوبة في اكتشاف أننانهدف إلى بيان مبدأ ربط النحوبالبلاغة، الذي يظهر جليا في نظرية تضاهي أحدث النظريات

المعاصرة ،وهي نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني، لذلك فإن الكلام عن ربط النحوبالبلاغة هو بالضرورة كلام عن نظرية النظم.وبالتالي:ماهي نظرية النظم؟ وما دور مبدأربط النحوبالبلاغة في صلب هذه النظرية؟

2 .2 . نظرية النظم عند عبدالقاهر الجرجاني

إن مبدأ ربط النحو بالبلاغة مبدأ راسخ في نظرية النظم، فالنحو علم قائم بذاته و هو يمد المتكلم بالقواعد التي يحترز بها من الخطأ في الكلام،وعليه أن يختارمنها مايلائم أغراضه و البلاغة تأتي من الانسجام بين القاعدة الشكلية و غرض المتكلم و هذا لن يكون إلاّ بربط النحو بالبلاغة لغاية تشكيل صورة المعنى في ذهن السامع على نحو يبتعد عن الغموض و الإبهام، يقول عبد القادر المهيري:"فالنحو يمد المتكلم بأنماط مختلفة للكلام تتماشى مع مختلف الأغرض الممكنة، و على المتكلم أن يختار منها ما يوافق قصده، و البلاغة تحصل إن وُفق إلى الملاءمة بين النمط و الغرض، و استعمال ما يجب حيثما يحبب"[87] ص115 و هذا القول يبين علاقة النحو بالبلاغة التي تتجسد في نظرية النظم، فما هو تعريف النظم لغة و اصطلاحًا؟.

2 .2 .1 .تعريف النظم لغة واصطلاحا:

2 .2 .1 .1 . التعريف اللغوي:

النَّظم في اللغة العربية هو التأليف يقول الجوهري:"نَظَمَ: نَظمتُ اللؤلؤ، أي جمعته في السِلك، و التنظيم مثله، و منه نظمت الشْعر و نظَّمتُهُ"[9]ج5 و يذهب ابن منظور إلى نفس التعريف فيقول:"النَّظم: التأليف، نَظَمَه ينظِمُه نَظْمًا و نِظامًا و نظَّمه فانتظم و تنظَّم... و كل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض، فقد نظمته... و النِّظامُ: الخيط الذي يُنظم فيه اللؤلؤ، و تناظمت الصخور: تلاصقت"[11] ج6.

فالمعنى اللغوي إذًا هو ضم الشيء و تنسيقه على نسق واحد كحبات اللؤلؤ المنتظمة في السلك، و هذا المعنى هو المقصود في التعريف الاصطلاحي.

2 .2 .1 .2 .التعريف الاصطلاحي:

هناك من تناول مصطلح "النَّظم" قبل عبد القاهر الجرجاني، و لعل أقدم إشارة لهذا المصطلح نجدها عند "ابن المقفع" الذي أشارإلى صياغة الكلام بقوله:"فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل و أن يقولوا قولاً بديعًا فليعلم الواصفون المخبرون أنَّ أحدهم و إن أحسنَ و أبلغ ليس زائدًا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتًا و زبرجدًا و مرجانًا فَنَظَمَهُ قلائد و سموطًا و أكاليل و وضع كل فص موضعه و جمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حُسنًا فَسمِي بذلك صائغًا رقيقًا... فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه فلا يعجبن به إعجاب المخترع المبتدع، فإنما اجتباه كما وصفنا"[88] ص5 يظهر جليًا أن ابن المقفع استعمل المعنى اللغوي لتوضيح المعنى الاصطلاحي، الذي سار في الآفاق و ذاع صيته، مما جعل عبد القاهر الجرجاني يختار هذا الاسم لنظريته اللغوية رغم أنه نبَّه لمصطلحات أخرى؛ حيث يقول "و وجدتُ المُعَوَّل على أن ههمنا نظمًا و ترتيبًا، و تأليفا و تركيبًا و صياغة و تصويرًا، و نسجًا و تحبيرًا..." [35] ص34 و لعل سبب اختياره هذا المصطلح من بين المصطلحات التي ذكرها، هو ذيوع اسم "النَّظم" عند سابقيه، يقول محمد محمدأبو موسى:"و الذي أغرى عبد القاهر بلفظ "النظم" هو شيوعه

و كثرة تداوله عند مَن سبقوه، فقد جعله الجاحظ الأصل الذي احتج له في كتابه "الاحتجاج لنظم القرآن". كما ذكره القاضي عبد الجبار و غيره"[89] ص52 و إذا كان هذا حال التسمية، فإن معنى النظم قد ظهر منذ زمن سيبويه وقد عرفه "النظّام"أستاذ الجاحظ والإمام الواسطي وأئمة آخرون و لكن "عبد القاهر الجرجاني" هو الذي جعله شُغله الشاغل، حيث يُعرِّفُه بما يلي: "لا نَظم في الكَلِمَ و لا ترتيب، حتى يُعلَّق بعضها ببعض، و يُبنى بعضها على بعض، و تُجعل هذه بسبب من تلك"[35] ص55 إذن النَّظم اصطلاحًا هو تعليق الكلم ببعضها بعض، و جعلُ بعضها بسبب من بعض، و هذا وصف للكلام على سبيل المجاز لأنه ليس في الكلام نظم حقيقي، إذ النظم الحقيقي هو نظم الدُّر في السلك.

2 .2 .2 . فكرة النظم عند عبد القاهر في الدراسات اللغوية

إن فكرة "النَّظم" كانت موجودة عند العرب منذ القرون الأولى؛ حيث نجدهم يدرسون الجملة في مستوييها اللفظي و الخطابي، و الدارس لكتاب سيبويه يرى رأي العين تجلّي مفهوم النَّظم فيه. يقول أحمد مطلوب موضِّحًا جذور هذه الفكرة عند العرب غير أنهم لم يُسموها باسمها، و لم يُفردوا لها بحثًا مُستقلاً مثلما فعل "عبد القاهرالجرجاني"؛ يقول:"و للنحاة العرب يد طولى في دراسة الكلام و تحليله و الوقوف عند الجملة و ما يطرأ عليها من تقديم و تأخير...

و لعل سيبويه كان من أقدم الذين وقفوا عند هذه الجوانب و درسها بعمق في فصول كتابه الشهير. و لكنَّ سيبويه و النحاة لم يُسمُّوا هذه البحوث نظمًا و إنما هي قواعد تسير عليها العرب في كلامها أو إنشائها"[90].

و المكتبة العربية مليئة بالكتب التي درست و تتبعت جذور فكرة النَّظم، منذ سيبويه حتى عصر عبد القاهر الجرجاني. و هذا العلامة هو "بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني"؛ أحد أئمة العربية و النحو و البلاغة و الكلام على مذهب الأشاعرة، و الفقيه على المذهب الشافعي، ولد و عاش بجُرجان و لم يفارقها حتى تُوفي سنة 471 هـ.

و قد عُنِي الدارسون بحياة "عبد القاهرالجرجاني"، فأداروا حولها البحوث، و ألّفوا عن نظريته الكتب التي لم يَقِف سيلها إلى يومنا هذا، و في جميع المجالات نذكر على سبيل المثال:

1- دراستها في مجال النقد مثل كتاب "أحمد مطلوب" الموسوم بـ "عبد القاهر الجرجاني بلاغته و نقده".

2- دراستها في مجال البلاغة، و ما أكثر الكتب التي درست ذلك مثل كتاب "غريب علي علاّم" الموسوم بـ "البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين عبد القاهر و الخفاجي". و دكتوراه بجامعة القاهرة الموسومة بـ "أثر عبد القاهر الجرجاني في البلاغة العربية في عصر الخطيب القزويني".

3- دراستها في ميدان النحو مثل كتاب "البدراوي زهران"،"عالم اللغة عبد القاهر المُفتن في العربية و نحوها". و دكتوراه "صالح بلعيد" بجامعة الجزائر الموسومة بـ"التراكيب النحوية و سياقاتها عند عبد القاهر".

4- دراستها في ميدان إعجاز القرآن الكريم.مثل كتاب الدكتور "عمارساسي"الموسوم ب"النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم" و دكتوراه لنفس الأستاذ الموسومة بـ"الإعجاز البياني في الآيات المحكمات".

5- دراستها في ميدان اللسانيات مثل ماجستير "محمد أبوزقية"، بجامعة الجزائر الموسومة بـ "المبادئ الأساسية للسانيات العامة و الأسلوبية من خلال دلائل الإعجاز".

6- دراستها دراسة مقارنة مثلما فعل الدكتور "جعفر دك الباب" في كتابه "الموجز في شرح دلائل الإعجاز".

7- دراسة تاريخية مثل كتاب "حاتم الضامن"، "نظرية النظم تاريخ و تطور".
8- دراسة عامة للنظرية مثل كتاب "النظم في دلائل الإعجاز" لمصطفى ناصف و "نظرية عبد القاهر الجرجاني في النظم" لدرويش الجندي.
و غيرها من الأبحاث التي سكتنا عنها اقتصارًا لا اختصارًا، لنقول أننا لسنا أول من يكتب في نظرية النَّظم؛ فالمكتبة العربية من المحيط إلى الخليج زاخرة بالمؤلفات و الأبحاث عن هذه النظرية، لذلك فإن الكتابة عن "عبد القاهرالجرجاني" صعبة بالنسبة للدارس في العصر الراهن، لأنه يحتاج مع تلك الدراسات إلى أن يَقف على أصولها و صورتها العامة، على أقل تقدير حتى يتبيَّن الخطوة التي يزيدها على من تقدمه، و هذا لا يعني التكاسل و غلق باب الاجتهاد فالملاحظ في ما كتبه هؤلاء الباحثون أنه يتجه إما لإطار الوصف العام لما تمتاز به كتب "عبد القاهر الجرجاني" من الفكر الموسوعي و الأسلوب الممتع الرائق، و إما للحديث عن نبوغه و عبقريته في مجالات عديدة تمَّ ذكرُها سابقا، أو إفراده بالنبوغ في جانب من جوانب اللغة كالبلاغة، أو النحو، أو النقد، أو اللسانيات.

و ليس مرادنا أن نُهوِّن من شأن هذه الكتب و الدراسات أو من شأن ما قدَّمه أصحابها من أفكار و ملاحظات، فإليها يُوعز الفضل في التعريف بمُفكر أهمله المؤرخون قُرونًا من الزمن، و لكن نريد أن نتبين الخطوة التي سنقدِّم بها لميدان البحث العلمي اللغوي شيئا ذا بال، و نُكمِّل الدراسات التي سبقتنا بما نريد دراسته عن هذه النظرية؛ التي دارت كثيًرا في الميدان الأدبي، لأن الباحثين بعدما عثروا على كتابي "عبد القاهر"، "دلائل الإعجاز، و أسرار البلاغة". و ذلك على يد "محمد عبدو الذي أعاد لكتابي عبد القاهر مجدهما التليد ففتح الباب على بحوث بدأت و لم تنته لحد اليوم، تتناول نظرية النظم بالدراسة و التحليل"[91] ص105.

لكن هذه البحوث جعلت من نظرية النظم ميدانًا خصبًا للدراسة الأدبية، أما الدراسة اللغوية فلا نجد –حسب اطلاعنا- إلاَّ قلة ممن أحاطها بالبحث، اللّهم إلاَّ التفسيرات العلمية التي ذكرها الدكتور "جعفر دك الباب" في مقالاته، و الدكتور "محمد العيد رتيمة" في دكتوراه دولة بعنوان "دراسة لغوية لمفهوم الآية في القرآن الكريم"، و أطروحة الدكتور "عمّار ساسي" الموسومة بـ "الإعجاز البياني في الآيات المحكمات" ضف إلى ذلك تناولنا الموضوع وفق منهج وصفي وظيفي، حتى نجمع بين العلم و العمل الذي يُثْبَتُ به العلم أو بين النظرية و التطبيق.

2 .2 .3 . مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني

سبق و أن ذكرنا في الفصل الأول؛ تعريف اللغة عند الإمام "عبد القاهرالجرجاني"و نريد هنا أن نُفصِّل ما أجملناه هناك.

إن نظرية النَّظم انطلقت من أسس و مبادئ تدل على حذق صاحبها، و سنكتفي بذكر ثنائية شرحها الإمام و نقصد بها ثنائية اللغة و الكلام، و قد اخترنا هذه الثنائية لأنها تمت بصلة لموضوع مذكرتنا، أما الثنائيات الأخرى فأجَّلناها إلى بحوث أخرى –إن شاء الله- كثنائية اللفظ و المعنى، و ثنائية المعنى و معنى المعنى، و ثنائية حروف منظومة و كلم منظوم، و إن كانت كلها متداخلة و لا يمكن الفصل بينها.

2 .2 .3 .1- ثنائية اللغة والكلام:أما مصطلح "اللغة" فيطلقه "عبدالقاهرالجرجاني" على الألفاظ المفردة و معانيها فيقول:" إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها

و لكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد"[35]. هذه الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة ترشد إلى مختلف المعاني و تهدي إليها، لأن الألفاظ أدلة على المعاني – على حد تعبير الإمام- فالألفاظ علامات و سمات و هي تابعة للمعاني وخادمة لها، يقول عبد القاهر في ذلك:"و ليت شعري، هل كانت الألفاظ إلاّ من أجل المعاني؟ و هل هي إلاّ خدمٌ لها، و مُصرَّفةٌ على حكمها؟ أو ليست هي سماتٍ لها ، و أوضاعًا قد وُضعت لتدلَّ عليها ؟"[35] ص417، و إذا كانت الألفاظ سمات، فلا رابط طبيعي بين اللفظة و معناها؛ أي أن العلامة اللغوية اعتباطية في نظر "الجرجاني"، و ما يدل على ذلك تمييزه بين حروف منظومة و كلم منظومة إذ يقول:"و ذلك أن "نظم الحروف" هو تواليها في النطق، و ليس نظمُها بمقتضى عن معنى، و لا الناظمُ لها بمُقتَفٍ في ذلك رسمًا من العقل اقتضى أن يتحَّرى في نظمه لها ما تحَّراهُ.

فلو أن واضعَ اللغة كان قد قال "رَبضَ"مكان "ضرب"، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد"[35] ص49 و منه فبنية الكلمة عند "عبد القاهرالجرجاني" تنتج من نظم الحروف الذي هو تتابعها في النطق و هذا لا يمكن تبريره بالعقل بل هو اعتباطي، يقول عبد القادر المهيري:"ليس للنَّظم (يقصد نظم الحروف) في هذه الحال تعليل معنوي، و لا أسباب عقلية تحتم اختيار ترتيب على ترتيب آخر، أو تفضيل علامة على علامة أخرى لتأدية معنى معين؛ و تتابع العناصر المكونة للكلمة هو مجرد تواليها في النطق"[87] ص102 و هذا المفهوم للكلمة عند "الجرجاني" يجعلنا نكشف عن شخصيته اللغوية، كما يتبادر إلى الذهن مقارنة هذا المفهوم بمفهوم "دي سوسور" للكلمة؛ لذلك نقول إن مفاهيم عبد القاهر الجرجاني تضاهي أحدث المفاهيم في ميدان اللسانيات.

و ما يهم "الجرجاني" ليس نظم الحروف بل نظم الكلم إذا يقول :"و أمّا "نَظْمُ الكلِم" فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نَظمها آثار المعاني، و تُرَتِّبُها على حساب تَرَتُّبِ المعاني في النفس، فهو إذن نظمٌ يُعتبر فيه حال المَنظُوم بعضه مع بعض، و ليس هو النَّظم الذي معناه ضَم الشيء إلى الشيء كيف جاء و اتفَّق... ليس الغرض بنظم الكلم، أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دِلالتها، و تلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل"[35] ص49.

و منه فالنظام اللغوي يربط الكلم بعضه ببعض، ليس كيفما جاء بل على وجه اقتضاه العقل، يقول جعفر دك الباب:"فاللغة إذن نظام لربط الكلم ببعضها وفقا لمقتضيات دلالاتها العقلية"[3] ص32. هذا فيما يخص اللغة عند الجرجاني، و لسنا هنا بصدد بيان كل أرائه اللغوية، بل نريد الكشف عن مبادئ موجودة في نظرية النَّظم ستوصلنا إلى بيت القصيد من بحثنا هذا؛ و هو مبدأ ربط النحو بالبلاغة.

أما الكلام؛ فهو الذي نال الحظ الأوفر من بحث الجرجاني يقول عبد القادر المهيري: "إن الكلام هو موضوع بحثه،ومحور آرائه،وليس عجيبا أن يكون الكلام هو شغله الشاغل إذ البلاغة ميدانها الكلام لا"اللغة" أو قل إن موضوع بحثها هي اللغة كما يستعملها المتكلم و يتصرف فيها، و يختار منها ما يفي بقصده و يُبلِّغ مقاصده"[87] ص98،97. و هذا الميل للكلام يجعلنا نتساءل: هل اهتم عبد القاهر فعلاً بالكلام؟ و لماذا؟

نقول إن انطلاق "عبد القاهر الجرجاني" كان وفق وجهتين:

أما الأولى؛ فوجهة نحوية حيث نظر في التراث النحوي فوجد حقائق واسعة و دراسات مستوعبة أحاطت بالمباني، و نقصد بالمباني "اللغة بكل جوانبها النحوية و الصوتية و المعجمية المرتسمة في عقول جميع الناس، أي كل ما يعرف الناس عن لغتهم و ليس ما يتفوهون به"[92] ص124 لذلك عمد الإمام إلى التحليل و الشرح و الترجيح مع صبغ كل ذلك بطبعة النقَّاد و لغة عقله الوقَّاد.
أما الوجهة الثانية؛ فهي نظره في التراث البلاغي الذي وجده يحتاج إلى الدراسة المعمَّقة يقول محمد أبو موسى: "ثم نظر في التراث البلاغي الذي بين يديه فوجده إشارات، و كلمات مبهمة تنطوي على معارف كأنها الأجنة في بطون الألفاظ فأملى عليه ذلك موقفًا عقليًا مختلفًا تمامًا عن موقفه من النحو"[89] ص45 و من هنا جعل عبد القاهر من البلاغة، شغله حيث يقول :"و لم أزل منذ خدمتُ العلم أنظر فيما قاله العلماء في الفصاحة و البلاغة و البيان و البراعة و في بيان المغزى من هذه العبارات و تفسير المراد منها"[35] ص34 فهذا دليل على انشغاله بالبلاغة لزمن طويل و دليل على تقليبه النظر في أقوال السلف، و البلاغة موضوعها الكلام لذلك كان انشغال "الجرجاني" بالكلام أكبر لأنه يراه وسيلة للتبليغ أو الذي-على حد تعبيره-:"يعطي للعلوم منازلها، و يُبيَن مراتبها و يكشف عن صُورها و يَجني صنوف ثمرها"[75] ص2.

هذا الكلام الذي يركَّز عليه الإمام يشترط فيه توفر أوضاع اللغة و بالتالي لا يُقيم قطيعة بين اللغة و الكلام، أو بالأحرى لا يستغني عن النحو في انشغاله بالبلاغة، بل إنه ينادي في كل مرة بربطهما لأنه مبدأ راسخ في نظرية النظم فما مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني؟

2. 2. 3. 2 . النظم هو توخي معاني النحو

إن كتاب "دلائل الإعجاز" هو المؤلف الذي شرح فيه "عبد القاهرالجرجاني" مفهومه للنَّظم. فإذا تصفحنا الكتاب نجده يؤكد على مدار اثنتي عشر صفحة أنه توخى معاني النحو فيما بين الكلم. فإذا تتبعنا هذا المفهوم منذ البداية يُمكننا وضع اللبنة الأولى لمفهوم النظم عند "الجرجاني" كما يلي:

النَظم = تعليق الكلم بعضها ببعض
تعليق الكلم= معاني النحو و أحكامه
⇐ النَظم = معاني النحو و أحكامه

أما اللبنة الثانية:
النظَّم = وجوه و فروق كل باب من أبواب النحو+أغراض المتكلم البلاغية
و المعادلة النهائية هي :
النَّظم= فروق كل باب(معاني النحو) + أغراض المتكلم التي تراعي السياق

شكل رقم 09 :مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني.(35)ص87

هذه المعادلة النهائية تُخفي أمورا قد بيَّناها منذ البداية كاعتماد المتكلم على أوضاع اللغة التي هي معاني الكلم المفردة، بما فيها قواعد النحو"فألفاظ اللغة تشبه المادة الخام التي يصنع منها المتكلم أسلوبه طبقًا لقوانين النحو المعيارية (و ليس له أن يُغير فيها شيئا). و معاني النحو –التي هي الفروق الدقيقة داخل قوانين النحو- تشبه الأصباغ التي تعمل بها الصور"[74] ص87. و هذا المفهوم للنَّظم يبين العلاقة التكاملية بين النحو و البلاغة، فلم يُركز الجرجاني على النحو فقط باعتباره قواعد لا يجوز الخروج عنها في الكلام السليم، بل تجاوز ذلك إلى ربطها بمعانيها أي معاني النحو، يقول محمد بركات في ذلك:"و يستبعد عبد القاهر أن تكون معاني النحو هي الإعراب.... بل يرى أن الصواب في الكلام في إدارك أمور لطيفة تعتمد الفكر، و دقائق يوصل إليها بثاقب الفهم و هو ما يسميه بالنَّظم"[93] ص151. هذا النَّظم يقوم على

مبدأ ربط النحو بالبلاغة و نقصد على وجه الخصوص ربط النحوبعلم المعاني، أي هو ربط الجانب الشكلي للغة بالجانب الوظيفي لها. و الجانبان لا يستغني أحدهما عن الآخر، لأن اللغة ليست قواعد جافة فقط و إلاّأصبحت هيكلا عظميا لا معنى له ولاوظيفة حتى يُكسى باللحم، قال تعالى في محكم تنزيله:(ثم *خَلَقْنَا النُطفَةَ عَلَقَةً فَخلقنَا العَلَقة مُضغَةً فخَلقنَا المُضغَةَ عِظامًا فكسونَا العِظَام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك الله أحسنُ الخَالِقِين*) [1]المؤمنون/الآية14 فكما لا يستغني الهيكل عن اللحم، و لا اللحم عن الهيكل، لا يستغني الجانب الشكلي عن الجانب الوظيفي و لا الجانب الوظيفي عن الشكلي، و لا يستغني النحو عن علم المعاني و لا علم المعاني عن النحو و منه فالجرجاني يؤكد - من خلال نظرية النَّظم –على الوظيفة الإبلاغية للغة، بربط النحو بالبلاغة يقول الدكتورمحمد العيد رتيمة:"هكذا راح الإمام الجرجاني يؤكد الوظيفة الإبلاغية للغة رابطًا في أثناء ذلك بين البلاغة و النحو مُؤكدًا أن الألفاظ المجردة و الكلم المفردة لا تتفاضل إلا من حيث حسن ملاءمة معنى اللفظة لمعاني جاراتها"[94] ص101.إن الجرجاني يؤكد أن الوظيفة الأساسية للغة هي الإبلاغ، فإن النظام اللغوي خُلق للإفادة أي تبليغ أغراض المتكلم و مقاصده إلى المستمع، هذه الأغراض يدرسها علم البلاغة، و هي لا غِنى لها عن علم النحو يقول الدكتورعمّار ساسي:"و من هنا تتجلى أمنية نظرية الإمام الجرجاني اللغوية التي انطلقت من اعتبار أن الوظيفة الأساسية للغة تظهر في استخدامها كوسيلة لاتصال الناس بعضهم ببعض مبينة ارتباط معاني النحو بالدلالات العقلية لمعاني الكلم، و مبينة أن نظم الكلم هو توخي معاني النحو لذا لا يصح الفصل –بين النحو و البلاغة على أن النحو، يختص بصحة العبارة، في ذاتها بصرف النظر على صلتها بالقراء و السامعين- و تختص البلاغة بعرض الأفكار و المعلومات عرضًا ملائمًا للمخاطبين"[16] ص48.

وخلاصة القول أن النظم عندعبدالقاهرالجرجاني هو توخي معاني النحوفيما بين الكلم المجسد في مبدأربط النحوبالبلاغة.

2 .2. 3.3. تطبيق نظرية النظم عند الجرجاني: لقد طبَّق "الجرجاني" هذا المبدأ على نصوص عديدة لإثبات مفهومه للنَّظم، يقول محمد زكي العشماوي:"و لم يقف عبد القاهر ....عند حدود الجدل النظري، بل لقد تعدى المناقشة النظرية إلى المجال التطبيقي العلمي، و ذلك لكي يضع أمامك الشاهد من الشعر و النثر أو من القرآن الكريم، و لكي يكشف لك من خلال تحليله و النظر إليه عن الحقيقة التي يحاول إقناعك بها"[95] ص322. فإذا أردنا عرض تحليل الجرجاني للأمثلة لوجدناه يعرض القاعدة ثم يُطبقها على أمثلة من الكلام العادي أو الكلام الفني (الأدب)، أو القرآن الكريم، مثلاً في بيانه للفرق بين الخبر إذا كان بالاسم، و إذا كان بالفعل يقول: "و بيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن تَقْضيَ تَجدُّدَه شيئًا بعد شيء.و أما الفعل فموضوعه على أنَّه يقتضي تجدُّدَ المعنى المثبتِ به شَيئًا بعد شيء"[35] ص174 ثم يعرض الأمثلة التي تُدعِّم هذا الفرق فيقول: "فانظر إلى قوله تعالى :(*و كَلبُهُم بَاسط ذِرَاعَيْهِ بِالوَصيدِ*) [1] الكهف/الآية18، فإن أحدً لا يشك في امتناع الفعل ههنا، و أن قولنا:"كلبهم يبسُطُ ذراعيه" لا يؤدي الغرض. و ليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضي مزاولة و تجدُّدَ الصفة في الوقت، و يقتضي الاسم ثُبوت الصفة و حصولَها من غير أن تكون هناك مُزاولةٌ و تزجيةُ فعلٍ، و معنًى يَحدُث شيئًا فشيئًا"[35] ص175.

فإذا أردنا البحث عن تطبيقه لمبدأ ربط النحو بالبلاغة، فعلينا الرجوع إلى بداية الفصل الذي سماه "القول على فروق في الخبر" فنجده يعرض مفاهيم نحوية إذ يقول:"أوّل ما ينبغي أن يُعلّم منه أنَّه ينقسم إلى خبرٍ هو جزءٌ من الجملةِ لا تتمُّ الفائدةُ دونه و خبرٍ ليس بجزء من الجملة،ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له.فالأول خبر المبتدأ، كمنطلقٍ في قولك:"زيد منطلق"، و الفعلُ كقولك:"خرج زيد"، فكل واحدٍ من هذين

جزءٌ من الجملة، و هو الأصل في الفائدة و الثاني هو الحال"[35] ص173 ثم يربط هذا المفهوم بعلم البلاغة فيقول:"و إذا قد عرفتَ هذا الفرقَ، فالذي يليه من فُروق الخبر، هو الفرق بين الإثبات إذا كان بالاسم، و بينه إذا كان بالفعل.

و هو فرق لطيف تَمَسُّ الحاجة في علم البلاغة إليه"[35] ص174. و هذا التحليل يُجلي نظرة "عبد القاهرالجرجاني" لربط النحو بالبلاغة لتأدية الوظيفة الإبلاغية للغة.

فإذا انتقلنا إلى أمثلته من الشعر نجده مثلاً يَعيب على الناس نسبهم المزية و الشرف لمجرد الاستعارة، بل ينسب ذلك للنَّظم و التأليف فيقول:"و أنا أكتب لك شيئًا مما سبيلُ "الاستعارة" فيه هذا السبيلُ، ليستحكم هذا الباب في نفسك، و لتأنس به. فمن عجيب ذلك قول بعض الأعراب:

اللَّيلُ دَاجٍ كَنَفَا جِلْبَا بِهِ و البَيْنُ محجورٌ على غُرَابِهِ

و ليس كُلُّ ما ترى من الملاحة لأن جعل لِلَّيل جلبابا، و حَجَر على الغراب، و لكن في أن وَضَع الكلام الذي ترى، فجعل "الليل" مبتدأ، و جعل "داج" خبرًا و فعلاً لما بعده و هو "الكَنَفَان" و أضاف "الجلباب" إلى ضمير "الليل"، و لأن جعل كذلك "البين مبتدأ، و أجرى محجورًا خبرًا عنه، و أن أخرج اللفظ على مفعول، يبيِّنُ ذلك أنك لو قلت:"و غراب البين محجور عليه، أو قد حُجِر على غراب البين" لم تجد له هذه الملاحة.و كذلك لو قلت:"قد دجا كنفا جلباب الليل"، لم يكن شيئًا"[35] ص102،103.

نلاحظ أن "عبد القاهر" يُرجع المزية إلى النظم حيث يطرح ثلاثة تراكيب و هي :

غراب البين محجور عليه

قد حُجِر على غراب البين

قد دجا كنفا جلباب الليل

و يجد الملاحة و الأريحية فيما اختاره الشاعر في دائرة الحدود التي حدّها النحو و إلى اهتداء الناظم إلى الأولى و الأفضل و ما يلائِم المقام من معاني النحو "و معاني النحو عند عبد القاهر درجتان: درجة تجري فيها هذه المعاني في حدود الصحة المقررة في علم النحو بالمعنى الشائع، و درجة تجري فيها هذه المعاني في ميدان التخيُر، و بعبارة أخرى في ميدان النحو البلاغي الذي فتحه عبد القاهر و الذي تضمنته نظريته في النَّظم"[96] ص63.

أما عن أمثلة "الجرجاني" من الكلام العادي فاسمعه يقول:"فمن ذلك ما يقوله الناس قاطبةً من أن العاقل يُرتِّب في نفسه ما يُريد أن يتكلَّم به. و إذا رجعنا إلى أنفسنا لم نجد لذلك معنى سوى أنه يقصد إلى قولك (ضرب) فيجعله خبرًا عن (زيد) و يجعلُ (الضرب) الذي أخبرَ بوقوعه منه واقعًا على (عمرو) و يجعل (يوم الجمعة) زمانَه الذي وقع فيه، و يجعلُ (التأديبَ) غرضَه الذي فعل (الضرب) من أجله، فيقول (ضرب زَيدٌ عمرًا يومَ الجمعة تأديبًا له). و هذا كما ترى توخِّي معاني النحو فيما بين معاني هذه الكلم"[35] ص405.

و مجمل القول أن عبد القاهر الجرجاني أثناء بحثه في مسألة الإعجاز، أكَّد أن الإعجاز يكون في النَّظْم، و نبَّه عرضًا في هذه النظرية لأشياء عديدة تدخل في ميدان اللسانيات –بالمفهوم الحديث- مما جعلنا نعتقد أن هذه النظرية لعلها لم تأخذ حقها من الدراسة اللغوية و لو حصل ذلك لاكتشفنا ربما نظرية شاملة

لها مبادئها و أسسها، يقول عبد القادر المهيري:"إلا أن الجرجاني لم يورد هذه الملاحظات أساسًا لنظرية شاملة للغة فقد جاءت عرضًا، و لمُ تحلل التحليل اللائق بها"[87] ص103.

لكن نحن مطالبون بالبحث عن أسس هذه النظرية منطلقين من مُسَلّمة أن واضع اللغة حكيم، فربط "عبد القاهر" بين قواعد النحو العربي و استعمالات اللغة في قالب علمي، مع تطبيقه على عدة أمثلة، يدلُ على أن الفكر العربي قادر على اكتشاف نظرية لغوية كامنة في تراثه، تنتظر أن تمتد إليها أيدي الباحثين يقول ممدوح عبد الرحمن:" و إذا كان الفكر العربي و كذا العقلية العربية قد اتهما بالبعد عن النظرية الشاملة و القدرة على التنظير فإن في قواعد النحو العربي و قدرتها على تفسير الاستعمالات العادية و الفنية و تقديم المسوغات لغير المألوف في الاستعمالات نظرية شاملة لا تستوعب نصًا واحدً أو عملاً كاملاً فحسب بل تستوعب تراثًا ضخمًا تعجز أمامه العديد من النظريات الحديثة مجتمعة في أن تستوعب هذا التراث و تضع له الضوابط اللازمة"[97] ص58.

و إذا كان عبد القاهر الجرجاني قد طبَّق هذه النظرية على الشعر و النثر و القرآن الكريم؛ يقول سعد سليمان حمودة:"بعد أن يعرض عبد القاهر لمفهوم النَّظم يأخذ في شرح النصوص الأدبية (شعرًا و نثرًا وقرآنًا) شرحًا يعتمد فيه على المعاني المستفادة من النحو بالإضافة إلى ذوقه الرفيع و قدرته الفائقة على تحليل النصوص و الكشف عن مراميها وأغراضها في دقةٍ و براعة"[98] ص165و ها نحن نريد تطبيق مبدأ الربط بين النحو و البلاغة على مدونة لغوية لعله لم يطبق عليها بعد، و نقصد بها مدونة الحديث النبوي الشريف المتواترلفظًا و معنى. فما سبب اختيارنا لهذه المدونة؟

3. 2 . مفاهيم حول الحديث النبوي الشريف

من المعلوم أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامي، و أن السنة النبوية الشريفة هي مصدر التشريع الثاني؛ حيث جاءت العبادات و الأوامر بصورة إجمالية في القرآن الكريم كقوله تعالى: (*و أقيمُوا الصَّلاة و آتُوا الزكاة و أطيعُوا الرسول لعلكم تُرحمون*) [1]النور/الآية54. فكان من الطبيعي أن تأتي السنة النبوية مفصِّلة لذلك. يقول شريف صلاح الدين :" من هنا تتبين أهمية السنُّة، حيث أنها تشرح مقصود الآيات القرآنية بطريقة قولية و فعلية، فهي تشرح بالتفصيل الجانب العلمي في الشريعة الإسلامية فمن المستحيل أن نفهم القرآن الكريم أو نطّبق الشرع الحكيم بمعزل عن السُّنة"[99] ص6.

و من إشارات القرآن الكريم الدالة على مصدرية التشريع في السنة النبوية قوله تعالى:(*من يطع الرسول فقد أطاع الله*) [1]النساء/الآية79. و قوله أيضا:(*و ما كان لمومن و لا مومنة إذا قضى الله و رسوله أمرًا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم*) [1]الأحزاب/الآية36. و قد أمر الله عز وجل المؤمنين إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله و رسوله –صلى الله عليه و سلم- فقد فقال تعالى :(*يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أُولي الأمر مِنكم فإن تنازعتم في شيء فرُدُوه إلى الله و الرسول*) [1] النساء/الآية58.

و الآيات كثيرة في هذا الشأن كلها تدل على أهمية السنُّة النبوية المطهرة باعتبارها المصدر الثاني للتشريع. و لهذه المكانة، و لقلة الدراسات اللغوية حول الحديث النبوي الشريف كان اختيار هذا البحث، و قبل المباشرة في الموضوع كان لازمًا طرح التساؤل التالي:

ما هي السنة النبوية؟

2 .3 .1 . تعريف السنة والحديث

2 .3 .1 .1 . تعريف السنة لغة واصطلاحا

2 .3 .1 .1 .1 . السنة لغة

هو مصطلح مشتق من "سَنَّ"؛ و هو كل من ابتدأ أمرًا عَمِل به من بعده، جاء في المعجم الوسيط:"سنَّ السكين و نحوه سنًا: أحدَّه... و – الحَجَرَ و نحوه؛ صقله... و–الطريق مهَّده. و – الأمر: بيَّنه. و – الله سنة: بيَّن طريقًا قويمًا... و كل من ابتدأ أمرًا عمل به من بعده؛ فهو الذي سنه"[100] ج1أما مصطلح "سَّنة" فهي الطريقة المتبعة حميدة كانت أو ذميمة؛ و يعرفها محمد الدسوقي بقوله:"تطلق السنة لغة على الطريقة والسيرة محمودة كانت أومذمومة" [101] ص229. و من هنا نفهم حديث رسول الله – صلى الله عليه و سلم: " من سنَّ في الإسلام سنة حسنة،فعمل بها بعده،كتب له مثل أجرمن عمل بها،لاينقص من أجورهم شيئ ، و من سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده،كتب عليه مثل وزرمن عمِل بها ولاينقص من أوزارهم شيئا"[102] ج16،ص442.
و خلاصة القول أن السنَّة لغة: هي الطريقة المتبعة حسنة كانت أم سيئة. و قد أُخذ هذا المفهوم لاستعماله في الميدان الشرعي.

2 .3 .1 .1 .2 . السنة اصطلاحًا

إن معنى السنة يختلف في اصطلاح المشترعين حسب اختلاف اختصاصاتهم وأغراضهم،فهي عند المحدثين غيرها عند الأصولين والفقهاء،ونعني بالسنة في دراستنا هذه ماأورده المحدّثون حيث يعرفها محمد عجاج الخطيب بمايلي:"السنة كل ما أثر عن الرسول – صلى الله عليه و سلم- من قول أو فعل أو تقرير أو سيرة... سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها، و سواء أثبت ذلك حكمًا شرعيًا أم لا"[103] ص19.

أما القول فهو أحاديثه صلى الله عليه و سلم التي قالها في مختلف المناسبات كقوله :"إنما الأعمال بالنيات، و إنما لكل امرئ ما نوى"[37] ص9.

و أما الفعل، فكل ما قام به الرسول صلى الله عليه و سلم من أفعال نقلها لنا الصحابة مثل وضوئه، و صلاته، و أدائه مناسك الحج و ما إلى ذلك.

و في التقرير يقول طالب عبد الرحمن:"كل ما أقره الرسول صلى الله عليه و سلم، مما صدر عن بعض أصحابه من أقوال و أفعال، بسكوت منه و عدم إنكار، أو بموافقه و إظهار استحسانه و تأييده"[104] ص13.

و منه إقراره لطريقة "معاذ بن جبل" في القضاء حينما بعثه إلى اليمن، حيث ينقل إلينا "أبو داود" في سننه أن الرسول صلى الله عليه و سلم قال له: كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسُّنة رسول الله صلى الله عليه و سلم، قال: فإن لم تجد في سُّنة رسول الله

صلى الله عليه و سلم و لا في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي و لا آلو. فضرب رسول الله صلى الله عليه و سلم صدره و قال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسول الله لما يرضي رسول الله"[105] ص412.

و مجمل القول أن السُّنة اصطلاحًا تتعلق بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته، و ما نقله عنه الصحابة - رضوان الله عليهم- بعد وفاته، مما يوجب اتباعه و الاقتداء به.

لكن هناك مصطلح آخر يراه بعض علماء الحديث مرادفًا للسُّنة، و هو مصطلح "الحديث"، فما معنى الحديث؟

2. 3. 1. 2 . تعريف الحديث لغة واصطلاحا

2. 3. 1. 2. 1 . الحديث لغة:

للحديث معنيان لغويان: أولهما الجديد، و ثانيهما كل كلام يتكلم به الناس.يقول العلامة ابن منظور في لسان العرب:" الحديث نقيض القديم... و لا يقال حَدُث بالضم إلا مع قدُم... و الحديث ما يُحدِّث تحديثًا"[11] و منه فهو يقع بين أطراف كثيرة من الناس بغرض التواصل، يُعرفه قدامه بن جعفر بقوله: " و أما الحديث فهو ما يجري بين الناس في مخاطباتهم و مناقلاتهم و له وجوه كثيرة، منها:الجد و الهزل و السخيف و الجزل، والحسن والقبيح والملحون والفصيح والخطأ والصواب والصدق و الكذب ، و النافع و الضار، و الحق و الباطل، و الناقص و التام و المردود و المقبول، و المهم و الفضول و البليغ و العيي"[105]ص137. و عليه فالحديث يستوجب جماعة يتجاذبون أطراف الكلام، و قد فرَّق الأستاذ أحمد سعدي بين الحديث و الكلام بقوله:"يعتبر الكلام نشاطًا لغويًا فرديًا أما الحديث فهو نشاط لغوي يجمع بين أكثر من فرد يتجاذبون أطراف الكلام بينهم فيسمى... حديثًا و يشترط فيه التواصل و التقارب"[106] ص11 و لعل الأستاذ توصل إلى هذا الفرق من متابعته لآيات الذكر الحكيم؛ حيث نجد مصطلح "الحديث" يتردد كثيرًا في القرآن الكريم بمعنى اشتراك السامع أو إشراكه في الكلام، أما الكلام فهو الاختصاص بالقول، كقوله تعالى: (*و إن تُصبهُم سَيِّئَة يقُولُوا هَذه من عندِك قُل كلٌ من عِند الله فَمالِ هؤلاء القوم لا يكَادُون يَفقهُون حديثا*) [1]النساء/الآية77. و قوله تعالى:(*و قد نُزِّل عليكم في الكتَابِ أن إذا سَمِعتُم آيات اللّه يُكفَر بهَا و يُستَهزأ به فلا تقعدوا مَعَهُم حَتَّى يَخُوضُوا في حَديثٍ غيره*) [1]النساء/الآية139 و قوله تعالى: (*يَا أيها الذين آمنوا لا تَدخُلُوا بُيوت النبي إلاَّ أن يُوذَنَ لكُم إلى طعَامٍ غَير نَاظِرين إناهُ و لكن إذا دُعيتُم فادخُلُوا فإذا طَعمتُم فانتشِرُوا و لا مُستَانِسين لحديث*) [1]الأحزاب/الآية53

و عليه نلاحظ في الآيات أن كلمة "حديث" هي ذلك النشاط اللساني الجماعي الذي يشترط فيه التقارب و الاشتراك. و قد نقل إلينا "ابن منظور" ورود هذه الكلمة في حديث للرسول الله صلى الله عليه و سلم إذ يقول:" و في الحديث: يبعثُ الله السحاب فيضحك أحسن الضحك و يتحدث أحسن الحديث، قال ابن الأثير: جاء في الخبر أن حديثه الرعّد، و ضحِكه البرق، و شبهَّه بالحديث لأنه يُخبر عن المطر و قُرب مجيئه فصار كالمحدِّث به"[11].

و خلاصة القول أن المعنى اللغوي الذي نأخذ به، لكلمة "حديث" هو الإخبار و التخاطب بين متكلم و سامع.

2. 2. 1. 3. 2 . الحديث اصطلاحًا

يقول محمود الطحَّان:"الحديث ما أُضيف إلى النبي صلى الله عليه و سلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفه"[107] ص13 و بهذا التعريف نلاحظ الشبه الكبير بين السَّنة و الحديث في رأيه و لكن لا نُقِّر بالترادف بين المصطلحين؛ فالسُّنة دليلها الحديث.

3. 1. 3. 2 . بين السُّنة و الحديث

إذا كانت السنة النبوية ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أوتقرير فهي أيضا العمل المتبع في الصدر الأول الذي لابد من الاقتداء به، و ما يُبين ذلك "قول (علي بن أبي طالب) لعبد الله بن جعفر عندما جلد شارب الخمر أربعين جلدة: كُفَّ. جَلد رسول الله صلى الله عليه و سلم أربعين و أبوبكر أربعين، و كملها عمر ثمانين و كل سُّنة"[108] ص48. أما الحديث النبوي الشريف فهو دليل السُّنة وليس مرادفا لها لأن "بعض الأحاديث ليس فيها سُّنة كأحاديث الجنة و النار أو حديث الشفاعة أو أحاديث صفاته الخلقية أو إطراء الصحابة مما ليس فيه مجال للعمل و الاقتداء و الاستنان"[106] ص18. و الخلاصة أن الحديث النبوي الشريف في المعنى الاصطلاحي- كما أجمع علماء الحديث- هو ما نُسب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة. أما السنَّة فهي "ما سلكه رسول الله أو غيره ممن هو علَم في الدين كالصاحبة رضي الله عنهم"[109] ص497، عملاً بقوله عليه السلام:"فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسُنتي و سُّنة الخُلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجِذِ"[110] ص469.

وهناك مصطلحات أخرى تمتُ بصلة لمصطلح "حديث" منها، الأثر و الخبر؛ و لن ندخل في بيانها لكي لا ننحرف عن مسار بحثنا في دراسة حديث رسول الله صلى الله عليه و سلم، الذي لقِيَ من العناية ما لم يلق حديث أحد من البشر، حِفظًا و رواية و دراسة؛ ذلك لأنه حديث سيد الخلق، و باعتباره تفسيرا للقرآن الكريم، و بيان لمراد الله عز و جل منه، و قد كان بعض هذا التفسير قوليًا متعلقًا بأحكام الدين و تشريعاته، كما كان بعضه عمليا، فقد علَّمنا النبي صلى الله عليه و سلم الصلاة عمليا فقال :"صلوا كما رأيتموني أصلي"[37] ص1446. و علَّمنا مناسك الحج أيضا. و قد كان من ثمرة العناية بالحديث النبوي أن وجدت بين أيدينا كتب في الحديث النبوي و كُتب في علوم الحديث.

4. 1. 3. 2 . كُتب الحديث النبوي الشريف

و هي كُتب تضم نصوص الحديث الشريف، و لعل أول كتاب: وصل إلينا كاملاً هو المُوطأ للإمام مالك يقول يوسف خليف :"يعد كتاب الموطأ الذي جمعهُ الإمام مالك أول كتاب من كتب الحديث وصل إلينا كاملاً"[111] ص169. و قد مرَّ تدوين الحديث النبوي بثلاث مراحل:

- تمثل الخطوة الأولى؛ تدوين الحديث على أساس تبويبه و تصنيفه وفق موضوعات الفقه، يقول يوسف خليف في ذلك :"و هي الطريقة التي يمثلها (موطأ مالك)...هو في حقيقة أمره كتاب حديث وفقه"[111] ص177.
- أما الخطوة الثانية، فيمكن تسميتها بالتأليف على المسانيد، و المسانيد جمع مُسنَد يعرفه محمود الطحّان بقوله: "كل كتاب جُمع فيه مرويات كل صحابي على حدة"[107] ص14. و الكتاب الذي يمثل ذلك هو مسند الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي، يقول طالب عبد الرحمن في بيان هذه الطريقة في التأليف:"رتب الإمام كتابه على مسانيد الصحابة ،أي روى فيه أحاديث كل صحابي على حدة، بغض النظر عن موضوع الحديث، فالجامع بين كل مجموعة من الأحاديث هو الصحابي الذي رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم"[104] ص90.

- أما الخطوة الثالثة فهي التي ظهر فيها كتاب الصحاح و يراه الأستاذ (يوسف خليف) بأنها قمة ما وصل إليه تدوين الحديث النبوي الشريف إذ يقول:"ظهرت خطوة ثالثة تمثل القمة التي وصل إليها تدوين الحديث، و هي قمة وقف بعدها هذا العلم و لم يجد أحد من العلماء مايضيفه إليه.وهذه الخطوة هي التي تمثلها كتب الصحاح الستة التي ألفها أصحابها على أساس قبول الأحاديث الصحيحة وحدها"[111] ص181و هذه الكتب الستة هي :

1- صحيح البخاري.
2- صحيح مسلم.
3- سنن ابن ماجة.
4- سنن أبي داود.
5- جامع الترمذي.
6- سنن النسائي.

أما كتب علوم الحديث فإنها تضم ثمرة جهود العلماء في تمييز ما صح من الأحاديث مما لم يصح. من هذه العلوم ما اهتم بالسند؛و السند "حكاية رجال الحديث الذين رووه واحدًا عن واحد إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم"[112]ج1،ص89. و من العلوم ما اهتم بالمتن؛ و المتن في الاصطلاح:" ما ينتهي إليه السَّند من الكلام"[113]ص29. و لسنا هنا بصدد نقل كل ما تحتويه كتب علوم الحديث؛ التي اهتمت بأقسام الحديث الشريف و لكن نودُ التعرض لقسم واحد و هو "الحديث المتواتر" الذي سنُقيم عليه دراسة تطبيقية لهذا البحث. فما هو الحديث المتواتر؟

2. 3. 2 .الحديث المتواتر

1. 2. 3. 2 . تعريف الحديث المتواتر

لغةً: التواتر هو التتابع يقال: "تواترت الخيل إذا جاءت يتبع بعضها بعضًا، و منه جاؤا تترى أي متتابعين، وترًا بعد وتر"[10] ج2.

أما اصطلاحًا فقد اتفق علماء الحديث على أن الحديث المتواتر هو:"ما رواه عدد كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب". و لعل التعريف الأدق له هو ما يضم شروطه "فهو ما رواه جماعة غير محصورة بعدد في كل طبقة من طبقاته تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، و يكون مستندهم الحس"[114] ص48 و معنى "تُحيل العادة تواطؤهم على الكذب" أي أن هذا الحديث يرويه في كل طبقة من طبقات سنده رواة كثيرون يحكم العقل عادة باستحالة أن يكون أولئك الرواة قد اتفقوا على اختلاق هذا الخبر. و عليه فإن شروط تواتر الحديث النبوي الشريف هي:

1- أن يروي الحديث عدد كثير من الرواة في جيل واحد و هو ما يسمى بالطبقة.
2- أن توجد هذه الكثرة في جميع طبقات السند.
3- أن لا يحتمل العقل تواطؤهم على الكذب. يقول شريف صلاح الدين:"و ذلك مثلاً لاختلاف الأقطار، و الظروف، و أيضا للصفات الشخصية لهم و الدوافع، و غير ذلك مما يجعل من الصعب جدًا أن تُتاح لهم فرصة الاتفاق"[99] ص30.

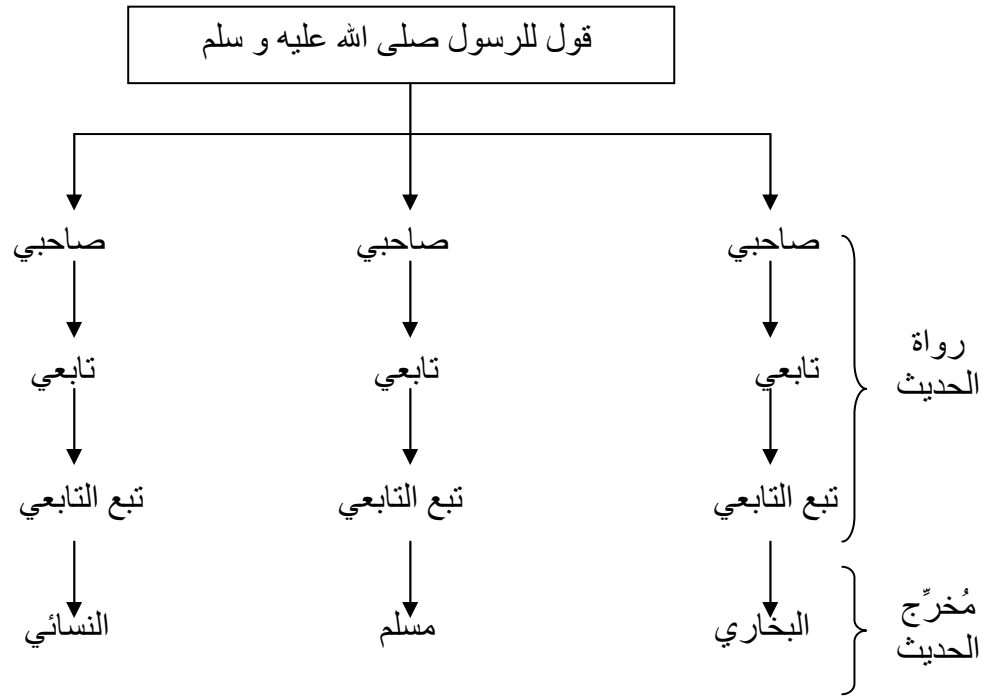

شكل رقم 10:شكل توضيحي للحديث المتواتر.

4-أن يكون إدراكهم للخبر عن طريق الحس لا العقل، و هو أن يقول الرواة في آخر الإسناد "رأينا أو سمعنا"، مما لا يحتمل التخمين أو الظن. يقول "محمد بن جعفر الكتاني":"و قوله عن محسوس أي أمر يدرك بالحس أي بإحدى الحواس الخمس الظاهرة كسمع أو بصر"[115] ص13.

2 .3 .2 .2 . أقسام الحديث المتواتر

و ينقسم المتواتر إلى قسمين هما:

1- المتواتر اللفظي و هو تتابع رواية نفس الحديث بلفظه يقول نصر سلمان عنه:"هو ما تواتر لفظه و معناه مثل حديث (من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"[116] ص61.

2-المتواتر المعنوي:هو ما تواتر معناه دون لفظه و يعرفه شريف صلاح الدين بقوله: " و في هذا النوع قد تأتي الأحاديث في مناسبات مختلفة، و تدل على أحكام متفاوتة، و مع ذلك نجد أن بينها معلومات مشتركة فُهمَت من السياق و هذه المعلومة – أو هذا المشترك- في هذه الأحاديث يكون متواترًا"[99] ص35 و ينقل لنا جلال الدين السيوطي-رحمه الله- في كتابه "تدريب الراوي" مثالاً عن هذا القِسم فيقول:"و منه ما تواتر معناه: كأحاديث رفع اليدين في الدعاء، فقد ورد عنه صلى الله عليه و سلم نحو مائة حديث فيه رفع يديه في الدعاء، و قد جمعتها في جزء لكنها من قضايا مختلفة، فكل قضية منها لم تتواتر و القدر المشترك فيها هو الرفع عند الدعاء تواتر باعتبار المجموع" [117] ص371. و الذي يهم بحثنا هو الحديث المتواتر لفظًا و معنى؛ الذي خصَّه جماعة من الأئمة بالجمع و التصنيف، و قد اعتمد هؤلاء الأئمة في تصنيفهم لهذه الكتب على كتب السُّنة، و أفردوها في مصنفات خاصة؛ ليَسهُل على الباحث الرجوع إليها و أشهر هذه المصنفات:

1-"الفوائد المتكاثرة في الأخبار المتواترة" للحافظ جلال الدين السيوطي، و قد اختصره في كتاب "الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة"، كما أنه لخَّص هذا الأخير في كتاب آخر سماه "قطف الأزهار".

2-"اللآلئ المتناثرة في الأحاديث المتواترة" للحافظ شمس الدين بن طولون الحنفي الدمشقي.
3-"لقط اللآلئ المتناثر في الأحاديث المتواترة" للشيخ أبي الفيض محمد مرتضى الحسيني الزبيدي المصري؛ و قد لخَّص فيه كتاب ابن طولون السابق.
4-"نظم المتناثرة من الحديث المتواتر" لمحمد بن جعفر الكتاني.
5-"الحرز المكنون من لفظ المعصوم المأمون" لصديق حسن القنوجي و ذكر فيه أربعين حديثًا متواترًا.
6-"الأحاديث المتواترة" للسيد محمد بن نسيب المشهور بابن حمزة مُفتي دمشق.
7-"إتحاف ذوي الفضائل المشتهرة بما وقع من الزيادة في نظم المتناثر على الأزهار المتناثرة" لعبد العزيز بن محمد بن الصديق الغماري[118] ص241.

2 .3 .2 .3 . وجود المتواتر

لقد اختلفت آراء العلماء في وجود الحديث المتواتر في السنة النبوية و نجمل هذه الآراء فيما يلي:
1- ذهب "ابن حبان و الحازمي" و آخرون إلى عدم وجود المتواتر في الحديث.
2- يرى "ابن الصلاح" ندرة وجوده إذ يقول بعد ذكر تعريفه: "إن أمثال المتواتر على التفسير المتقدم يعز وجوده، و من سئل عن مثال لذلك أعياه طلبه إلا أن يدعي ذلك في حديث:"من كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"[119] ص227.
3- يرى "ابن حجرالعسقلاني" و "جلال الدين السيوطي" بكثرة وجوده في السَّنة، وردَّ "ابن حجر" في "شرح النخبة" على ابن الصلاح و على ابن حبان و الحازمي بقوله:"وما ادعاه –يعني ابن الصلاح- من العزة ممنوع، و كذا ما ادعاه غيره من العدم ، لأن ذلك نشأ عن قلة الاطلاع على كثرة الطرق ،و أحوال الرجال ،و صفاتهم المقتضية لإبعاد العادة أن يتواطؤوا على الكذب، أو يحصل منهم اتفاق. و من أحسن ما يقرر به كون المتواتر موجودًا وجود كثرة
في الأحاديث: أن الكتب المشهورة المتداولة بأيدي أهل العلم شرقًا و غربًا المقطوع عندهم بصحة نسبتها إلى مصنفيها إذا اجتمعت على إخراج حديث، و تعددت طرقه تعددًا تحيل العادة تواطؤهم على الكذب..... إلى آخر الشروط أفاد العلم اليقيني بصحته إلى قائلة، و مثل ذلك في و للتوفيق بين هذه الآراء؛ نرى أن المانعين لوجود الحديث المتواتر إنما منعوا التواتر اللفظي، لأنه لا يكون إلا إذا تواتر كالقرآن الكريم في لفظه و أسلوبه، و هذا غير موجود في الحديث عندهم.

أما القائلون بوجوده إنما يقصدون الأحاديث المتحدة في معنى و لا يضر اختلاف الألفاظ و الأساليب، أما المتواتر المعنوي فموجود بكثرة.
و خلاصة القول إن الحديث المتواتر موجود بنوعية – اللفظي و المعنوي- إلاَّ أن المتواتر المعنوي أكثر من اللفظي؛ يقول محمد بن جعفر الكتاني:"إن الذي له أمثلة كثيرة هوالمتواتر تواترًا معنويًا وأما المتواتر اللفظي فلا"[115] ص24. لذلك فإن الحديث المتواترموجود في السنة بكثرة و هو المتواتر المعنوي بإجماع العلماء، لكن من رأى عدم وجوده أو ندرته لعلهم يقصدون المتواتر اللفظي، يقول الكتاني:"و بالجملة فالمتواتر من الحديث كثير جدًا إلا أن أغلبه تواتره معنوي و أكثر الأمور المعلومة من الدين ضرورة متواترة المعنى و مراد العلماء حصر اللفظي لأن الثاني لا يكاد ينحصر"[115] ص24
و مرادنا أيضا حصر الحديث النبوي المتواتر لفَظا و معنى لإقامة دراستنا عليه.

2 .3 .2 .4 . حصر لبعض الأحاديث المتواترة في كتب علماء الحديث

لم يختلف علماء الحديث كثيرًا في حصر بعض الأحاديث المتواترة و لكن لم يفرقوا بين اللفظي و المعنوي منها، و هاهي آراؤهم نذكرها لكي نأخذ في الأخير بمجموعة من الأحاديث نسلط عليها ضوء الدراسة و التحليل.يقول الكتاني:"قال ابن الصلاح إلا أن يدعى ذلك في حديث(من كذب علي الخ)فإنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من ستين نفسا من الصحابة منهم العشرة. و ليس في الدنيا أجمع على روايته العشرة غيره و تعقب عليه الحافظ أبو الفضل العراقي بحديث مسح الخف فقد رواه أكثر من ستين صحابيًا و منهم العشرة، و حديث رفع اليدين في الصلاة فقد رواه نحو خمسين منهم و منهم العشرة أيضًا"[115] ص24.

2- قال السيوطي في "تدريب الراوي":"منها حديث الحوض من رواية نيف و خمسين صحابيًا، و حديث المسح على الخُفين من رواية سبعين صحابيًا، و حديث رفع اليدين في الصلاة من رواية نحو خمسين، و حديث (نضر الله امرءًا سمع مقالتي) من رواية نحو ثلاثين، و حديث (نزل القرآن على سبعة حروف) من رواية سبع و عشرين، و حديث (من بنى مسجدًا بنى الله له بيتا في الجنة) من رواية عشرين و كذا حديث (كل مسكر حرام). و حديث (بدأ الإسلام غريبًا)، و حديث سؤال منكر ونكير. و حديث (كل ميسر لما خلق له). و حديث (المرء مع من أحب)، و حديث (إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة). و حديث (بَشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة). كلها متواترة في أحاديث جمَّة أودعناها كتابنا المذكور (يقصد الأزهار المتناثرة) و لله الحمد"[117] ص162.

3- و في "فتح الباري" يقول العسقلاني :"بينت أن أمثلة كثيرة (يقصد المتواتر) منها حديث "(من بنى لله مسجدًا) و المسح على الخفين و رفع اليدين و الشفاعة و الحوض و رؤية الله في الآخرة و الأئمة من قريش و غير ذلك".

5- قال الحافظ العراقي في ألفيته: [120] ص312

قنوته بعد الركوع شهرا	و منـه دُو تـواتُر مُستـَقرًا
في طبقاته كمتن "من كذب"	ففوق سِتين رَوَوْهُ و العَجَبْ
بأن من رواته العشره	و خَصَّ بالأمرين فيـمَا ذَكَرَهْ
الشيخ عن بعضهم قلت:بلى	مسح الخفاف وابن فيما ذكره
عشرتهم رفع اليدين نسبا	ونيفوا عن مائة "من كذبا"

نقول أن علماء الحديث من خلال هذا العرض، لم يفصلوا بين المتواتر اللفظي و المتواتر المعنوي؛ و لكن بمقارنة هذه الآراء و النظر إلى تخريج هذه الأحاديث في كتب السنة يجعلنا نستنتج أن الأحاديث المتواترة لفظا ومعنى والتي تخص أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرة نختار منها مايلي:

1- حديث "من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار" فقد أجمع العلماء على تواتره.

2- و حديث "كل مسكر حرام".

3- و حديث "المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده" وهي الأحاديث المتواترة لفظا و معنى التي سنسلط عليها ضوء الدراسة في القسم التطبيقي من هذا البحث.

و عليه، إذا كان التواترهو تتابع رواية الحديث جيلاً عن جيل حتى وصل إلينا، فهذا يعني أن الخبر صحيح قطعًا، و هذا ما دفعنا إلى اختيار الحديث المتواتر لفظًا و معنى لكي نتناوله بالدراسة يقول ابن حجر العسقلاني: "فالأول المتواتر و هو المفيد للعلم اليقيني .... و المتواتر لا يبحث عن رجاله، بل يجب العمل به من غير بحث"(121)ص37.

ومنه فهو يفيد العلم الضروري أي اليقيني الذي يضطر الإنسان إلى تصديقه. من أجل ذلك اتخذنا من الحديث المتواتر لفظًا و معنى مطية لهذا البحث و اخترنا من هذه المدونة بعض الأحاديث القولية المتفق عليها في الصحاح، لأنها من كلام النبي صلى الله عليه و سلم و أخرجناها برواية البخاري من جامعه الصحيح الذي يُعتبر أصح كتاب بعد كتاب الله عز و جل. يقول يوسف خليف:"و صحيح البخاري أدق من صحيح مسلم، و أحاديثه في درجة من التوثيق أعلى من أحاديث مسلم، و لهذا يرى العلماء أن صحيح البخاري هو أصح كتاب في الإسلام بعد القرآن الكريم"(111)ص182. لذلك اتخذنا من الجامع المسند الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، مادة لهذه الدراسة لإجماع العلماء على أنه أصح ما روِّي عن رسول صلى الله عليه و سلم.يقول ابن حجر العسقلاني :"ما انتقد على البخاري من الأحاديث أقل عددا مما انتقد على مسلم،وهذا مع اتفاق العلماء على أن البخاري كان أجل من مسلم في العلوم،وأعرف بصناعة الحديث منه،وأن مسلما تلميذه وخريجه،ولم يزل يستفيد منه، ويتتبع ثاره حتى قال الدارقطني: لولا البخاري لما راح مسلم ولاجاء، ومن ثَمَّ....قُدِم صحيح البخاري على غيره من الكتب المصنفة في الحديث"(121)ص60. و قصرنا الدراسة على الأحاديث النبوية الشريفة المتواترة لفظًا و معنى التي قالها الرسول صلى الله عليه و سلم، دون الأحاديث التي تندرج تحت باب الفعل أو باب التقرير.

3.3.2. الدراسات التي تناولت الحديث النبوي الشريف

لقد اهتم العلماء قديمًا و حديثًا بدراسة الحديث النبوي الشريف، و الوقوف على خصائصه، و بيان ما اشتمل عليه من ألوان البلاغة، و جمال الأسلوب. و من أوائل من تناول ذلك الجاحظ في "بيان و التبيين"، و مصطفى صادق الرافعي في "إعجاز القرآن و البلاغة النبوية".

و لكن ما نلاحظه أنهما ينقلان لنا إشارات دالة على بلاغة الرسول صلى الله عليه و سلم في قالب وصفي، و بلغة إنشائية تعكس وقع البيان النبوي على نفوس أصحابها دون عناية موازية بالكشف عن كنهها كقول الجاحظ:"هو الكلام الذي قل عدد حروفه، و كثر عدد معانيه و جل عن الصنعة، و نُزِّه عن التكلف... و استعمل المبسوط في موضع البسط، و المقصور في موضع القصر، و هجر الغريب الوحشي، و رغب عن الهجين السوقي، فلم ينطلق إلا عن ميراث حكمة...."(47)ج2،ص17.

أما الدراسات اللغوية للحديث النبوي الشريف، فتُعدُ على رؤوس الأصابع؛ حيث نجد من درسه دراسة نحوية، و لعل كتاب "إعراب الحديث النبوي" لأبـي البـقـاء الـعـكـبـري. يعد أول كتاب تناول الحديث النبوي من وجهة نحوية، يقول مُحقق الكتاب:"يكاد يكون أول كتاب يصل إلينا و قد إتجه به صاحبه إلى معالجة الحديث النبوي معالجة نحوية"(122)ص06. و سبب وضع الكتاب هو حفظ ألسنة المحدِّثين من اللحن في حديث الرسول صلى الله عليه و سلم، فوقف بذلك صاحبه عند حدود إعرابه دون الكشف عن سِر روعته و تأثير المتلقين به.
كما وجدنا من درس الحديث النبوي دراسة بلاغية، و لعل أشهر هذه المؤلفات "المجازات النبوية" للشريف الرضي، الذي عالج الأحاديث النبوية باستخراج الاستعارات و التشبيهات و الكنايات الواردة فيها، بمفهومها التقليدي، و يصرح بذلك في مقدمة كتابه بقوله:"كتاب يشمل على مجازات الآثار الواردة عن الرسول صلى الله عليه و سلم إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة، و لَمَع البيان الغريبة، و أسرار اللغة اللطيفة"(123). و بذلك وقف أصحاب هذه الدراسات عند حدود القواعد النحوية أو التعبير المزخرف، و انـتـزعـوا الحديث من السياق و النظم و نظروا إليه وحده غافلين عن الفروق الدقيقة التي تكون بين حديث

نبوي و آخر، متناسين أن كان حديث لا يستمد قيمته إلا من النظم، و لا يكتسب فضيلته إلاّ من السياق، بل إن تفسيره و فهم معناه لا يمكن تحقيقه إلا من بعد العلم بالنظم و الوقوف على حقيقته، و اعتمادًا على ذوق لغوي يكشف عن الفروق و الدقائق و الأسرار التي تكون بين استعمال و آخر. و هذا ما سنجعله شغلنا الشاغل في الجزء التطبيقي من هذا البحث.

و لسنا نقلل بذلك من مزية هذه الجهود، و غاية ما في الأمر أننا نودُ تطبيق مبدأ ربط النحو بالبلاغة على الحديث النبوي الشريف المتواتر لفظًا و معنى، لتبيين الوظيفة الإبلاغية للغة النبوية. و ربما لم نجد – حسب ما طالعنا- دراسة تتجه نحو ربط النحو بالبلاغة في تحليل خطاب الحديث النبوي. و منه فهذه الدراسة ستتناول طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة المتواترة لفظًا و معنى محاولة الوقوف على بعض خصائص و أسرار نظمها وهذا لكون الحديث النبوي خطابا له خصوصيته عن غيره من النصوص، حتى لتُعد نصوصه معلمًا لا يصح إهماله و لا تجاوزه لدى الدارسين،كيف لا؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري قال:حدثنا يحي بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:"بعثت بجوامع الكلم"(37)ص624.

الفصل 3
تحليل لبعض الأحاديث

1.3. تحليل حديث "من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"

إن مبدأ ربط النحو بالبلاغة هو ما يهتم بشطري الجملة الشكلي و الوظيفي، و هو ما عكفنا على تبيينه في القسم النظري، و سنعمل من خلال القسم التطبيقي على إسقاط هذا المبدأ على بعض الأحاديث المتواترة لفظًا و معنى، و ما هذه الدراسة التطبيقية إلا لتأكيد القسم النظري و دعمه أو مخالفته. و سنتناول بالتحليل ثلاثة أحاديث كان سبب اختيارها عن غيرها ما يلي :

1- حديث "من كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار" لأن الميزة الغالبة عليه هي أسلوب الشرط، و الشرط يُدرس دائمًا ضمن أبواب النحو فأردنا تبيين كيف أن مبدأ ربط النحو بالبلاغة يدرس الشرط دراسة نحوية بلاغية كاشفًا عن الوظيفة الإبلاغية للغة الحديث النبوي الشريف.

2- حديث "كل مسكر حرام" يتميز بالإيجاز و الإيجاز يُدرس دائمًا ضمن أبواب البلاغة فأردنا تبيين أنه لا غنى للبلاغة عن النحو فهو قاعدة لها و جزء لا يتجزأ منها.

3- حديث "المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده" بيِّنًا فيه معنى النظم الذي لا يكون إلاّ بتوخي معاني النحو فيما بين معاني الكلم، ثم هذا النظم المحكم للحديث راجع إلى مبدأ ربط النحو بالبلاغة.

و موضوعات الأحاديث المختارة تنفع الناس في أمور دينهم و دنياهم، حيث يتكلم الحديث الأول عن الكذب، و ليس مُطلق الكذب بل الكذب عن الرسول صلى الله عليه و سلم و جزاء ذلك. و قبل تحليل الحديث لابد من معرفة رواة الحديث و قول العلماء في تواتره.

1.1.3. رواية الحديث و تواتره:

روى هذا الحديث أئمة الحديث الذين يُشهد لهم بالعلم الغزير، و الورع و خدمة الدين أمثال: البخاري الذي رواه في باب العلم و الجنائز و الأنبياء و الأدب، و مسلم في الزهد. و أبو داود في العلم. و الترمذي في الفتن و العلم و التفسير و المناقب. و ابن ماجة في المقدمة. و الدارمي في المقدمة، و أحمد في المسند(124).

و قد أجمع علماء الحديث على تواتره و هذه بعض أقوال العلماء في ذلك:

1- يقول العراقي في نظمه لعلوم الحديث:(121)ص312

قُنُوتُهُ بَعد الرُّكوعِ شَهرًا	و منه ذُو تواتُر مُستَقَرًا
في طبقاتِهِ كَمتن "من كذبَ"	ففوق سِتين رَوَوْهُ و العَجَبْ
بأن من رواتِهِ العَشَرَة	و خَصَّ بالأمرين فيمَا ذَكَرَهْ

2- و يقول محمد القاسمي "اعلم: أن حديث:"من كذب عليَّ.." في غاية الصحة، و نهاية القوة، حتى أطلق عليه جماعة أنه متواتر"(39)ص173.

3- يقول النووي:"و حديث "من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار" متواتر"(117)ج2،ص160.

4- و قد رواه اثنان و ستون صحابيًا، و فيهم العشرة المبشرون. و قال بعضهم إنه رواه مئتان من الصحابة، و لكن (العراقي) يرى أن رواية المئتين كانت في مطلق الكذب و لكن الخاص بهذا المتن رواه بضعة و سبعون صحابيًا؛ يقول السيوطي في "تدريب الراوي": "قال ابن الصلاح رواه اثنان و ستون من الصحابة، و قال غيره: رواه أكثر من مائة نفس، و في شرح مسلم للمصنف: رواه نحو مائتين، قال العراقي، و ليس المتن بعينه، و لكنه في مطلق الكذب، و الخاص بهذا المتن رواية بضعة و سبعين صحابيًا: العشرة المشهود لهم بالجنة"(117) و ما يهمنا ليس عدد رواة الحديث، بل قطعية ثبوت متن الحديث عن الرسول صلى الله عليه و سلم لفظًا و معنى.

3 .1 .2 اختلاف ألفاظ الحديث

نلاحظ أن هذا الحديث يتكرر عدة مرات في كُتب الصحاح، و في كل مرة يحدث تغيير طفيف في بنيته النَصية سواء بالزيادة أو النقصان أو الحذف أو إبدال لفظ بلفظ آخر كما يلي: قال البخاري رحمه الله : باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه و سلم:

1- قال صلى الله عليه وسلم:"لا تكذبوا علي فإنه من كذب علي فليلج النار"

2- قال صلى الله عليه و سلم:"من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار".

3- قال صلى الله عليه و سلم:" من تعمد علي كذبا فليتبوأ مقعده من النار".

4- قال صلى الله عليه و سلم:"من يقل علي مالم أقل فليتبوأ مقعده من النار".

5- قال صلى الله عليه وسلم:".... من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار".(37)ص106

و التغيرات الطفيفة في البنية اللغوية النصية لهذا الحديث يبينهما الجدول التالي:

الجدول رقم 01: التغييرات الموجودة في بنية حديث"من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"(37)

الرواية الأولى	لا تكذبوا عليَّ	فإنه من كذب عليَّ	فليلج النار
الرواية الثانية		من كذب عليَّ	فليتبوأ مقعده من النار
الرواية الثالثة		من تعمد عليَّ كذبًا	فليتبوأ مقعده من النار
الرواية الرابعة		من يقل علي ما لم أقل	فليتبوأ مقعده من النار
الرواية الخامسة		من كذب عليَّ متعمًدا	فليتبوأ مقعده من النار

و لا يستطيع أحد أن يرجِّح رواية معينة أو يأخذ حديثا يحتوي على الألفاظ النبوية الأصلية و السبب في ذلك هو انعدام مصدر مكتوب يعود بنا إلى عصر النبوة؛ "و هذا الاختلاف في الألفاظ طبيعي في كل تراث شعبي شفوي و نجده واضحًا في الشعر الجاهلي بسبب المشافهة و تأخر التدوين"[106] ص131.

و خلاصة القول أن انعدام الأصل المكتوب، و الركون إلى الطرق الشفهية، أدى إلى اختلاف طفيف للألفاظ لاختلاف الروايات، وهذا لن يُعيق دراستها لأن الأصل المكتوب موجود عندنا في كتب الصحاح

يقول الأستاذ أحمد سعدي:"و هذه الظاهرة اللغوية في البيان النبوي تبيح و تتيح لقارئه أو المتحدث به شيئًا من النشاط اللغوي الذي يسمح بتغيير الألفاظ إذا لم يؤثر ذلك في المعاني. و الأمر يختلف بالنسبة إلينا لأن الأصل المكتوب موجود عندنا في دواوين السنة الصحيحة"[106] ص135.

لذا سنختار الحديث أو الرواية الأكثر تداولاً في الكتب التي جمعت الأحاديث المتواترة و هي:"من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار".

3 .1 .3 . التحليل الصوتي للحديث النبوي الشريف

لا يمكن أن نُحلّل هذا الحديث الشريف، دون أن نبدأ من المستوى الأول الذي تقوم على أساسه الدراسات اللغوية جمعيها، و قد نبَّه مهدي المخزومي إلى أهمية هذا المستوى بقوله:"دراسة الأصوات هي أول ما يُعنى به دارس اللغة، إذا أراد أن يدرس لغة ما دراسة لغوية صحيحة؛ ودراسة الأصوات تتيح للدارس أن يقف على طبائع هذه الأصوات و خصائصها حين تتمازج في صور كلمات، و لن يستغني عنها، لأنها تُفسر كثيرًا من الظواهر اللغوية التي لولا هذه الدراسة، لكان الكلام فيها نوعًا من الافتراض، لا يقف طويلاً أمام البحث العلمي..." [125] ص166 .لذلك أردنا بداية هذا التحليل بالمستوى الصوتي، لعلنا نرقى إلى مصاف البحث العلمي.

يحتوي الحديث الشريف على أصوات عديدة، مختلفة في عدد تكرارها حسب الجدول التالي:

الجدول رقم 02: الأصوات الموجودة في حديث"من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"

الصوت	مرات تكراره
م	5
ن-ع- أ- ل	3
ي – ب- ت	2
ك- ذ – د – ف – و – ر – الهمزة	1

و بما أن صوت "الميم" هو الذي تكرَّر كثيرًا في الحديث الشريف، سنُركز عليه للإجابة عن الأسئلة التالية:
لماذا غلب صوت الميم في النص؟
و لماذا أعقبه صوت النون في الترتيب؟
هل لهذين الصوتين دلالة في بلورة معاني هذا النص؟

3 .1 .3 .1 .صوت الميم: صوت الميم هو صوت مجهور، و المجهور من الأصوات هو ما يهتز معه الوتران الصوتيان" و تم إحداثه عن طريق اتخاذ الهواء لمجرى الخياشم، أي بمرور نسبة من الهواء عن طريق الخياشم مع اعتراض لنسبة منها في تجويف الفم"[126] ص5 لذلك يقول عنه محمود السعران:"الميم صامت مجهور شفوي... أغن"[127] ص169. و نلاحظ أن صوت الميم في الحديث الشريف موزع على مفردات تعتبر أساسية فيه؛ حيث بُدأ به الحديث في "مَن"، ثم نجده في وسط الحديث في مفردة "متعمد"، ثم في مفردة"مقعد" التي تعتبر مفتاح الحديث، ثم في حرف الجر "مِن" الذي له وظيفته الخاصة- كما سنبين في المستوى التركيبي- نستنتج من هذا التوزيع أن صوت الميم:

1- يحمل دلالة السِتر و الإخفاء الغالبة على الحديث الشريف.
2- في غُنة الصوت ستر و إخفاء، لأن الغُنة هي خروج الصوت من الأنف.
3- في وصف الصوت بالصامت؛ سِتر و إخفاء.
4- في مرور الهواء عن طريق الخياشم مع اعتراض لنسبة منها في تجويف الفم إخفاء و ستر للهواء في هذه الأعضاء من الجهاز الصوتي.

و منه تغليب هذا الصوت الدال على الستر و الإخفاء يخدمُ مغزى الحديث الشريف، فالكاذب على الرسول صلى الله عليه و سلم، يُخفي الحقيقة، و يتعمد إعطاء أخبار مزيفة، كما أن عذابه غير مفصَّل، "فمقعده من النار" غير معروف، و إن كنَّا نعرف "النار" الموجودة في الدنيا، أما "مقعده من النار" فمستور عنَّا أن نعرفه.

<u>3 .1.3.2. صوت النون:</u> أما صوت "النون" الذي يليه في الترتيب فيقول عنه محمود السعران:"فالنون العربية صامت مجهور سُنِي أغن"[127] ص169.يقول عنه الخليل بن أحمد الفراهيدي:"و منها ثلاثة ذلقية: الراء و اللام و النون تخرج من ذلق اللسان من طرف غار الفم"[128]ج1، ص 52 و منه نتبين دلالته من تعريف العلماء بما يلي:
1- يحمل دلالة الصِغر و التصغير؛ و هو ما يريد أن يجعله الحديث الشريف جزاء للكاذب على الرسول صلى الله عليه و سلم.
2- ففي خروجه من ذلق اللسان من طرف غار الفم تصغير.
3- من وصف الصوت بالصامت صِغر و تصغير.
4- في غنة الصوت صِغر باعتباره يخرج من الأنف الذي هو جزء من الوجه.

يقول الأستاذ إيَّاد الحُصني:"و لأن صغر الشيء نسبيًا فالجزء يُعتبر صغيرًا نسبة إلى الكل الذي ينتمي إليه و من البديهي أن يكون الجزء أصغر من الشيء الكامل الذي ينتمي إليه،كذلك فالنون تدل على أنَّ هذا الشيء جزء من الكل و ليس الكل"[129]ج1، ص48. و عليه فإن صوت النون الوارد في مفردة "مَن" التي تعني اسم للعاقل، تدل على أنَّ الإنسان المقصود هو جزء من الكل أي يخص الرسول صلى الله عليه و سلم العاقل و هو جزء من مخلوقات الله عز و جل و ليس كلها.

كما أنَّ مفردة "النَّار" تدل على أنها جزء من نار جهنم؛ قال تعالى:(*وإن جهنم لموعدهم أجمعين ،لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم*) [1]الحجر/الآية44،45 و قد روى الإمام مالك عن أبي الزِّناد،عن الأعرج، عن أبي هريرة، أنَّ رسول صلى الله عليه و سلم قال :"نارُ بني آدم التي يوقدون جُزءُ من سَبعين جُزءًا من نار جهنَّم"، فقالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية، قال:"إنها فُضِّلَتْ عَليها بتسعةً و ستَّين جُزءًا"[130] ص603.
كما نلاحظ علاقة الميم بالنون باعتبارهما صوتين مجهورين صامتين، يخرجان من الأنف، و هما الحروف البينية أي بين الشدة و الرخاوة يقول مصطفى حركات:"و إذا نظرنا إلى الحروف التي هي بين الشدَّة و الرخوة كما حددها سيبويه نرى أنها تحتوي على حرفين فيهما غنة: م، ن..." [131] ص48 هذه الصفات جعلتنا نتبين دلالة الصوتين التي تفيد الإخفاء للميم و الصغر و التصغير للنون؛ مما يدل على حسن اختيار، و انسجام الصوتين لإفادة جزاء من يكذب على رسول الله صلى الله عليه و سلم المتمثل في

التصغير بتبوئه مقعد من جهنم لا يستطيع تصور حاله مهما حاول ذلك، و هذا كاف لردع و زجر من يقوم بذلك.

و منه نستنتج أن للصوت دلالة ثابتة في حالة الإفراد تقوى في حالة التركيب يقول الدكتور عمّار ساسي:"للصوت دلالة ثابتة و معنى قار هو باق معه و ملازم له ملازمة الروح للجسد في حالة الإفراد و تتقوى و تستحكم في حالة التركيب"[5] ص53. كما أننا إذا أبدلنا مكان الميم في "من" مثلاً بصوت آخر لأذهب الدلالة المقصودة من قبل النبي صلى الله عليه و سلم و حدث لبس و إبهام في الخطاب و هذا لا يمكن بإعتبار الرسول صلى الله عليه و سلم لا ينطق عن الهوى. و منه نستنتج حسن استعمال الأصوات التي تدل على أغراض و مقاصد الحديث النبوي الشريف.

3 .1 .4 . التحليل الإفرادي للحديث النبوي الشريف

إن الأصوات التي درسناها تمثل قاعدة للدراسة الصرفية يقول كمال بشر: "و الذي لاشك فيه أن مباحث الصرف مبنية في أساسها على ما يقرره الأصوات من حقائق و ما يرسمه من حدود و أنه لا وجود لعلم الصرف بدون علم الأصوات"[132] ص 240 لذلك فإن الأصوات تكّون لنا مفردات؛ و المفردات الواردة في الحديث موضوع التحليل هي : كذب- متعمد- يتبوأ – مقعد – النار. و يمكن دراسة ترادفها كمايلي:

3 .1 .4 .1 . دراسة الترادف

كَذَبَ:جاء في المعجم الوسيط :"كذب: أخبر بخلاف ما هو عليه في الواقع. و- عليه: أخبر عنه بما لم يكن فيه"[100]ج1 و الكذب من الأخلاق الذميمة في الشريعة الإسلامية لذلك اجتنبه المسلمون و قد ورد في "منهاج المسلم" لأبي بكر الجزائري ما يلي:" روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى، أنه خَرجَ يطلب الحديث من رجل فرآه قد هَربت فرسُه يشيرُ إليها برداء كأن فيه شعيرًا فجاءتهُ فأخذها، فقال البخاري: أكان معك شعير؟ فقال الرجل:لا و لكن أوهمتها فقال البخاري: لا آخذ الحديث ممن يكذب على البهائم . فكان هذا من البخاري مثلاً عاليًا في الصدق"[133] ص136. و "كذب" يختلف عن "كذَّب" الذي يعني إنكار الأمر بشدة، كما يختلف عن "افترى". قال تعالى:(*فمن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذَّب بآياته*) [1] الأعراف/الآية35.

و هذا يبين الاستعمال الدقيق لمفردة "كذب"، فإذا أبدلناها بغيرها فسد المعنى و اختل البيان، و لعل هذا يبين عدم وجود الترادف، يقول الدكتور عمار ساسي :"و إذا كان لكل كلمة معنى دقيق خاص بها لا تشاركها فيه كلمة أخرى في أي لغة، فذاك يعني ألا وجود لكلمتين على معنى واحد و يعني أيضا ألا ترادف بين مفردات العربية"[5] ص131.

-"يتبوأ": أصلها من الفعل الرباعي "تبوأ"، و هو يختلف عن "تهيأ". فتبوأ المكان أي أقام به، و تهيأ أي استعد للأمر و تسهل له مما يثبت رأينا في عدم وجود الترادف، جاء في لسان العرب:"و تبوأ فلان منزلاً، أي اتخذه.. يقال بوَّأته منزلاً، أي جعلته ذا منزل"[11]. و قد وردت هذه المفردة في آيات كثيرة. نذكر على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى :(*و الذين هاجروا في الله من بعدما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة* [1]النحل/الآية41 و قوله أيضا :(*وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده و أورثنا الأرض نتبوأمن الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين*) [1]الزمر/الآية71.

و مما نلاحظه أن المفردة تُذكَر في كل مرة في مقام الجزاء الحسن، بينما في الحديث الشريف ذكرت في مقام الجزء السيء و بصيغة الأمر و لعل سبب ذلك هو للإهانة و التهديد لكل من يجرؤ على الكذب على الرسول صلى الله عليه و سلم.
و الأسماء الواردة في الحديث الشريف هي :
-"مُتعمِدًا" مصدر على وزن "مُتفَعِلا" من الفعل الثلاثي "عَمَدَ" و قد زيد هذا المصدر عن الأصل بثلاثة حروف، و هي الميم، التاء و تضعيف العين، فجاء على صيغة المبالغة ليزيد من قوة المعنى، للدلالة أكثر على السِتر و الإخفاء. و قد ورد في المعجم الوسيط:"و عمد الشيء، و للشيء، و إليه: قصده"[100]ج1 قال تعالى :(*و ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به و لكن ما تعمَّدت قلوبكم*) [1]الأحزاب/الآية5 أي لا تؤاخذون فيما وقع منكم من خطأ أو نسيان، و لكن تؤاخذون بما قصدتم إلى فعله.

-"مَقعد" على وزن "مَفعل" و هو مكان القعود و جمعها مقاعد، و هي لا ترادف مفردة "مجلس" التي تعني موضع الجلوس و مكان الاجتماع، مما يدل على براعة اختيار هذه المفردة عن غيرها. كما أنه إذا كان "المقعد" معروف عندنا في الدنيا فهو مستور خفيٌ عنَّا حاله في الآخره. جاء في القاموس المحيط:"المقعد الجلوس أو هو من القيام و الجلوس من الضَّجعة و من السجود"[134]ج1 حيث يساق مرتكب الكذب على الرسول صلى الله عليه و سلم إلى نار جهنم ثم يُقعد في مكانه.

-"النار" وردت في آخر الحديث الشريف مُعَّرفة بالألف و الام، و هي اسم مؤنث بالرغم من أنها لم تلحقها علامة التأنيث، و هي تختلف عن نار الدنيا، يروي الإمام مالك عن عمِه أبي سُهيل بن مالك، عن أبيه عن أبي هريرة – رضي الله عنه- أنه قال: أترونها حمراء كناركم هذه؟ لهي أسودُ من القار، و القارُ هو الزِّفت"[130] ص603 و لإن علّمنا لونها فلا نتصور هيئتها و حالها.

و هكذا نرى أن مفردات الحديث الشريف كلها تخدم المحور الأساسي في الخطاب و هو الإخفاء و الستر، فالكاذب على الرسول صلى الله عليه و سلم الذي يعني إخفاء الحقيقة و تلفيق الأخبار غير صحيحة، سيكون جزاؤه عذاب في النار لا يعلمه إلاّ الخالق عز وجل و لا يمكن أن يطَّلع عليه بشر. و هذا يزيد من الردع و التخويف لمن سوَّلت له نفسه تقويل الرسول صلى الله عليه و سلم ما لم يَقُل، لأنه بذلك يثبتُ حُكم من أحكام الشريعة لا أساس له من الصحة، مما يتسبب في تقويض أركان الأمة.
و نستنتج من ذلك:
1- كل مفردة في الحديث الشريف وُضعت لمعنى خاص و دقيق يخدم المغزى العام للحديث.
2- لا ترادف بين المفردات؛ بل إن إبدال واحدة بالأخرى يؤدي إلى إفساد المعنى و ذهاب البيان.
3- المفردة النبوية مفهومة و جامعة لمعاني كثيرة؛ مثلا "كذب" تحمل معاني: تقويل الرسول صلى الله عليه و سلم ما لم يقل، اللحن في أداء الحديث أو في إعرابه، أو الناقل لحديث يعلم كذبه.
ومهما يكن من أمر فإن هذه المفردات المدروسة في التحليل الإفرادي لاتحصل لها المزية إلا إذا ركبناها في تركيب مفيد "فالألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة وأن الفضيلة وخلافها،في بملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ "[35] ص46 وهذا ينقلنا إلى دراسة مايلي:

5. 1. 3 . التحليل التركيبي الثابت(النحوي) للحديث النبوي

قبل أن نبدأ في التحليل يَحسن أن نُبيِّن أن المستوى التركيبي يشمل شقين: شق السلامة النحوية التي تدرس الجملة من حيث الإسناد أي بنيتها الداخلية المرتبطة بالوضع و هو جانب شكلي.و شق السلامة المعنوية التي تدرس الجملة من حيث الإفادة و هي تهتم بالاستعمال؛ و هو الجانب الوظيفي. يقول الدكتور عمارساسي في تقسيمه للدلالة النحوية إلى اعتبارين :"اعتبار شكلي لغوي: يرتبط بأوضاع اللغة و هو يرسم حدودها الداخلية و يلخصه مفهوم التركيب (الإسناد) المحدد لنظام الجملة و هندستها و طرق تأليف عناصرها و ترتيبها، و كذا معاني المواقع الإعرابية المحتملة في موضع. اعتبار معنوي مضموني: تخرج اللغة بموجبه من إطار الوضع إلى إطار الاستعمال و هو يكشف عن امتدادات خارجية فيها مفاهيم غير لغوية، يرتبط هو الآخر بمفهوم الإفادة التي هي مقصد المتكلم و الغاية التي سخرت لأجلها هذه الأدوات اللغوية باعتبارها مبان يتوقف عليها تحقيق تلك الأغراض و الغايات"[5] ص140 لذلك يمكن تحليل الحديث النبوي المدروس تحليلاً ثابتًا و متغيرًا،أما التحليل التركيبي الثابت فهو الآتي:

إن الركنين الأساسيين لأي جملة هما المسند و المسند إليه، يقول عبد القاهر الجرجاني عنهما: "و مختصر كل الأمر أنه لا يكون كلام من جزء واحدٍ، و أنه لابد من مسندٍ و مسندٍ إليه"[35] ص7 و أركان الإسناد في الحديث الشريف هي كالآتي :

من ← مسند إليه (إسم شرط للعاقل مبني في محل رفع مبتدأ).

كذب ← مسند (فعل ماضٍ).

○← مسند إليه (الفاعل ضمير مستتر تقديره هو).

عليَّ ← فضلة.

متعمدًا ← فضلة.

يتبوأ ← مسند (فعل مضارع).

o ← مسند إليه (الفاعل ضمير مستتر تقديره هو).

مقعدَه ← فضلة .

من النار ← فضلة.

و أسلوب الحديث بأكمله جاء جملة شرطية اسمية يقول عبد العليم بوفاتح:"إذا كانت الجملة الشرطية مصدّرة بأسماء الشرط، فإن كان اسم الشرط لمسمى عاقل أو غير عاقل، كما في : مَن و ما و مهما، فالجملة الشرطية اسمية، ذلك لأن دلالة اسم الشرط ههنا هي على أصلها. و منه قول المتنبي: مَن يهنْ يسهل الهوان عليه ما لجرح بميِّت إيلام " [135] ص129.

و إذا كانت "مَن" مسند إليه فهي تحتاج إلى مسند، و قد اختلف النحاة في اعتبار جملة الشرط أو جملة الجواب أو هما معًا مسندًا لاسم الشرط؛ و لعل السبب يرجع إلى عدم اتفاقهم على تحديد معنى "الجملة" في حد ذاتها، و هذا ما يراه الدكتور مازن المبارك، محقق "رسالة المباحث المُرضية لابن هشام"، حيث يرى أن سبب هذا الاختلاف في اعتبار النحاة جملة الشرط أو جملة الجواب أوهما معًا خبرًا للمبتدأ الذي هو اسم الشرط :"هو اختلاف منطلقاتهم و تباين آرائهم في تحديد معنى (الجملة) فهم لم يحددوا مفهومها، و لم يتفقوا عليه و هم لو فعلوا لزال الخلاف فيما بينهم، و لقاربوا الإجماع أو ما يشبهه"[136] ص48.

و لكن هذا المفهوم الإعرابي لا يُبين المزية في حديث الرسول صلى الله عليه و سلم "و هل الإعراب مزية للمتكلم؟ بل هو خصيصة من خصائص الكلام العربية، و ما كان من الألفاظ عديم الإعراب لا يصح أن يعدَّ من الكلام الفصيح في كل حال"[137] ص177.

لكنه يظهر جليًا أننا لو اكتفينا بهذا التحليل التركيبي الثابت، لما اكتشفنا الجوانب الإبلاغية في هذا الحديث الشريف ما لم ندرس التحليل التركيبي المتغير. لذلك سنتخذ من الأول أساسًا، و البلاغة بفنِّها هي البناء؟ و لا بناء بلا قواعد. و عليه سنُقيم على التحليل الثابت القاعدي بناءً عاليا يُبيِّن الوظيفة الإبلاغية للغة الحديث الشريف.

3 .1 .6 . التحليل التركيبي المتغير(البلاغي) للحديث النبوي الشريف

بدأ الرسول صلى الله عليه و سلم كلامهُ بأداة الشرط "مَنْ" التي تدل على العاقل و على الشرطية لاعتبارها اسم، و لعل سبب اختيار الاسم بدل الحرف، هو أن الاسم يدل على معنى في ذاته و معنى في غيره،أما الحرف فيدل على معنى في غيره فقط يقول الأستاذ عبد العليم بوفاتح:"أسماء الشرط دالة على معانيها التي في نفسها و هي الدلالة على العاقل أو غير العاقل أو الظرفية أو غير ذلك .... و دالة على معنى الذي في غيرها، و هو الدلالة على الشرط" [135] ص137. كما أنه قال "مَن كذب عليَّ" و لم يقل "الذي كذب عليَّ" لأن "مَن" تدل على الاشتراك و العُموم لكل إنسان عاقل يقول ابن هشام عنها:"و المشتركة: مَنْ... فهي تُطلق على المفرد و المثنى و الجمع، و المذكرَّ من هذا كله و المؤنث"[72] ص140. أما "الذي" فتوظف للمعلوم من الأشخاص في اعتبار السامعين كأن نقول: "جاء محمد الذي أبوه مسافرُ " فـ "الذي" وصلت الجملة التي بعدها بما هو معلوم قبلها. يقول عبدالقاهرالجرجاني:"تفسير هذا أنك لا تصل "الذي" إلاَّ بجملةٍ من الكلام قد سبق من السامع علمُ بها، و أمرٍ عرفه له، نحو أن ترى عنده رجلاً ينشده شعرًا فتقول له من غدٍ: ما فعل الرجل الذي كان عندك بالأمس ينشدك الشعر"[72] ص200. و هذا دليل على أن الرسول صلى الله عليه و سلم لا يقصد رجلاً بعينه كذب عليه، بل قصد عموم الناس في كل زمان و مكان، فكان حديثه خالدًا، قاعدةً لمن يأتي بعده، و لو خصَّه بشخص معين لنُسِيَ حديث الرسول صلى الله عليه و سلم بموت الشخص.

و قد وردت آيات قرآنية مبدؤها بـ "مَن" كقوله جلَّ شأنه:

1-"ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه"[1] آل عمران/الآية84.

2-"ومن قتل مومنًا خطأ فتحرير رقبة مومنة" [1] النساء/الآية91.

-"ومن تاب و عمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابا"[1] الفرقان/الآية71

لكن الفعل في الحديث الشريف هو "كذب" فقال عليه السلام :"من كذب عليَّ متعمدًا" و بالتالي ينفي السامع كل الأفعال التي ترد إلى ذهنه و يركز على فعل الكذب، و لكن حصلت معرفة هذا السامع بحرمة الكذب من نص الذكر الحكيم؛ قال تعالى:(*و لا تقف ما ليس لك به علم*) [1]الإسراء/الآية36 و قال أيضا:(*و ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد*) [1]ق/الآية18. لذلك فإن المستمع ينتظر الجديد من وراء هذا الخبر، و هذا ما تبينه مفردة "عليَّ"، و لو تأخرت عن موضعها لانقطع حبل التواصل بين المتكلم و المستمع ، ثم تليها مفردة "متعمدًا" التي تزيد الكلام وضوحًا و تقييدًا، مما تجعلنا نكتشف حسن اختيار الرسول صلى الله عليه و سلم، لمفردات ذات إيحاء و دلالة و قوة و استعملها دون غيرها من مرادفاتها لمعرفته بقوة إيحائها. حيث جاء بعد أداة الشرط بالفعل

الماضي "كذب" الذي يعني:أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه مع العلم به و هو ضد الصدق، و لم يستعمل أفعال أخرى: كافترى، لما تحمله مفردة "كذب" من الدلالة القوية على نفسية المتلقي الذي لا نستطيع إبعاده عن عملية التواصل، كما أنَّ الزمن الماضي يدل على الاستقبال، لأنه:"قد يتغير زمن الماضي فيُصبح دالاً على المستقبل..إذا تضمن معنى الشرط" [138] ص13 و كأن النبي صلى الله عليه و سلم يتنبأ بأن الكذب عليه سيكون مستقبلاً فاختار الزمن الماضي للفعل "كذب" و جاء به في أسلوب الشرط ليدل على المستقبل، و هذا ما حدث حيث ظهرت الأحاديث الموضوعة على الرسول صلى الله عليه و سلم و هي :"ما نسب إلى الرسول صلى الله عليه و سلم اختلاقًا و كذبًا بما لم يقله أو يفعله أو يُقِره"[117]ص178.

و لو تتبعنا التاريخ لوجدنا أن الصحابة رضوان الله عليهم و التابعين نقلوا أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم كما هي و حافظوا عليها يقول محمد عجاج الخطيب :"فلم يرووا الأحاديث إلا حين الحاجة، و كانوا حين يروونها يتحرون الدقة في أدائها... و نرى من الصحابة من تأخذه الرعدة، و يقشعر جلده، و يتغير لونه حين يروي شيئًا عن الرسول صلى الله عليه و سلم، ورعًا و احترامًا لحديثه عليه الصلاة و السلام"[103] ص82 ثم حدثت الفتنة مما أدى إلى وضع أحاديث مكذوبة عن الرسول صلى الله عليه و سلم ، و صدقت نبوة الرسول صلى الله عليه و سلم في أنه سيُلفق له أخبار كاذبة مستقبلاً، يقول شرف الدين علي الراجحي:"كان الحديث النبوي صافيًا لا يعتريه الكذب طوال عهد الخلفاء الراشدين ثم كانت الفتنة أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه و الخلاف بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه و معاوية بن أبي سفيان، و نشأت الأحزاب و الفرق الدينية و السياسية و حاول أتباع كل حزب أن يدعم آراءه بالقرآن و السنة فتأول بعضهم القرآن و فسروا بعض نصوص الحديث بما لا يحتمله و لما لم يجدوا سبيلاً إلى غايتهم لكثرة حفَّاظ القرآن الكريم و حفَّاظ الحديث الشريف لجأ بعضهم إلى وضع الحديث و الكذب فيه"[139] ص190.

و هذه الحقائق التاريخية تُبيِّن أن الرسول صلى الله عليه و سلم لا ينطق عن الهوى، حيث اختار زمن الماضي ليدل على المستقبل، ثم خصَّ الكذب عليه و ليس له لنهيه عن مطلق الكذب، و الأحاديث في ذلك كثيرة، منها ما رواه الإمام البخاري قال :حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير،عن منصور، عن أبي وائل،عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:إنَّ الصدق يهدي إلى البر، و إن البرُّ يهدي إلى الجنَّة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا، وإنَّ الكذِب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النارو إن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا"[37] ص1253. و يزيد الرسول صلى الله عليه و سلم الكذب تخصيصا "بالكذب المتعمد" فبإضافة إلى ما تحمله كلمة "كذب"من نفور لدى المتلقين، تزيد كلمة "متعمدًا" النفور أكثر، و ترقب العقاب الوخيم جزاء ذلك. و نكَّرها لتعطي رحابة المعنى و سعته و شموله، و ليعطي لكل مستمع الفرصة أن يتخيل طبيعة هذا الكاذب المتعمد، و منه تحولت مفردة "متعمدًا" إلى مفتاح لشخصية هذا الكاذب بما فيها من القدرة على تشكيل الإنسان المتصف بها بشكل تنفر منه النفس و تبغضه. و يدخل العمد في من يلحن حديث الرسول صلى الله عليه و سلم، أو ينقل حديثًا يعلم كذبه، مما جعل الاختيار للمفردة المنكَّرة لتدل على كل أنواع الكذب العمدي يقول محمد القاسمي:" و يؤخذ من الحديث أن من قرأ حديثه و هو يعلم أنه يلحن فيه، سواء كان في أدائه أو إعرابه، يدخل في هذا الوعيد الشديد، لأنه بلحنه كاذب عليه، و فيه إشارة إلى أن من نقل حديثًا و علم كذبه يكون مُستحقًا النار، إلاَّ أن يتوب"[39] ص173. و قد كان الصحابة يتحرون الدقة في نقل أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم، و لا يلحنون فيه خوفًا من حديث الرسول صلى الله عليه و سلم "من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار" يقول الحافظ محمد بن حبان: "و لقد سمعت محمد بن نصر بن نوفل يقول: سمعت أبا داود السنجي أو حدثني سهل بن هاني عنه، قال: سمعت الأصمعي يقول: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذ لم يعرف النحو أن

يدخل فيما قال النبي صلى الله عليه و سلم:"من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار" لأنه عليه الصلاة السلام لم يكن لحانًا، و لم يلحن في حديثه فمهما رويت عنه و لَحِنتُ فيه كذبت عليه "[140] ص223.

3 .1 .6 .1 . جملة الشرط:

إذا نظرها إلى هذه الجملة التي يسميها النحاة جملة الشرط "كذب عليَّ متعمدًا" نجدها جملة فعلية و هي تدل بأصل وضعها على التجدد يقول أحمد مصطفى المُراغي:" و تدل بأصل وضعها على التجدد في زمن معين مع الاختصار... و من ثم كان الفعل مع إفادته الزمن يفيد أيضا تجدد الحدث و حصوله بعد أن لم يكن"[49] ص55 و منه اختيار الفعل لهذا الخبر يبين أن الكِذب عليه يتجدد حدوثه فهو إذن إرادي، أي للإنسان حرية فعله لذلك ناسب هذا المقام. و هو خبر يجهله السامع، فقد ألقاه عليه الصلاة و السلام لخالي الذهن عن الحكم الذي تضمنه الخبر لذلك لم يعمل على توكيده.

والمتلقي ينتظر بعد ذلك الجزاء الذي يترتب عن هذا الخبر، و هو متأكد أن الجزاء سيكون من جنس العمل البغيض الذي ذكِر في جملة الشرط يقول الدكتور أحمد كشك:"فنحن حين، نأتي بشرط فإن التردد و الإستثارة يعدان أمرين قائمين يُهدِّئ منهما مَجيء الجواب، و من أجل ذلك فإن تأكيدًا، أو قل ضغطًا حاصلاً على الجواب حين يأتي كفيل بأن يريح بال المستمع تمامًا"[141] ص70.

3 .1 .6 .2 . جملة جواب الشرط:

الجواب في هذا الحديث الشريف مقترن بالفاء، التي يسميها النحاة بفاء السببية و هي تدخل على الجزاء لتدل على الترتيب يقول الرَضي الاستربادي عنها : "و التي لغير العطف أيضا، لا تخلو من معنى الترتيب، و هي التي تسمَّى فاء السببية و تختص بالجمل، و تدخل على ما هو جزاء، مع تقدم كلمة الشرط نحو: إن لقيته فأكرمه و من جاءك فأعطه"[ ]ص153 هذا الترتيب يظهر جليًا في نص الحديث الشريف؛ حيث ذكر الرسول صلى الله عليه و سلم الخبر أولاً ثم أردفه بالجزاء، و لم يذكر الجزاء ثم يُردفه بالخبر، لكي يظهر الخطاب مرتبًا فيزيد في فهم الخبر، و ينزع الإبهام و الغموض.

أما اللام فهي لام الأمر التي دخلت على "يتبوأ" و معناه اللغوي:يُقيم بالمكان و يتخذه منزلاً، يقول ابن منظور:"...و تبوأ فلان منزلاً، أي اتخذه... و قال الفراء في قوله عز وجل:(و الذين آمنوا و عملُوا الصالحات لنُبوِّئنهم من الجنَّة غُرفا)، يقال بوَّأته منزلاً، أي جعلته ذا منزل، و في الحديث (من كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار)... و معناه: لينزل منزله من النار"[11] و هذا الفعل أكثر قوة و دلالة من "يتهيأ" الذي يعني الاستعداد للأمر بينما "يتبوأ" يحدث بعد الاستعداد فهو إلزام بالإقامة؛ و جاء الفعل بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار التجددي، لكي يبين الرسول صلى الله عليه و سلم استمرارية و تجديد إقامة الكاذب عليه عمدًا في النار، بل لله الأمر جميعًا، حيث أن الله يُجدد له هذه الإقامة في النار المقرونة بالعذاب، قال تعالى:(*كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها ليذوقوا العذاب*) [1]النساء/الآية55 أي أن الله يبدل لأصحاب النار جلودهم لكي يُجدد لهم الإحساس بالعذاب المُهين، كذلك تبوأ الكاذب على الرسول صلى الله عليه و سلم مقعده من النار فإنه يتجدد لذلك اختار عليه الصلاة و السلام الفعل المضارع المناسب لهذا المقام.

و يظهر في جواب الشرط أنه يتضمن معنى الأمر لاقتران الفعل المضارع بلام الأمر يقول أحمد مصطفى المُراغي:"الأمر هو طلب حصول الفعل على وجه الاستعلاء و له صيغ أربع: المضارع المقترن بلام الأمر نحو (لينفق ذو سعة من سعته)..." [49] ص71 لكن الأمر في الحديث الشريف لم يأت من أجل طلب "التبوأ" على وجه اللزوم، بل خرج عن هذا الأصل إلى أغراض أخرى تُستفاد من سياق الحديث، و هي

الإهانة و التحقير و التهديد، و هذا ما يذهب إليه محمد القاسمي إذ يقول:"و تعبيره بصيغة الأمر للإهانة، و لذا قيل: الأمر فيه للتهكم أو التهديد إذ هو أبلغ في التغليظ و التشديد من أن يقال: كان مقعده من النار، و من ثمَّ كان ذلك كبيرة"[39] ص173.

و ما يلاحظ أن الربط بين هذه الأفعال (كذب، يتبوأ) محكم غاية الإحكام و الترتيب فيه واضح جلي، و الجملة (كذب عليَّ متعمدًا) تفيد العموم على الإطلاق في الكذب و(يتبوأ مقعده من النار) تفيد الخصوص، أي خص الكاذب بمكانة معينة من النار. و لو غيَّرنا هذه الأفعالو الصيغ بأخرى لفسد المعنى و اضطرب و لانتفى البيان و البراعة في الخطاب النبوي.

و يمكن القول أن الصيغة البيانية:"من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"، قائمة على قاعدة الترتيب و التعلق التي قادتها إلى البيان. و الفعل في ذلك للنظم الذي يتوخى معاني النحو في الكلام، و لا سبيل لهذا النظم المحكم إلا عن طريق ربط النحو بالبلاغة.

و من هنا نجد أن التركيب "من كذب عليَّ متعمدًا" أحكم و أبلغ من غيره مثل:

1- من تعمد عليَّ الكذب.
2- من كذب متعمدًا عليَّ.
3- عليَّ من كذب متعمدًا.
4- متعمدًا من كذب عليَّ.

فكان تقديم "مَن" على غيرها لتخصيص الكذب بالعاقل فقُدمت من أجل العناية و الاهتمام، ثم قد يسأل سائل: مَن ماذا؟ فتأتي الإجابة، بفعل الكذب، و ليس مطلق الكذب بل الكذب على الرسول صلى الله عليه و سلم، و يزيد التخصيص أكثر بذكر مفردة "متعمدًا"، فنلاحظ التدرج في إفهام السامع بالأفعال من المطلق إلى المقيد و من المعلوم إلى المجهول، و لو قلنا "من تعمد عليَّ الكذب" لطال انتظار السامع و هو يبحث عن الخبر، لذلك فإن التركيب الأول هو الأبين عن غيره لما امتاز به من ترتيب المفردات بدقة وانسجام مع فهم السامع.

3 .1 .6. 3 . الخاصية المميزة للحديث: أسلوب الشرط

نقول إن الحديث تميز بالقوة و الإيحاء في اختيار أصواته و مفرداته و تراكيبه لتدل على المعنى العام الذي يفهمه السامع دون لبس أو غموض و يتأثر به، مما يجعله لا يفكر أبدًا في ارتكاب هذا الفعل و ما نستنتجه أن الحروف في الحديث الشريف تجتمع لتكوِّن مفردات منسجمة، مختارة لمعاني معينة تدل عليها "فلا ترى فيه حرفًا مضطربًا، و لا لفظة مستدعاة
لمعناها أو مستكرهة عليه، و لا كلمة غيرها أتم منها أداءً للمعنى"[57] ص261 و منه لكل مستوى من مستويات التحليل الثلاثة باختلافها من صوتي إلى إفرادي، و تركيبي لها دور فعَّال في استنباط معاني الخطاب. فكل مستوى يساهم في القيام بدوره البياني في التعبير و تشترك كلها في تبليغ الغرض والمقصد إلى المخاطب الذي يجد نفسه مُستسلمًا لهذا البيان حسًا و عقلاً. و هذا يدل على براعة الرسول صلى الله عليه و سلم في اختيار مايلائم تبليغ غرضه و مقصده في خطاب خالد، يعمل به كل من يأتي بعده في مختلف الأزمان و قد اختار أسلوب الشرط في قالب الجملة الاسمية كما يلي:

أسلوب الشرط = الأداة+ الشرط (ماضي) + الجواب (مضارع)

تقول عائشة عبيزة:"لقد أشار أغلب النحاة إلى ندرة هذا النمط في استعمال الكلام العربي و قد جاءت عبارة سيبويه:"ضَعف فعلتُ مع أفعل" [142] أما الدكتور عودة خليل أبو عودة فيرى أن هذا التركيب شائع في الحديث النبوي؛ و لعل هذا يجعلنا نعتقد أن ابتعاد بعض النحاة عن الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف

ربما جعلهم يَغضون الطرف عن تراكيب لغوية خاصة بالحديث مما جعلهم يُقرون نُدرة وجود جملة شرطية، فعل الشرط فيها ماض و فعل الجواب مضارع، يقول خليل أبو عودة:"أما هذا التركيب اللغوي فشائع جدًا في الحديث الشريف، و قد ورد في كل واحد من الصحيحين زهاء خمسين مرة. و هو متسق مع الخصائص العامة في لغة الحديث الشريف، حيث لا يتوجه الأمر مباشرة إلى فردٍ بعينه بل يذكر الحكم بأسلوب مَنْ و يأتي الأمر بإتباعه لكل مَن يرغب في إتباع الأمر و القيام بواجباته. و مِن هذا التركيب قوله عليه الصلاة و السلام:"من توظأ فليستنشر، و من استجمر فليوتِر"[37] ص51 "من سرهُ أن يُبسُط له في رزقه أو يُنسأ له (أي يُمد له في أجله) في أثره فليصل رحمه"[37] ص1237"[143] ص564 و منه فالرسول صلى الله عليه و سلم اختار هذا التركيب لأغراض و مقاصد كامنة في نفسه ثم رتبها في عقله، ليخرج على شكل ألفاظ مترابطة و منسجمة، "لأن الخبر و جميع معاني الكلام معانٍ يُنشئها الإنسان في نفسه، و يصرفها في فكره، و يُناجي بها قلبه، و يُراجع فيها عقله، و تُوصف بأنها مقاصد و أغراض"[35] ص528. لذا فالدراسة اللغوية التي قمنا بها تُبين مقاصده عليه السلام؛ و التي بانت من خلال الجانب الشكلي و الوظيفي للحديث الشريف،ولا يمكننا اكتشاف هذه المقاصد إلاّ من خلال الدراسة اللغوية التي تضم كل مستويات اللغة بما فيها النحوي-البلاغي و لكن لا غِنى عن الجانب الصوتي و الإفرادي يقول حلمي خليل:"مما يجعل الفصل بينها (أي مستويات اللغة) أمرًا غير طبيعي، و إنما قد يحدث بقصد تسهيل الدراسة و عمليات التحليل اللغوي"[144] ص295 و قد نتج عن ترابط تلك المستويات و تكاملها حديث منسجم و مرتب ثم "إن مقاصد الكلام و أغراضه معان يُنشئها الإنسان في نفسه و يصرفها في فكره، و حين يرتبها في عقله ينزلها ألفاظًا مرتبطًا بعضها ببعض، بمُقتفي المعاني التي أرادها المتكلم و ربما كان للسامع دور هام في أن يصنع منها معاني عدة"[137] ص185 هذا يقودنا إلى الكلام عن المتلقي الذي يُؤدي دوراً هامًا في دورة التواصل؛ و الرسول صلى الله عليه و سلم ألقى حديثه لعامة الناس مع حسن اختيار الأصوات و المفردات و التراكيب الدقيقة الواضحة التي يعلمها السامع بالإضافة إلى قوة إيحائها لرسوخ المعنى في نفسية المتلقي. فالأغراض التي أراد عليه السلام تبليغها مع معاني النحو كونت لنا نظمًا خاصا من النصوص تجعل المتلقي يتقبلها و يعمل بها يقول سعد سليمان حمودة:"نعلم أن غاية المعاني و القواعد النحوية تشكل صورة المعنى في ذهن السامع على نحو يبتعد عن اللبس و الغموض و يرتفع عن الإبهام و الخلط أو بيان المعني في أوضح صورة من اللفظ، و اللفظة لا تكتسب قيمتها إلا في السياق و بإنضمامها إلى قرائنها و أخوتها في التأليف"[145] ص176.

و خلاصة القول أن الحديث النبوي الشريف له بنيته الخاصة من بين النصوص الأدبية الأخرى، و تحليله لغويًا يقتضي ربط كل مستويات اللغة، و هذا التحليل يكشف عن فصاحة و بلاغة الرسول صلى الله عليه و سلم و حسن اختياره لما يُناسب الغرض الذي في نفسه؛ كيف لا و هو أحسن من نطق بالضاد.

2 .3 . تحليل حديث "كل مسكر حرام"

خلق الله تعالى الإنسان، و خلق الأطعمة و الأشربة و أحل له منها الطيبات فقال عز وجل:"قُل احل لكمُ الطيبات"[1]المائدة/الآية5، فجميع الأطعمة و الأشربة الطيبة التي تنفع الإنسان و لا تضره؛ حلال عليه يأكل منها و يشرب بلا تبذير لأن الله لا يحب المبذرين.

أما الأشياء الخبيثة من الأطعمة و الأشربة التي تضر بجسم الإنسان، و تُفسد عقله فقد حرَّمها الله جلَّ و علا و منع تناولها، و مما حرَّم من الأشربة: الخمر؛ فقال عز وجل: "إنما الخمر و الميسر و الانصاب و الازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه"[1] المائدة/الآية92، بل حرَّم كل المسكرات فقال نبينا صلى الله عليه

و سلم مبلغًا عن ربه:"كل مسكر حرام"، وقبل تحليل الحديث لابد من الاطلاع على تواتره والاختلاف الطفيف في بنيته النصية.

3 .2 .1 . رواية الحديث و تواتره

لقد رُوي هذا الحديث في صحيح البخاري، كتاب المغازي، و الأشربة، و الأدب. و صحيح مسلم ، كتاب الجنائز، و الأشربة. و سنن أبي داود، كتاب الأشربة. و سنن الترمذي كتاب الأشربة و سنن النسائي، كتاب الجنائز، و الضحايا، و الأشربة، و الزينة. و سنن ابن ماجة، كتاب الأشربة. و سنن الدارمي، كتاب الأشربة. و موطأ مالك، كتاب الضحايا و الأشربة. [123] ج2

1- و قد أورده "جلال الدين السيوطي" في "الأزهار المتناثرة "حيث قال:"و كذا حديث كل مسكر حرام... كلها متواترة في أحاديث جمة أودعناها كتابنا المذكور و لله الحمد"[117] ص161

2- و أورده "الكتاني" في نظم المتناثر، كتاب الأطعمة و الأشربة. و قال علي القاري في شرحه مسند أبي حنيفة:"و أما حديث كل مسكر حرام فكاد أن يكون متواترًا، رواه أحمد، و الشيخان، و أبو داود و النسائي، و ابن ماجة عن أبي موسى و أحمد و النسائي عن أنس، و أحمد و أبو داود و النسائي عن ابن عمر..." [115] ص163.

- و أورده ابن حمزة الحسيني الدمشقي في أسباب ورود الحديث، و قال:"أخرجه أحمد و الأربعة سوى الترميذي عن ابن عمر، و أخرجه أحمد و النسائي و ابن ماجة عن أبي هريرة، و أخرجه ماجة عن ابن مسعود، و قال السيوطي متواتر"[146] ص127.

4- رواه من الصحابة أربعة عشر نفسًا:عائشة، و أبو موسى، و ابن عباس، و أبو هريرة و عبد الله بن عمر بن الخطاب، و عبد الله بن مسعود، و معاوية بن أبي سفيان، و أنس بن مالك، و عمر بن الخطاب، و خوان بن جبير، و زيد بن ثابت، و قيس بن سعد، و أبو سعيد وقرة بن إياس؛ رضي الله عنهم .

3 .2 .2 . اختلاف ألفاظ الحديث

إن حديث "كل مسكر حرام" تكرر ذكره في كتب الصحاح، مع زيادة أو نقصان في بنيته النصية فإذا تتبعناه في صحيح البخاري نجد مايلي:

- قال صلى الله عليه وسلم :"كل شراب أسكر فهو حرام"
- قال صلى الله عليه و سلم:"كل مسكر حرام "

والتغييرات الطفيفة في البنية النصية للحديث نبينها في الجدول التالي :

الجدول رقم03:التغيرات الموجودة في بنية حديث"كل مسكر حرام"

الرواية الأولى	كل	شراب أسكر فهو	حرام
الرواية الثانية	كل	مسكر	حرام

ولايمكننا حذف الألفاظ الدخيلة لتبقى الألفاظ النبوية الأصيلة، ولكن لقد كثر ورود الرواية الثانية في معظم مصنفات الحديث المتواتر لذلك سنختار هذه البنية النصية للتحليل .

3.2.3. التحليل الصوتي للحديث النبوي الشريف

الأصوات الواردة في الحديث الشريف يبينها الجدول التالي:

الجدول رقم04 : الأصوات الموجودة في حديث"كل مسكر حرام"

الأصوات	تكرارها
كـ - ر- م	2
ل- س-ح-الألف	1

3 .2 .3 .1. صوت الكاف: يتبين أن صوت "الكاف" هو الذي غلب تكراره، و بُدِئ به الحديث الشريف، و هو حرف يخرج بين اللسان و الحنك الأعلى لذلك فهو يُصنف في الحروف الأقصى حنكية يقول عنه محمود السعران:"يتكون الكاف بأن يعترض الهواء الخارج من الرئتين اعتراضًا تامًا، و ذلك برفع أقصى اللسان حتى يلتقي بأقصى الحنك الأعلى (الحنك اللين) الذي يرفع هو الآخر ليمنع مرور الهواء إلى الأنف؛ يضغط الهواء ثم يطلق سراح المجرى الهوائي بأن يخفض اللسان فيندفع الهواء خلال الفم محدثًا في اندفاعه صوتًا انفجاريًا. لا يتذبذب الوتران الصوتيان أثناء نطق الصوت"[127] ص155. و عدم تذبذب الوترين الصوتيين يعني أن صوت الكاف مهموس؛ و هذا ما يذهب إليه مصطفى حركات بقوله:"هو حرف شديد أقصى حنكي مهموس تعرفه معظم اللغات"[131] ص105.

أما دلالة الصوت فهو يدل على الكبر و التكثير يقول إياد الحُصني:"و باستعراض الكلمات التي تحوي حرف الكاف ضمن حروف كل منها و التي يعتقد أنها كانت موجودة لحظة وجود آدم عليه السلام أو في بداية الحياة الإنسانية أو في العصر الجاهلي –قرنين تقريبًا قبل الإسلام- يتبين أن معظم الكلمات تدل على أنها اسم لشيء مادي أو حسي كبير أو كثير أو كامل أو شيء مركب أو فعل تركيب، و من هذه الكلمات: كل.." [129] ج2،ص33

ومنه نلاحظ أن:

1- في انفجار صوت الكاف يعني خروج الهواء بكثرة، و هذا يبين دلالة الصوت على التكثير.

2-في وصف الصوت بالمهموس الذي يجعل انطلاق النفس عند النطق بالصوت؛ و هذا يتطلب جهدًا عظليًا أكثر من المهجور، أي تكثير الجهد العضلي.

3- في الشكل الخطي للحرف يدل على تركيب ثلاث مستقيمات منكسرة : كـ

3 .2 .3 .2 . صوت اللام: و يتضح معنى صوت الكاف أكثر في تركيبه مع الصوت الذي يليه، و هو صوت اللام؛ حيث يصف الدكتور عبد القادر عبد الجليل مخرجه بما يلي:"صوت لثوي جانبي متوسط بين الشدة و الرخاوة مجهور مفخم و مرقق و يتشكل هذا الصوت عن طريق اتصال طرف اللسان باللثة. و يحدث حين يندفع الهواء من الرئتين فالحنجرة حيث تهتز الأوتار الصوتية مرورًا بالحلق و التجويف الفمي فيمر الهواء من أحد جانبي اللسان، لحيلولة اتصال طرف اللسان باللثة و عدم سماحه بالمرور من وسط الفم"[147] ص174و عليه فهو صوت مجهور و يدل على الاتصال:

1- ففي صفة الصوت بالجهر يوجب الاتصال.

2- في اعتماد طرف اللسان على أصول الثنايا العليا اتصال.

3- إن الشكل الخطي لحرف اللام في بداية الكلمة يكون نتيجة اتصال خط أفقي مع خط عمودي "لـ"

و منه نستنتج أن حرف الكاف الذي يدل على الكثرة يخدم مغزى الحديث خاصة إذا ركبناه مع صوت اللام الذي يدل على الاتصال، و أن الرسول صلى الله عليه و سلم لم ينطق بهذا الخطاب إلاّ عندما سُئِل عن بعض أنواع المسكرات أي كان في موقع اتصال مع جماعة من الناس، فاستعمل صوتين لهما وقعهما في نفوس المتلقين؛ يقول إيّاد الحصُني:"فالاتصال و أدواته بين البشر تدل عليه كلمات تحوي ضمن حروفها حرف اللام"[129] ج2.ص10.

أما الأصوات الواردة في "مسكر" فهي "الميم" الذي بيَّنا دلالته على الستر و الإخفاء، و الكاف تدل على التكثير، أما الراء العربي فهو:"حرف مجهور مكرر يكون أصلاً لا بدلاً و لا زائدً"[148]ج1.ص191 و قد ذهب "إيَّاد الحُصني" إلى إعتباره يدل على الأرض إذ يقول:"يدل هذا الحرف على كل شيء مادي أو حسي يقع على الأرض أو تتكون منه الأرض أو ينتمي إليها"[100] ج1.

و عليه يمكن الكشف عن مفهوم "مسكر" من خلال دلالة أصواته، فهو شراب يُخَمَّر مما يُزرع على الأرض من: تمر، أو ذرة أو حنطة... إلخ، يؤدي التكثير من شربه إلى سِتر أو إخفاء الوعي و الإدراك أي غياب العقل.

فقد جاء في المعجم الوسيط:"سَكِر فلانُ من الشراب سَكْرًا، و سُكْرًا، و سَكرانًا: غاب عقلُه و إدراكه... و السُّكْرُ غيبوبة العقل و اختلاطه من الشراب المسكر"[100]ج1 ثم إنَّ تركيب هذه الأصوات يُحيلنا إلى مستوى آخر و هو :

3 .2 .4 . التحليل الإفرادي للحديث النبوي الشريف

ورد في الحديث الشريف ثلاث مفردات؛ هي: كلُّ – مسكر- حرام أمَّا "كلٌ" فهي تفيد الشمول و الاستغراق، جاء في المعجم الوسيط:"كلمة تفيد الاستغراق لأفراد ما تضاف إليه و أجزائه نحو "كلُّ امرئ بما كسب رهين". و كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه و ماله و عرضه "[100] ج1 و لعل هذا ما جعل الرسول صلى الله عليه و سلم يختار هذه الكلمة عن غيرها مثل: (أي و جميع)؛ لما تحمله المفردة من معنى الشمول لجميع أنواع المسكرات، و هي اسم جامد أي لم يؤخذ من غيره. و في جمود هذا الاسم الذي بدئ به الحديث الشريف دليل على النفور، لما لجمود المفردة من وقع غير مستحب على المتلقى بعكس الاشتقاق في الكلمات.

و "مُسكر" اسم فاعل على وزن "مُفعِل" و هو مشتق من "أسْكَر" ثلاثي مزيد بحرف واحد و وزنه "أفعل" الذي يُفيد التعدية. و بما أنه اسم فاعل فهو يدل على الفعل و من قام به، و الفعل هو "أسكر" و من قام به "كل أنواع المسكرات" من: خمر، و نبيذ، و غُبيراء، و مِزر، و بِتْع و معانيها كما يلي:

- النبيذ= شراب مُسكر يُتَّخذ من عصير العنب أو تمر أو غيرهما، و يترك حتى يختمر [100].
- الغُبيراء= شراب مسكر يتَّخذ من الذرة [100].
- المِزْرُ=نبيذ الذرة و الشعير... و كلَّ تمَرٍ استحكم فقد مَزُر[134] ج1.
- و البِتعُ=نبيذ العسل[149]المجلد الأول.

و الخمرُ حُرِّم بنص القرآن الكريم، و كان تحريمه على مراحل لأن عادة شرب الخمر تأصلت في نفوس العرب آنذاك، و من الصعب التخلي عنها دفعة واحدة، لذلك كان تحريم الخمر على مراحل؛ حيث نزلت آية:(*يسألونك عن الخمر و الميسر قل فيهما إثم كبير و منافع للناس و إثمهما أكبر من نفعهما*) [1] البقرة الآية217 ثم نزلت آية :(*يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة و أنت سكارى حتى تعلموا ما تقولون*) [1] النساء/الآية43، فكان شراب الخمر حرامًا في أوقات الصلاة. ثم كانت الآية التي تُحرِّم الخمر مطلقًا؛ قال تعالى:(*يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر و الميسر و الانصاب و الازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون ، إنما يُريد الشيطان أن يُوقِعَ بينكم العداوة و البغضاء في الخمر و الميسر و يصُدَّكم عن ذكر*

الله و عن الصلاة، فهل أنتم منتهون) [1] المائدة/الآية92،93 ،فتوقف المسلمون عن شرب الخمر بعد تحريمها في مصدر التشريع الأول القرآن الكريم. ثم اختلط الأمر على الناس في بعض الأشربة المسكرة أهي حرام أم لا؟ فكانت السُّنة المطهرة مُوضْحة لهذا الأمر، حيث لما سُئل النبي صلى الله عليه و سلم عن أشربة مسكرة مثل: البِتع و المِزر و نبيذ العسل قال:"كل مسكر حرام"، فكانت مفردة "مسكر" شاملة لكل أنواع الأشربة التي تفقِد الوعي و تُغطي العقل عن الإدراك. يقول ابن قيم الجوزية:"السكر لذَّة يغيب معها العقل الذي يُعْلم به القولُ و يحصلُ معه التمييز"[150] ص138.

و منه فإن المسكرات بكل أنواعها مُضرة للإنسان، لأنها تجلب المفسدة بزوال العقل الذي كرَّم الله عز وجل به بني آدم. و قد أثبت العلم الحديث الأضرار الصحية و الاجتماعية و الإنسانية التي تجلبها أم الخَبائث و لحرص الشريعة على سلامة الإنسان، صدر تحريم

الخمر بنص الكتاب وتحريم كل شراب مسكربنص السنة الشريفة فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم :"كل مسكر حرام".

1. 4. 2. 3 .دراسة الترادف

– حرام : قال أحمد بن فارس:"الحاء و الراء والميم أصل واحد، وهو المنع و التشديد"[149]. و جاء في القاموس الفقهي:"حرم فلانا الشيئ حرمانا:منعه .و حرم الشيئ حرمة: امتنع... و أحرم الرجل إحرمًا دخل في الحرم، و حرم الشيء عليه أو على غيره تحريمًا: جعله حرام، و في القرآن الكريم (*وأحل الله البيع و حرم الربا*) [1]البقرة/الآية274 و الإحرام : المنع و الحرام: الممنوع من فعله إما بتسخير إلهي، و إما بمنع بشري، و إما بمنع من جهة العقل أو من جهة الشرع،... و قال ابن حجر العسقلاني: ما نص الشارع على تركه مع الوعيد ".

و من هنا نتبين أن مدلول المصطلح هو المنع الشديد من جهة العقل أو الشرع أو القهر أو التسخير الالهي، و ليس من المفردات ما يقوى على حمل دلالة المنع و التشديد في مقام شُرب المسكرات من مصطلح "حرام" الأقوى في الدلالة و الأبلغ من مصطلح (ممنوع)؛ لأن المنع لا يحسب من كل الجهات، إنما من جهة القهر، ثم هو لا يدل على معنى الديمومة في الزمن كما هو الشأن في "حرم". و من هنا فلا ترادف بين المصطلحين، فالأول أبلغ و أنسب، يقول الدكتور عمار ساسي:"وفي استعمال مصطلح (منع) قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف: "يا أبانا منع منا الكيل..." [1]يوسف/الآية63، و لم يقل حرم علينا الكيل، فالمنع هنا هو من جهة القهر البشري، و هو موقوت و مشروط، و هي سمات لا نجدها في دلالة حرم، و من هنا بان (حرم) من (منع) و عليه فلا ترادف بينهما"[151]ج2، ص275.

و منه فإن مفردات الحديث تخدم مغزاه العام و هو التكثير و التشديد و المنع:

فـ: كل ← تدل على التكثير أي الاستغراق في الإنسان.

مسكر ← تدل على التكثير في الشراب.

حرام ← تدل على التشديد و المنع.

5. 2. 3 . التحليل التركيبي الثابت(النحوي) للحديث النبوي الشريف

إن نص الحديث صدر على شكل جملة اسمية، و الجملة الاسمية عند النحاة هي ما تكوَّن من ركني الإسناد: مبتدأ و خبر.وهما في هذا الحديث :

كل ← مسند إليه (مبتدأ).

مسكرٍ ← فضلة (مضاف إليه).

حرام ← مسند (خبر).

و عليه فقد جاء الخطاب النبوي على شكل جملة اسمية بسيطة مرتبة ترتيبًا طبيعيًا أي تقدَّم المبتدأ على الخبر، أو هذا ما نعتقده بالمفهوم النحوي و لكنها جملة مرتبطة بسوابقها و لواحقها بحيث لا تفهم إلا في السياق الذي قِيلت فيه، فقد ذُكِر هذا الحديث الشريف كجواب عن سؤال صحابي حيث قال: يا رسول الله (صلى الله عليه و سلم) إن شرابًا يُصنع بأرضنا يقال له المِزر من الشعير و شراب يقال له البِتع من العسل. فقال:"كل مسكر حرام". فكانت هذه الجملة الاسمية البسيطة في هذا السياق في غاية البلاغة، و رغم إيجازها فهي تحمل كثيرًا من المعاني. و قد ذكر الإمام مسلم في صحيحه نفس الحديث الشريف مع تعليق الراوي عليه بأن رسول الله صلى الله عليه و سلم أُوتي جوامع الكلم؛ حيث يقول:"حدثنا أبو بُردة عن أبيه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه و سلم و مُعاذًا إلى اليمن. فقال:"ادعوا النَّاس، و بشِّرا و لا تنفِّرَا و يسِّر ولا تعسِّرا" قال فقلت:" يا رسول الله ! أفتنا في شرابين كُنّا نصنعهما باليمن: البِتعُ، و هو من العسل يُنبذ حتى يشتَّد. و المِزرُ، و هو من الدُّرةِ و الشَّعير يُنبذ حتى يشتَّد. قال: و كان رسول الله صلى الله عليه و سلم قد أُعطِني جَوامِع الكلم بخواتمِه فقال:"أنهى عن كُلِّ مُسكِرٍ أسْكَر عن الصلاة"[152]ج2 ، ص200 و الشاهد في الحديث أن الرسول صلى الله عليه و سلم :"قد أُعطي جوامع الكلم بخواتمه"أي إيجاز اللفظ مع تناوله معاني كثيرة جدًا. و قوله: بخواتمه، أي كأنه يختم على المعاني الكثيرة التي تضمنها اللفظ اليسير، فلا يخرج منها شيء عن طالبه و مستنبطه لعذوبة لفظه و جزالته[152]ج2، ص200.

كما أن مفردة "مسكر" تدل على الحال أو الاستقبال لأنها اسم فاعل مجرد من "أل"و"إذا جاء مجرد من "أل" فهو يعمل عمل فعله بشرط:أن يكون بمعنى الحال و المستقبل، و أن يكون معتمدًا على: نفي أو استفهام أو نداء أو خبر"[138] ص169. و في هذا الحديث الشريف جاء اسم الفاعل مجردا من "أل"، لذلك فهو دال على الحال أو المستقبل؛ مما يبين دقة اختيار الرسول صلى الله عليه و سلم للمفردة، يقول عبد القاهر الجرجاني:"اعلم أن الأسماء لا أصل لها في العمل. ألا ترى أن نحو رَجُلٍ و فَرَسٍ لا ترفعُ و لا تنصُب و إنما العملُ للفعل و ما يشابهُه. فاسم الفاعل على ثلاثة أضرُبٍ... فالذي يعمل عمل الفعل ما كان للحال أو الاستقبال كقولك: زيدُ ضاربُ عمرًا السّاعة. و هذا رجلٌ ضاربُ زيدًا غدًا. و لا يجوز أن تقول: هذا رجلُ ضارب زيدًا أمس"[ ]ج1،ص506 لذلك فإن المفردة التي استعملها الرسول صلى الله عليه و سلم، ليبلغ ما في نفسه تدل على تحريم المسكرات في الحال أي عند السؤال عنها، و في المستقبل و استثناء الماضي؛ أي قبل معرفة الحكم، لذلك خاطب الناس المترددين في صحة تحريم بعض أنواع المسكرات، فاستعمل عليه السلام الجملة الاسمية كمؤكد لتحريم كل الأنواع. و هذا ينقلنا إلى دراسة المستوى المتغيرمن التركيب.

3 .2 .6 . التحليل التركيبي المتغير(البلاغي) للحديث النبوي الشريف

3 .2 .6 .1 .دراسة الجملة الاسمية في الحديث

اختار الرسول صلى الله عليه و سلم الجملة الاسمية لتبليغ الحكم لأنها أوكد من الجملة الفعلية يقول أحمد الهاشمي:"الجملة الاسمية تفيد بأصل وضعها ثبوت شيئ ليس غير، بدون نظر إلى تجدد و لا استمرار"[153] ص72. و قد يلاحظ المتتبع للأحاديث النبوية المتواترة، أن الجملة الاسمية بكل أنماطها ترد أكثر من الجملة الفعلية، و لعل هذا ما جعل الحديث النبوي خالدًا، كما خُلِّدت الأمثال و الحكم التي ترد غالبًا على شكل جملة اسمية يقول أحمد سعدي:"الأمثال و الحكم الخالدة المستمرة تصاغ دائمًا في الجمل الاسمية و الرسول عليه الصلاة و السلام مُخبر عن الله تعالى و معلم يمارس في أغلب الأوقات أسلوبًا تقريريًا و هو صاحب جوامع الكلم و بدائع الحِكم المستمرة و الثابتة و الخالدة و لذلك غلبت في كلامه الجملة الاسمية لأنها أشد تعبيرًا على استمرار الرسالة المحمدية و بقائها على مر الأيام و الأعوام"[106] ص186.

و قد ورد تركيب الجملة بهذا الترتيب، أي قدَّم "مسكر" على "حرام" و لم يقل:"حرام كل مسكر" و مفاده أن الحرام معلوم عندنا بنص القرآن الكريم، و الذي يشغل بال السامع و يهتم له كجديد هو حكم "كل أنواع المسكرات" فكان الجواب:"كل مسكر حرام"، و هو أنسب في هذا المقام من قوله:"حرام كل مسكر"؛ و هذا من صميم البلاغة الراقية التي تراعي مقتضى الحال، و تجيب على حسب حال السامع.كما اختار عليه السلام الخبر الطلبي، لأن المخاطبين مترددين في صحة الخبر، لذلك أراد تأكيد الخبر بمؤكد واحد لتقوية الحكم فيزول التردد و هذا المؤكد هو الجملة الاسمية لأنها أوكد من الجملة الفعلية.

و عليه يتبين لنا تفرد الرسول صلى الله عليه و سلم في براعة نظم كلامه، و لا ريب أن الأمر يحتاج إلى نظر ثاقب، و فكر دقيق، يتم بمقتضاه وضع الألفاظ في مواضعها من التركيب لتؤدي المعاني التي يقصدها المتكلم يقول عبد القاهر الجرجاني:"و الألفاظ لا تفيد حتى تُؤلَّف ضربًا خاصًّا من التأليف و يُعمد بها إلى وجهٍ من التركيب و الترتيب"[75] ص4. أي أن الألفاظ التي اختارها عليه السلام رتَّبها على طريقة معلومة، فحصلت على صورة من التأليف مخصوصة لذلك فإن البيان النبوي في الحديث الشريف راجع إلى طريقة نظمه، فلو أنك عَمدت إلى الحديث الشريف فعددت كلماته عدًّا كيف جاء و اتَّفق، و أبطلت نَضدَهُ و نظامه الذي عليه بُنى، و فيه
أُفْرْغ المعنى و أُجري، و غيَّرتَ ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، و بنسقه المخصوص أبان المراد، نحو أن تقول في :

1- "كل مسكر حرام"؛
2- كل ماأسكر حرام .
3- كل سَكَر حرام.
4- كل خمر حرام.

فتكون أخرجته من كمال البيان، إلى مجال الهذيان،لأن الصيغة التركيبية الثانية تدل على استمرارية الفعل و احتمال الانقطاع عنه،بينما التركيب الأول يدل على ثبات السكر فيه على الدوام لاستعمال الاسم. أما التركيب الثالث فمفردة "سكر" لاتعني"مسكر" فهي تدل على السكون،جاء في القاموس المحيط:"سكرت الريح سكورا سكنت وليلة ساكرة ساكنة"[134] ج1.ونقل المعجم الوسيط:"سكر،سكورا وسكرانا:فتر وسكن، يقال سكرت الريح، و سكر الحر"[100]ج1، و ليس من المعقول أن يحرم السكون عن الحركة. والتركيب الرابع يدل على الخصوص لذكر نوع واحد من المسكر.بينما مفردة "مسكر" في التركيب الأول تدل على الشمول،و جمع كل ما يغيب العقل من شراب أو غضب أو عشق،جاء في المعجم الوسيط:"السكر غيبوبة العقل واختلاطه من الشراب المسكر، وقد يعتري الإنسان من الغضب أوالعشق أو القوة أو الظفر.يقال: أخذه سكر الشباب أو المال أو السلطان أو النوم"[100].والمفردة المستعملة في الحديث هي "مسكر" وليس"السكر"لأن هذا الأخير"يجمع معنيين: وجود اللذة، وعدم التمييز، والذي يقصد السكر قد يقصد أحدهما وقد يقصد كلاهما"[150] ص138. بينما المسكر تعني الحدث وهوالسكروااللذة، وكل مايحدث هذا السكر من أنواع الشراب والغضب والعشق مما يدل على حسن اختيار "مسكر"عن مثيلاتها.

و منه فإن التركيب الأول هو الأنسب لهذا المقام الذي يسأل فيه الناس عن حُرمة بعض المشروبات فأصدر الرسول صلى الله عليه و سلم رسالة موجهة إلى المسلمين أجمعين في مفردة جامعة شاملة لكل مايغيب العقل وهي "مسكر" مستخدما نفس النظام اللغوي المشترك بينه صلى الله عليه و سلم و بينهم يقول حسام البهنساوي:"و أنهم كانوا يتلقون أحاديثه الشريفة بالفهم و الاستيعاب، و العمل و الاقتداء و السلوك، لأن كل من الرسول صلى الله عليه و سلم و المستمعين إليه، على علم بمجموعة الأنماط و العلاقات الصوتية و الصرفية و النحوية و الدلالية، التي تمثل نظام اللغة العربية، و هو النظام الذي يلبي

عمليات الاتصال بين أفراد الجماعة اللغوية"[154] ص128 و رب قائل يقول :قد يكون هذا الاتصال بين رئيس و شعبه أو بين ملك و قومه، و لكن لم تخلَّد خُطب كل الرؤساء و الملوك، و بقت الأحاديث النبوية خالدة، صالحة لكل زمان و مكان، نقول أن الرسول صلى الله عليه معلم الأمة، و رسول البشرية جمعاء و ليس مجرد قائد يُشرِّع لهم قوانين، بل كان يشرِّع أمور الدين و الدنيا للعالم بأسره، لذلك تفرد أسلوبه عن غيره، و امتاز بخصوصيات تُؤهله ليكون خالدا. و قد قال عليه السلام:"أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم"[155] ص93 أي له حرية اختيار الأصوات و المفردات و التراكيب التي تناسب مقامات الناس و كثيرًا ما كان يوجز العبارة حتى ثبتت هذه الخاصية في الحديث الشريف.

3 .2 .6 .2 . الخاصية المميزة للحديث :الإيجاز

إن الحديث النبوي الشريف يمتاز بالاختصار، و لا غرابة فقد قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:"أُوتيت جوامع الكلم و اختصر لي الكلام و اختصارً"[37] فكانت ألفاظه قليلة تحمل بداخلها معاني كثيرة في غير تعقيد أو تكلف؛ كما بيَّنا في تحليل حديث "كل مسكر حرام". و لعل هذا راجع لغُلبة فكر الرسول صلى الله عليه و سلم على لسانه؛ يقول صادق الرافعي في ذلك:"و من كمال تلك النفس العظيمة، و غَلبة فكره صلى الله عليه و سلم على لسانه قلَّ كلامه و خرج قصدًا في ألفاظه، مُحيطًا بمعانيه، تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة و الكلمات المعدودة بكل معانيها: فلا ترى من الكلام ألفاظًا و لكن حركات نفسية في ألفاظ، و لهذا كثُرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب، و كثرت جوامع كلِمه ... و اتسق له من هذا الأمر على كمال الفصاحة و البلاغة ما لو أرداه مريد لعجز عنه"[57] ص242.

ومنه من خصائص أسلوب الحديث النبوي: الإيجاز، وهو تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، والإيجاز قوة في التعبير، وامتلاك لناصية اللغة، وهو أصلح للحفظ والرواية والتمثيل، فمن فوائده أن يسهل الحفظ ويغري بالمشافهة، وهو وسيلة تربوية وتعليمية فعالة. وهذا ما نلاحظه في حديث" كل مسكرحرام" فقد جاءت مفرداته دقيقة تحمل دلالات عميقة في نفوس المخاطبين، يقول محمد الصباغ:"ولا يؤتى الإيجاز إلا من رزق حدة في الذهن، وإرهافا في الإحساس البياني، ومعرفة تامة
بدلالة المفردات، وإدراكا واعيا لأحوال المخاطبين، وقد اجتمع ذلك كله في الرسول صلى الله عليه وسلم على أكمل وجه"[ ]،ولكن جمالية هذا النص ومزيته لاتعود لمجرد الإيجاز،إنما الفضل والشرف يعود إلى الطريقة التي أسند فيها المسند إلى المسند إليه حتى نظمت الجملة أحسن النظم،وبني النص أحسن بناء فحقق المقصد وحصلت الفائدة،وما كنا لنكتشف ذلك إلا من خلال التحليل اللغوي مع نفي الترادف على مفردات الحديث النبوي الشريف وتأكيد الوظيفة الإبلاغية للغته عن طريق ربط النحو بالبلاغة. و خلاصة المبحث؛ أن المفردة النبوية محكمة في الدلالة و الاستعمال، و التركيب النبوي متماسك يتصف بالإيجاز ليسهل حفظه ثم العمل به.والنص النبوي لغة" واللغة لا تؤدي وظيفتها الأساسية وهي الإبلاغ إلا عن طريق مبدأ ربط النحو بالبلاغة"[5] ص73

3 .3 . تحليل حديث "المسلم من سلِم المسلمون من لسانه و يده"

إن الإسلام يسمو بالمرء إلى أقصى ما تعارفته الإنسانية من خير، فهو يريد للمسلم أن يكون صورة صادقة للإسلام، في خيره و جماله، في عفوه و صفحه، في نبله و فضله، حتى يكون مدرسة لتخريج خير أمة قال تعالى:"كنتم خير أمة أخرجت للناس"(1)آل عمران/الآية110. فإذا تساءلنا: من أفضل المسلمين؟ لطفِق إلى الذهن التعريف الشرعي له أو التعريف اللغوي، و هذا جاري في عرف العامة، لكن رسولنا صلى الله عليه و سلم يُبين تعريف المسلم الجدير بلقب الإسلام، الحري بالانتساب إليه بقوله:"المسلم من سلم

المسلمون من لسانه و يده"؛ فلماذا خصَّ المسلم و لم يخص المؤمن؟ و لماذا ذكر اللسان و اليد من بين جميع أعضاء الجسم؟ و لماذا استعمل الجملة الاسمية بدل الجملة الفعلية؟ وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة لابد من تبيين رواة الحديث ومدى تواتره عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

3 .3 .1 . رواية الحديث و تواتره:

رواه البخاري في كتاب الإيمان و كتاب الرقاق. و مسلم في كتاب الإيمان، و أبا داود في كتاب الجهاد، و الترمذي في كتاب القيامة، و كتاب الإيمان، و النسائي في كتاب الإيمان و الدارمي في كتاب الرقاق، و رواه أحمد بن حنبل (123)ج2 في مسنده، كما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، و الحاكم في المستدرك، و ابن حبان في صحيح.

ذكر هذا الحديث في المصنفات التي جمعت الأحاديث المتواترة ومنها:

1- ذكره محمد بن جعفرالكتاني في "نظم المتناثر"، كتاب الإيمان، و قال في "المقاصد الحسنة" ما نصه:"حديث المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده و المهاجر من هجر ما حرم الله" متفق عليه"(115)ص52.

2- و أورده الزبيدي في "لقط اللالئ" كسابع حديث متواتر في مصنفه و قال:"رواه من الصحابة عشرة: ابن عمرو بن العاص، و أبو موسى الأشعري، و جابر بن عبد الله، و فضالة بن عبيد، و بلال بن الحارث، و أبو أمامة الباهلي، و أنس بن مالك، و معاذ بن عمرو بن عتبة، و ابن عمر بن الخطاب، و واثلة بن الأسقع"(146) ص36.

3 .3 .2 . التحليل الصوتي للحديث النبوي الشريف:

إن الحديث يحتوي على عدة أصوات و هي (م/ل/س/ن/الألف/هـ/و/ي/د) و بيانها في الجدول التالي:

الجدول رقم05 : الأصوات الموجودة في حديث"المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"

الصوت	تكراره
م	7
ل	6
س – ن	4
الألف	3
هـ - و	2
ي – د	1

نلاحظ جليًا أن الصوت الغالب في الحديث الشريف و الذي تكرَّر بما يعادل سبع مرات هو صوت "الميم"، ثم يليه صوت "اللام". و السؤال المطروح: لماذا غلب صوت (الميم) في الحديث؟ و لماذا أعقبه في الترتيب صوت اللام؟ هل لهذين الصوتين دلالة في بلورة معاني الحديث و دلالته؟ للإجابة عن هذه الأسئلة، لابد من التعرف على مخرج وصفة كل صوت.

1. 2. 3. 3 .صوت الميم:

هو من الأصوات الشفوية "يتم نطقه بأن تنطبق الشفتان تمامًا لمنع مجرى الهواء الرئوي من الفم و السماح له بالخروج عن طريق الأنف أثناء انطباق الشفتين و يصاحبه اهتزاز الأوتار الصوتية"(156)ص324.
أما صفته فهو من الأصوات الذلقية ذات الغنة.
و يرى إيَّاد الحُصني أن:"حرف الميم يدل ... على كل شيء مادي أو حسي موجود في السماء أو آت من السماء... و كذلك الأشياء الحسية التي يُعتقد أنها تأتي من السماء أي من القوة الإلهية التي في السماء"(129)ص43.
دين جاء من السماء، و المسلم هو من أسلم وجهه لرب العزة، أي انقاد للشريعة التي تأتي من السماء (من القوة الالهية).

2. 2. 3. 3 .صوت اللام:

تكرر هذا الصوت ست مرات "و عند النطق به يعتمد طرف اللسان على أصول الأسنان العليا و على النخاريب (اللثة) بحيث يمنع مرور الهواء المزفور من هذه النقطة إلا أنه يترك منفذًا لهذا الهواء من جانبي اللسان أو من أحدهما، و لهذا سمي هذا الصوت (بالجانبي Lateral و يتذبذب الوتران الصوتيان حال النطق به"(157) ص127. و يمتاز هذا الصوت بصفة الانحراف التي يقول عنها صبحي التميمي:"صفة لصوت اللام، و كأنهم قصدوا إنحراف طريق خروج الهواء من مقدمة الفم إلى جانبي اللسان"(156) ص329 و هو صوت مجهور يدل على العلو و القوة كما يرى الدكتور عمَّار ساسي ذلك إذ يقول "نذكر في صوت اللام ما يلي:
- يحمل دلالة الاستعلاء و العلو...
- في صفة الجهر علو و قوة.
- في حركة اتصال طرف اللسان باللثة و ارتفاع الطبق، علو و قوة.
- في حركة من طرف اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان و ما يليها من الحنك الأعلى و ما فويق الضاحك و الناب و الرباعية و الثنية علو و قوة"(5)ص125. وهذا لا يتعارض مع رأي الدكتور إياد الحصني الذي يرى أن صوت اللام يدل على الاتصال حيث يقول:"يدل هذا الحرف على معنى الاتصال،فكل كلمة تحوي حرف اللام ضمن حروفها أنها اسم لشيئ مادي أو حسي يدل على الاتصال أو أدوات الاتصال....مثل:لسان- سلم..."(129)ص10.
نلاحظ أن دلالة الصوت تخدم معنى الحديث النبوي؛ فكل المفردات التي ورد فيها هذا الصوت تحمل دلالة القوة، فالمسلم قوي ما دام لا يؤذي الآخرين، و المسلمون أينما كانوا يحسون بالعزة و العلولعلو شأن دينهم و لقوة إيمانهم قال تعالى:"ولا تهنوا و لا تحزنوا و أنتم الاعْلَون إن كنتم مومنين"(1)آل عمران/الآية139.
و منه فاختيار الصوتين في هذا المقام له انسجام مع محتوى الحديث النبوي، لإفادة تعريف المسلم الذي يقوى بعدم إيذائه للآخرين، و يسمو بحسن معاملته للمسلمين، و بذلك نستنتج حسن اختيار الأصوات التي تُعبر عن مقاصد النبي صلى الله عليه و سلم.

3. 3. 3 التحليل الإفرادي للحديث النبوي الشريف:

إن الدلالة الإفرادية هي دلالة المستوى اللغوي الثاني الذي ينقسم بدوره إلى قسمين:
1-دلالة معجمية: و هي دلالة أصلية أساسية.
2-دلالة صرفية: و هي دلالة مستمدة من الصورة التي تكون عليها المفردة أي: الوزن أو الصيغة.

و أول كلمة في الحديث هي (المسلم): صفة مرفوعة اشتُقّت من الفعل "أسلم"؛ و هو فعل رباعي تام صحيح، غير مزيد. أما دلالته المعجمية فيرى صاحب تاج العروس أن:"أسلم... انقاد و به فُسِر الحديث و لكن الله أعانني عليه فأسلم أي انقاد و كفَّ عن وسوستي و قيل أسلم دخل الإسلام و صار مسلمًا فسلمت من شره"(146)ج8.

و قد وردت مفردة "المسلم" دون غيرها مثل "المؤمن" و ذلك لدلالتها القوية و الموحية فالأول هو الخضوع و الانقياد لأوامر الله عز و جل؛ يقول العلامة المودودي:"إذا راجعت معاجم اللغة، علمت أن معنى كلمة الإسلام هو: الانقياد و الامتثال لأمر الآمرو نهيه بلا اعتراض"(158)ص7 و أما الثاني فهو تصديق بالقلب و عمل بالجوارح، قال الزبيدي:"الإسلام إظهار الخضوع و القبول لما أتى به سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم و به يحقن الدم فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد و تصديق بالقلب فذلك الإيمان الذي هذه صفته"(146)ج8.

و قد أبان القرآن الكريم الفرق بين المصطلحين في قوله:(قالت الاعراب أمنا قل لم تومنوا و لكن قولوا أسلمنا)(1)الحجرات/الآية14 وقوله أيضا:(فأخرجنا من كان فيها من المومنين،فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)(1)الدريات/الآية35،36. و قد ذكر "المسلم" بدل "المؤمن" لأن الإسلام أعم من الإيمان، فقد نجد فئة كبيرة مسلمة لكن أقلية منها مؤمنة، و منه فالصيغتين متمايزتين شكلاً و مضمونًا و ملخصه الآتي:

الجدول رقم 06: مقاربة بين مفردتي مسلم و مؤمن

المسلم	المؤمن
- العموم	- الخصوص
- فِعله "أسلم"	- فِعله (آمن)
- معناه الاستسلام لأمر الله مع الإخلاص	- معناه التصديق بالقلب
- يسبق الإيمان	- يحصل بعد الإسلام
- ليس كل مسلم مؤمن	- كل مؤمن مسلم

و منه صَلُحت صيغة (المسلم) من حيث لم تصلح لها (المؤمن)، بالاضافة إلى معنى الإسلام و هو الاستسلام و الإنقياد و هي كلمة:"ثقيلة على النفس بطبعها، تمجها الأسماع.ولاتتلقاها الطباع بارتياح لأنها قرينة الخضوع للغير،رديفة ذوبان الشخصية و انمحاء الذات، موحية بفقدان الاستقلال الفكري، و هذه المعاني تتنافى مع ما في جبلة الإنسان من الانفلات من القيود و الاستقلال في الرأي"(159)ص11 و رغم ذلك تجد المسلم مُستسلم الاستسلام التام الممزوج بالحب لأوامر الله؛ لذلك ذُكر في الحديث الشريف بدل "المؤمن".

- ثم نجد مفردة "سِلم"؛ منصوبة جاءت على وزن "فَعِل" و هو فعل ماضي ثلاثي تام و صحيح. و تعني نجا "فسلِم من الآفة بالكسر سلامة و سلامًا نجا"(146)ج8. و قد وردت "سلِم" دون غيرها مثل "أمِن" لدلالتها القوية التي اقتضت ذلك، فالفعل "سلِم" و الذي جاء على وزن "فعِل" يدل على الصفات الظرفية العارضة (غير الثابتة) التي تتغير من حالة إلى حالة، و من زمن إلى آخر بينما دلالة "أمِن" على الطمأنينة و الوثوق تبين أنها غير موحية بالدرجة التي توحي بها مفردة "سلِم"، فالأمن غير السلامة من الأمر.

-وقال "المسلمون"ولم يقل"الناس"لأن الكفار بصدد أن يقاتلوا حتى يقولوا:لاإله إلا الله،كما أنه يدخل في مفردة "المسلمون" ذكر المسلمات يقول ابن حجر العسقلاني:"ذِكر المسلمين هنا خرج مخرج الغالب،لأن محافظة المسلم على كف الأذى عن أخيه المسلم أشد تأكيدا ، ولأن

الكفار بصدد أن يقاتلوا وإن كان فيهم من يجب الكف عنه،والإتيان بجمع التذكير للتغليب، فإن المسلمات يدخلن في ذلك"( )ج1،ص69.

- ثم تَأتي مفردة "لسان" و هي أداة النطق و الذوق، و هو جارحة الكلام، يُستعمل لغرض الخير أو الشر. جاء في لسان العرب المحيط لابن منظور:"اللسان: جارحة الكلام... قال ابن سيده: و اللِّسان المِقولُ، يذكر و يؤنث، و الجمع ألسنة فيمن ذكَّر مثل حمارة و أحمرة، و ألسُن فيمن أنث مثل ذراع و أذرُع، لأن ذلك قياس ما جاء على فِعالٍ من المذكر و المؤنث"(11).

و قد ذكره الله عزوجل في كتابه فقال:(لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود) (1)المائدة الآية80 و قال أيضا: (لسان الذي يُلحدون إليه أعجمي و هذا لسان عربي مبين)(1)النحل/الآية103 و قال أيضا:(و اجعل لي لسان صدق في الآخرين)(1)الشعراء/الآية84. كما رويت أحاديث نبوية كثِيرة تُحذر من هذا اللسان، منها هذا الحديث الذي نحن بصدد تحليلة، و عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال:"إذا أصبح ابنُ آدم، فإن الأعضاء كُلهَّا تُكفِّر اللسان، تقول: اتَّق الله فينا، فإنما نحن بكَ، فإن استقمت استقمنا، و إن اعوججت اعوججنا"(110)ص331. و المسلم مكلَّف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلاَّ كلامًا ظهرت فيه المصلحة، و هذا لنجاته و نجاة غيره من المسلمين. فعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما النَّجاة؟ قال: أمسِك عليك لسانكَ، و ليسعكَ بيتُكَ، و ابكِ على خطيئتكَ"(110) ص331. و لم يختار الرسول صلى الله عليه و سلم مفردة"كَلاَمِه" و ذلك لدلالة اللسان القوية، كأداة تستعمل إما للإصلاح أو الإيذاء.

- مفردة "يد" هي اسم لأحد أعضاء الجسم، تستعمل للقيام بالخير أو الشر، و قد وردت بدل "فعلِه" لدلالتها الموحية ذكر صاحب لسان العرب المحيط أن:اليدُ: الكفُّ، و قال أبو إسحاق: اليد من أطراف الأصابع إلى الكف، و هي أنثى محذوفة اللام، وزنها فَعْلٌ يَدْيٌ، فحُذفت الياء تخفيفًا، فاعتقبت حركة اللام على الدال"(11).

و منه نستنتج من هذا المستوى:

1-ألا ترادف بين المفردات؛ فكل مفردة أُختبرت لتأدية معنى دقيق، يكشف عن غرض المتكلم، و يُؤثر في السامع.

2-أن مفردات الحديث تدل على القوة و العلو المستمدة من القوة الإلهية:

أ-الأفعال مثلا :سلِم ←نجا، و السلامة أقوى من الهلاك، و السِلم أعلى من الحرب، و تسليم الأمر لله أقوى و أعلى من الخضوع للبشر.

ب-الأسماء مثلا (المسلم- المسلمون- اللسان-اليد) كلها حاملة لدلالة العلو و القوة: فالمسلم قوي بكفِ آذاه عن الآخرين قال الزبيدي:"دخل في الإسلام فصار مسلما فسلمت من شره"(146)ج8 و المسلمون أقوياء باتحادهم على شريعة واحدة "قال صلى الله عليه و سلم:"المسلمون تتكافأُ دماؤهم و يسعى بذمتهم أدناهم و هم يَدٌ على من سِواهم" أي كلمتهم واحدة، فبعضهم يُقوي بعضا"(11). و اللسان أقوى ما في جسم الإنسان فيما يخص الكلام، و اليد أقوى ما في جسم الإنسان فيما يخص الفِعل. فإذا ركبنا هذه المفردات،نحصل على نظم خاص وهذا يحيلنا إلى دراسة مايلي:

3 .3 .4 . التحليل التركيبي الثابت(النحوي) للحديث النبوي الشريف:

أركان الإسناد في الحديث هي كالآتي:

المسلم ← مبتدأ ← مسند إليه .

من ← إسم موصول (صفة).

سلِم ← فعل ← مسند.
المسلمون ← فاعل ← مسند إليه.
مِن ← حرف جر ← فضلة.
لسانه ← اسم مجرور ← فضلة.
الواو ← حرف عطف ← فضلة .
يده ← معطوف ← فضلة.
و الجملة الفعلية "مَن سلم المسلمون من لسانه و يده" في محل رفع خبر المبتدأ، كما أن الحديث عبارة عن جملة اسمية و هي التي عرفها ابن يعيش بقوله:"أما الجملة الاسمية، فأن يكون الجزء الأول منها اسما،كما سميت الجملة الأولى فعلية، لأن الجزء الأول منها فعل و ذلك نحو (زيد قام أبوه)"( )ج1 ،ص89و عليه فإن الحديث النبوي مكون من الآتي:
مبتدأ+اسم موصول+ فعل ماض+ فاعل+حرف جر+اسم مجرور+ حرف+اسم معطوف
وما يستخلص هو أن الجملة الاسمية في الحديث النبوي هي جملة حاملة لمعنى العلو و العظمة و القوة لأن الثابت في عرف الأشياء قوي دائمًا و المتغير ضعيف إذن فطبيعة التركيب النحوي يجب أن يتميز تبعًا لطبيعة الموضوع (5)ص145. ولو توقفنا عند هذا المستوى من التحليل، لما أفدنا تجلية المعنى المحوري المتوجه إليه حديث الرسول صلى الله عليه و سلم و لما مسكنا بأسرار التركيب النبوي، ما لم ندرس المستوى التركيبي المتغير حسب حال السامع و هو المستوى البلاغي.

3 .3 .5 . التحليل التركيبي المتغير(البلاغي) للحديث النبوي الشريف:

تبدو المفردات التي وردت في الحديث سهلة ذات تداول كثير، يفهمها المتلقي بسرعة، كما أن الجمل التي رُكب منها الحديث ميسورة و محكمة المعنى في آن واحد، فكان الحديث مثالا لنصاعة اللغة، و وضوح العبارة؛ حيث تحرى الرسول صلى الله عليه و سلم الكلام السهل الممتنع الذي يتميز بالسهولة و المتانة في آن واحد، و سهولة هذا الحديث تعود إلى :
1-استعمال ألفاظ ميسورة،ذات متداولة بكثرة مثل "مسلم- سلِم - لسان – يد".
2-اعتماد الجمل ذات التركيب السهل و المُحكم الممتنع. و هي تُعَدُ من جوامع الكلم الذي أوتيه الرسول صلى الله عليه و سلم من ربه.
و الملاحظ أن الرباط بين مفردات الحديث محكم غاية الإحكام، و مرتب، فمفردة "المسلم" تدل على العموم و الشمول، و جملة "من سلم المسلمون من لسانه و يده" تفيد التخصيص، فقد خُصَّ قول و فعل المسلم دون غيرهما من الصفات الأخرى. و مثل هذا التخصيص للسان و اليد مع عموم الإيذاء في جميع صوره و بأي عضو كان؛ قال تعالى:(*و الذين يوذون المومنين و المومنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا و إثما مبينا*)(1)الأحزاب/الآية58، لكن الحديث خصَّ اللسان و اليد لأنهما أكثر أعضاء الجسم إيذاءً يقول ابن حجر العسقلاني:"وخص اللسان بالذكر لأنه المعبر عما في النفس،وهكذا اليد لأن أكثر الأفعال بها،"( )ج1 ص 69 و السؤال المطروح: لماذا قُدم اللسان عن اليد؟

3 .3 .5 .1 . التقديم و التأخير:

قُدِّم اللسان على اليد لأنه أعظم و أخص عضو في الإنسان كما أن أكثر الأخطاء التي يرتكبها الإنسان تكون بسببه، و سلامته تكون بالابتعاد عن الكذب أو الحديث بكل ما يسمعه الإنسان أو ما ينقله من الأخبار قبل أن يتبين صدقها من كذبها قال تعالى: (*يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتُصبحوا على ما فعلتم نادمين*)(1)الحجرات/الآية6، و لقد رغب الرسول صلى الله عليه و سلم في

حفظ اللسان فقال:"من كان يؤمن بالله واليوم الآخرفليقل خيرا أوليصمت"(37) ص1316. و آفات اللسان كثيرة: كأن يذكر المسلم عيوب الناس سواء كانوا حاضرين أو غائبين، و هو ما يسمى "بالغتبة" التي هي أبشع من أكل لحم الإنسان و هو ميت قال تعالى:(*و لا يغتب بعضكم بعضا أيحبُ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه*)(1)الحجرات/الآية12 و هلم جرا من هذه الآفات التي تضُر المسلمين و المجتمع: كالنميمة، و قول الزور، و الكذب، و لعن المسلم، و سبه بغير حق، و المن بالعطية، و الافتخار....إلخ

فلعظمة أمر اللسان و خطورة دَوره قدَّمه الرسول صلى الله عليه و سلم عن اليد، لتنبيه السامع بحفظه يقول القسطلاني:"وعبر باللسان دون القول ليدخل فيه من أخرج لسانه استهزاء بصلحبه وقدمه على اليد لأن ايذاءه أكثر وقوعا وأشد نكاية... وخص اليد مع أن الفعل قد يحصل بغيرها لأن سلطنة الأفعال إنما تظهر بها إذ بها البطش والقطع والوصل والأخذوالمنع...والمراد من الحديث ماهو أعم من الجارحة كالاستيلاء على حق الغير من غير حق فإنه ايذاء لكن ليس باليد الحقيقية"(160)ص94.وهذا يدل على براعة اختيار تقديم اللسان عن اليد،وذكر الجارحتين بدل فعلهما ليُجمَع في المفردتين كل ايذاء يمكن أن يكون بهما، وهذا من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم.

"و من هنا ندرك أن من يتطلع إلى عورات الناس، أو يزعج راحتهم، و يكدر صفوهم أو ينتهك حرماتهم، أو يحتكر طعامهم، أو يُغلي الأسعار عليهم أو يُغير حدودهم، أو يوقع السوء بينهم، أو يُغرر بهم و يخدعهم، أو يقول فيهم بغيرعلم فهوغير مسلم"(161) ص33أو بالأحرى لايعد من أفضل المسلمين يقول الإمام البغوي :"قوله"من سلم المسلمون" أراد أن المسلم الممدوح ... من هذه صفته،لا أن الإسلام ينتفي عمن لم يكن بهذه الصفة،فهو كقولهم: الناس العرب، والمال الإبل يريد الأفضل منها،كذلك أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى:أداء حقوق المسلمين، و الكف عن أعراضهم"(162) ص27.

وما يؤكد هذا الكلام رواية أخرى للحديث يسأل فيها الصحابي:أي الإسلام أفضل؟ فيجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم:"من سلم المسلمون من لسانه ويده". يقول ابن حجر العسقلاني:"أجيب بأن فيه حذفا تقديره: أي ذوي الإسلام أفضل؟ ويؤيده رواية مسلم:أي المسلمين أفضل؟ و الجامع بين اللفظين أن أفضلية المسلم حاصلة بهذه الخصلة"( )ج1،ص70 و كل هذه المعاني الكثيرة حملتها مفردات الحديث النبوي القليلة، مما جعل هذا الإيجاز ميزة في معظم أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم، أي قلة الألفاظ مع كثرة المعاني.

2. 5. 3. 3 . الخاصية المميزة للحديث النبوي: النظم بتوخي معاني النحو.

نلاحظ ترتيب المفردات وفق نظم خاص أحكم و أبلغ من غيره، فالتركيب "المسلم من سلِم المسلمون من لسانه و يده" بدأ بالتعميم ثم التخصيص و لو غيَّرنا ترتيب هذه المفردات كأن نقول:

"من سلم المسلمون من لسانه و يده، المسلم".

أو زدنا أو حذفنا كأن نقول:

"المسلم هو من سلِم المسلمون من لسانه و يده".

"المسلم الذي سلِم المسلمون من لسانه و يده".

لتغير المعنى تبعًا لتغير الترتيب ، فقوله صلى الله عليه و سلم:"المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده" كان موجها لمن لا يعرف الخبر، فأفاده الرسول صلى الله عليه و سلم به، أما إذ قلنا "من سلم المسلمون من لسانه و يده هو المسلم" فإن الفعل معلوم لدى السامع و إنما الشيء المجهول هو الشخص الذي قام به؛ فتظهر دلالة الخطاب الأول و التي تختلف عن الأخريات في ميزتين ،الأولى هي:

- الجمع المطلق من غير استثناء.
- العموم على الإطلاق في الصفة في قوله:"المسلم"

أماالثانية فهي:

- الخصوص لا العموم.
- الجمع المحدود في قوله"من سلم المسلمون من لسانه ويده"

و منه يظهر جليًا أن الصيغة البيانية "المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده" أبلغ من مثيلاتها الأخرى لإحكام نظمها و تفرد تركيبها،وما هذا النظم إلا بتوخي معاني النحو فيما بين الكلم،فإذا تساءلنا عن سبب روعة هذا التركيب،وسر اهتزاز أنفسنا عند سماعه "فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدَّم وأخَّر، وعرَّف ونكَّر،وحذف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو"(35) ص85. وإن أول شيئ يروق السامع أن قال عليه السلام"المسلم" فعرَّفه ب"أل" ثم قال"من سلم المسلمون"تخصيصا للمبتدأ ،ثم أضاف"من لسانه"للمسلمين، وعطف اليد على اللسان، وقدم اللسان عن اليد وذكر الجارحتين بدل فعلهما .فجاءت المفردات مرتبة مع ملائمة معنى كل مفردة لمعنى التي تليها، وفق نظم خاص لتؤدي غرضا معينا فتترجم بذلك صدق صاحبها الذي شكلها بطريقته وذوقه، كيف لا؟ وقد أوتي النبي صلى الله عليه وسلم بلاغة فاقت غيره من البشر، وهذا راجع على هبة ربانية وظروف نشأته،فقد جعله الله عزوجل خاتم الرسل إلى البشر وآتاه من القدرات مايكون أهلا لأداء الرسالة،كما أنه تربى زمنا في البادية في"بني سعد"،فجمع فصاحة البادية إلى فصاحة لهجة قريش، وتجلى كل ذلك في خصوصيات نظمه للحديث النبوي الشريف.

وعليه فإن التحليل اللغوي لهذه الأحاديث كشف عن بعض أسرارنظم الحديث النبوي الشريف،بالإظافة إلى نتائج يمكن إيجازها في النقاط التالية:

1- لا ترادف بين مفردات الحديث النبوي الشريف وأنه لابد من البحث عن الفروق الدقيقة بينها لكي تكون الدراسة أثر دقة.
2- يتكون النظام اللغوي من مستويات متدرجة بحيث يعتمد كل مستوى على الآخر لمعالجة مسائله.
3- كشف جمالية الحديث النبوي راجع إلى مبدأربط النحو بالبلاغة لأن للنحو وظيفة بلاغية وبيانية والبلاغة تقوم على أساس النحو وفصلهما هو بمثابة فصل الروح عن الجسد.

الخاتمة

الحمد لله الذي وفقني للوصول إلى خاتمة هذه المذكرة بعد عامين من البحث في قسميها النظري و التطبيقي؛ حيث بينت في الأول: الأساس النظري لمبدأ ربط النحو بالبلاغة من حيث أهميته في ميدان التعليم و تحليل النصوص لإسقاطه في القسم التطبيقي على بعض الأحاديث المتواترة لفظًا و معنى التي ثبت قولها عن الرسول صلى الله عليه و سلم، و قد خرَّجتها من كتاب صحيح البخاري لأنه أصح الكتب التي تجعل الباحث يثق بنسبة هذه الأحاديث إلى الرسول صلى الله عليه و سلم و ذلك بإجماع علماء الأمة.
فدرست هذه الأحاديث من الناحية الصوتية و الإفرادية و التركيبية كما يتطلب منهج البحث و خطته، فجعلتني هذه الدراسة أتوصل إلى نتائج أذكر منها ما يلي:
أولا: إن علم النحو عبارة عن قواعد صاغها النحاة بعد أن تصوروا كيفية عمل الملكة، فهم لم يخترعوا شيئًا بل حاولوا اكتشاف النظام اللغوي للعربية فأثمر جهدهم نتائج طيبة.
ثانيا: هناك فرق بين النحو و علم النحو فالثاني هو علم بكيفية لا الكيفية نفسها كما لابد من التفريق بين النحو العلمي والنحو التعليمي.
ثالثا: هناك فرق جوهري بين البلاغة و علم البلاغة؛ فالبلاغة هي ممارسة فعلية للكلام البليغ، و علم البلاغة هو نظرة موضوعة للكلام البليغ.
رابعًا: علم النحو يدرس الجملة كبنية ساكنة لإقامة السلامة النحوية وافقت المعني أو خالفته، دون النظر إلى حال السامع أو سياق الكلام.
خامسًا: علم البلاغة يدرس الجملة في إطار الإفادة حسب حال السامع في سياق الكلام.
سادسًا: علاقة النحو بالبلاغة علاقة تكامل بحيث لا يستغني أحدهما عن الآخر، و ما الفصل بينهما إلاَّ لضرورة التخصص العلمي، أما في الاستعمال اللغوي فالربط أوجب لبيان وظيفة اللغة الأساسية و هي الإبلاغ.
سابعا: مبدأ ربط النحو بالبلاغة هو مبدأ راسخ في نظرية النظم.
ثامنًا: مستويات النظام اللغوي (الصوتي و الإفرادي و التركيبي) منسجمة فيما بينها بحيث يعتمد كل مستوى على نتائج الآخر.
تاسعًا: إن الحديث النبوي الشريف خطاب تجانست فيه مستويات النظام اللغوي لتجعل منه خطابا خالدًا على مرَّ الأزمان؛ لأسرار كامنة في حسن اختيار الأصوات و المفردات و التراكيب التي تلائم السياق و تراعي أحوال المخاطبين.
عاشرًا: يُعتبر الحديث النبوي الشريف ثروة لغوية غير مستثمرة كما ينبغي في التطبيقين النحوي و البلاغي، لذلك أرفع دعوة:
أولاً:النهوض بعلم الحديث و نشره، و تيسير الإفادة منه، فقد لاحظت قلة المهتمين بهذا العلم، و أن من مات منهم لا يخلفه من يسد مكانه.
ثانيا: تحفيز الطلبة و الباحثين على دراسة مدونة الحديث لغويًا لعلهم يكتشفون أمورا جديدة و يطلعون على سر فصاحة النبوة.

ثالثًا: من واجبنا كمسلمين أن نعرف كيف نحسن فهم السنة النبوية الشريفة، و كيف نتعامل معها فقهًا و سلوكًا، و هذا لن يكون إلاّ بإعطاء الجانب اللغوي حقه من الدراسة حتى نحافظ على السنة صافية نقية، و مفهومة واضحة،غير محرفة ولا مشبوهة.

تمَّ الكلام و ربنا محمود و له العُلا في فضله و الجُود

والله من وراء القصد،فاجعله اللهم خالصا لوجهك الكريم، وأثقل به ميزان أعمالنا الصالحة والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

ديسمبر 2007م.

المُلحق

أولاً: الأحاديث المتواترة المتفق عليها برواية البخاري:

1- حدثنا عليُّ بنُ الجعْد قال أخبرنا شُعبةُ قال أخبرني منصور قال سمعتُ ربْعيَّ بنَ حِراشٍ يقول: سمعتُ عليًا يقول: قال النبي صلى الله عليه و سلم:"لا تكذبوا عليَّ، فإنَّه من كذب عليَّ فليلج النار". [37]ص39
2- حدثنا أبو الوليد قال حدَّثنا شُعبَةُ عن جامع بنِ شدَّادٍ عن عامر بنِ عبد الله ابنِ الزُبير عن أبيه قال: قلتُ للزُّبير: إني لا أسمَعُكَ تُحدِّث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم كما يُحدِّث فُلانٌ و فلانٌ، قال: أما إني لم أفارقهُ، و لكن سَمعتُه يقول:"من كذب عليَّ فليتبوأ مقعده من النار".(37)ص39
3- حدثنا أبو مَعْمَرٍ قال حدَّثنا عبدُ الوارث عن عبد العزيز قال أنس: إنه ليمنعُني أن أُحدِثكُم حديثًا كبيرًا أن النبي صلى الله عليه و سلم قال:"من تعمد عليَّ كَذِبًا فليتبوأ مقعده من النار".(37)ص39
4- حدّثنا مَكيُّ بنُ إبراهيمَ قال حدثنا يزيدُ بنُ أبي عُبيدٍ عن سَلَمَة قال: سَمِعتُ النبي صلى الله عليه و سلم يقول:"من يَقُل عليَّ ما لم أقُل فليتبوأ مقعَدَه من النار".(37)ص39
5- حدثنا موسى قال أبو عوانة عن أبي حصينٍ عن أبي صالحٍ عن أبي هُريرة عن النبي صلى الله عليه و سلم قال:"تَسمَّوا باسْمِي، و لا تَكتَنوا بَكُنيتي. و من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي، و من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار".(37)ص39
6- حدَّثنا عبد الله بنُ يُوسُف أخبرنا مالِكٌ عن ابنِ شِهابٍ عن أبي سَلَمَة بن عبد الرحمن أنَّ عائشة قالت: سُئل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن البِتْع فقال:"كلُّ شَرابِ أسْكَر فهو حرام".(37)ص1177
7- حدَّثنا أبو اليمان أخبرنا شُعَيبٌ عن الزُّهري قال: أخبرني أبَو سَلَمَة بُن عبد الرحمن أن عَائشة رضي الله عنها، قالت: سئُل رسول الله صلى الله عليه و سلم عن البِتعِ و هو نبيذ العسل، و كان أهل اليمن يَشربُونَهُ فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم :"كل شراب أسكر فهو حرامٌ".(37)ص1177
- حدثنل علي بن عبد الله قال:حدثنا الزهري عن أبي سلمة،عن عائشة،عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"كل شراب أسكر فهو حرام"(37)ص65
9- حدثني إسحاق، حدَّثنا النَّضرُ، أخبرنا شُعبَةُ، عن سعيد بن أبي بُردَةَ، عن أبيه عن جدِّه، قال: لما بعثه رسول الله صلى الله عليه و سلم و مُعاذ بن جبل قال لهما:"يسِّرا و لا تُعسِّرا و بشِّرا و لا تنفِّرا و تطاوعا". قال أبو مُوسى: يا رسول الله إنَّا بأرض يُصنَعُ فيها شراب من العَسَلِ يقال له: البِتعُ و شراب من الشعير يقال له: المِزر فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم:"كل مُسكِر حَرامٌ".(37)ص1257
10- حدثنا محمد بن بشار، حدثنا العَقَدِيُّ، حدَّثنا شُعبة، عن سعيد أبي بُردَةَ قال: سَمعتُ أبي قال: بعث النبي صلى الله عليه و سلم أبي و معاذ بن جبل إلى اليمن، فقال: "يسِّرا و لا تُعسِّرا و بشِّرا و لا تنفِّرا و تطاوعا". فقال له أبو مُوسى: إنه يصنع بأرضنا البِتعُ فقال:"كل مُسكِر حَرامٌ".(37)ص1432
و قال النَّضر و أبو داود و يزيد بن هارون و وكيع عن شُعبه، عن سعيد عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه و سلم.

11- حدثنا آدم بنُ أبي إياسٍ قال: حدثنا شُعبة عن عبد الله بن أبي السَّفر و إسماعيل، عن الشَّعبي، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه و سلم قال:"المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده، و المهاجر من هجر ما نهى الله عنه" و قال أبو عبد الله و قال أبو مُعاوية: حدثنا داود عن عامرٍ قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه و سلم، و قال عبد الأعلى: عن داود، عن عامر عن عبد الله، عن النبي صلى الله عليه و سلم.(37)ص15

12- حدثنا سعيد بن يحي بن سعيد القُرَشِيُّ قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أبو بُردَةَ بن عبد الله بن أبي بُردَةَ، عن أبي بُردَةَ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، أيُ الإسلام أفضلُ؟ قال:"من سلم المسلمون من لسانه و يَده".(37)ص15

13- حدثنا أبو نُعيمٍ، حدثنا زكريا، عن عامر سَمِعتُ عبد الله بن عمرو يقول: قال النبي صلى الله عليه و سلم :"المسلم من سلِم المسلمون من لسانه و يده و المهاجرُ من هجر ما نهى الله عنه".(37)ص1317

ثانيا: رسومات الجهاز النطقي(163) ص103،106

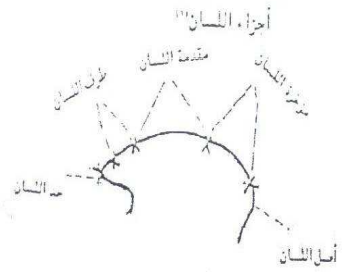

01- أجزاء اللسان

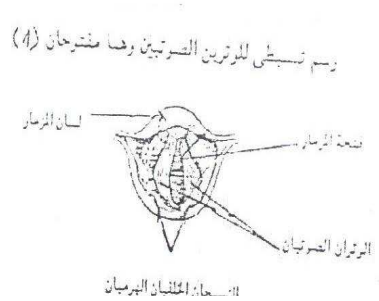

03 - رسم تبسيطي للوترين الصوتيين و هما مفتوحان

02-أقسام سقف الفم

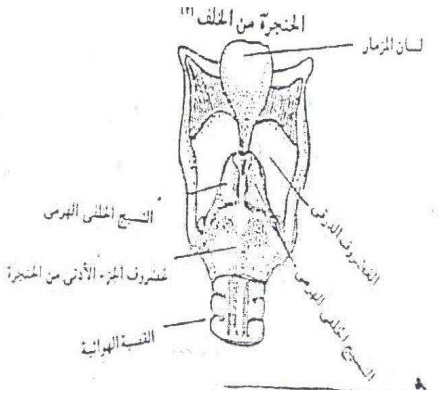

04 - الحنجرة من الخلف

05- مكونات جهاز النطق(164)ص52

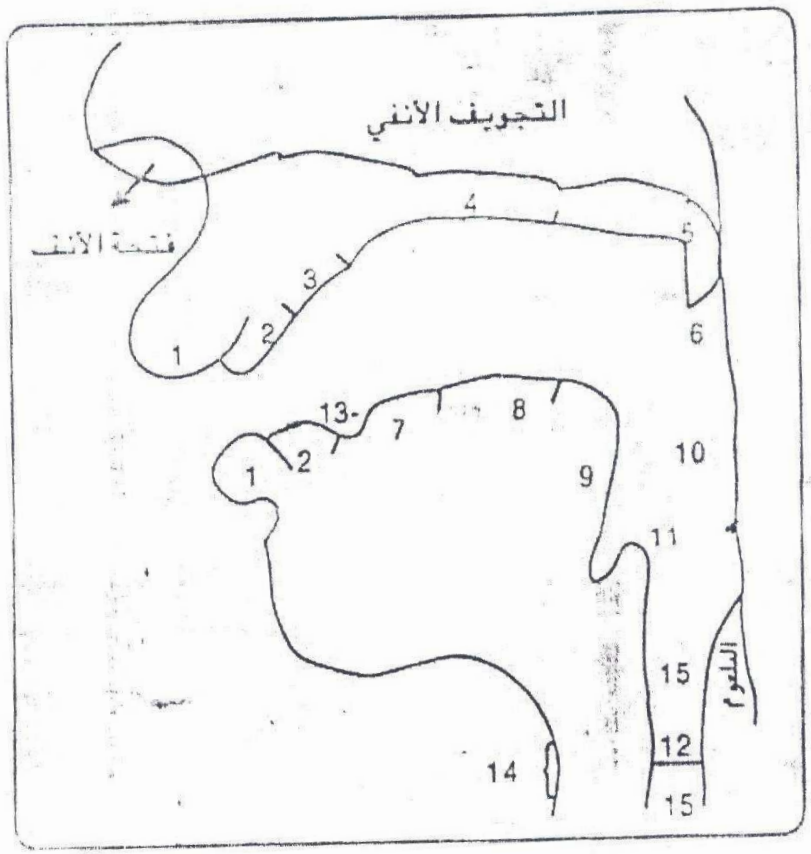

1- الشفاه
2- الأسنان
3- أصول الأسنان
4- الحنك الصلب
5- الحنك اللين
6- اللهاة
7- طرف اللسان
8- مقدم اللسان
9- مؤخر اللسان
10- الحلق
11- لسان المزمار
12- موقع الأوتار الصوتية
13- ذلق اللسان
14- منعقة الحنجرة
15- القصبة الهوائية

06- مخارج الحروف العربية (164)ص56

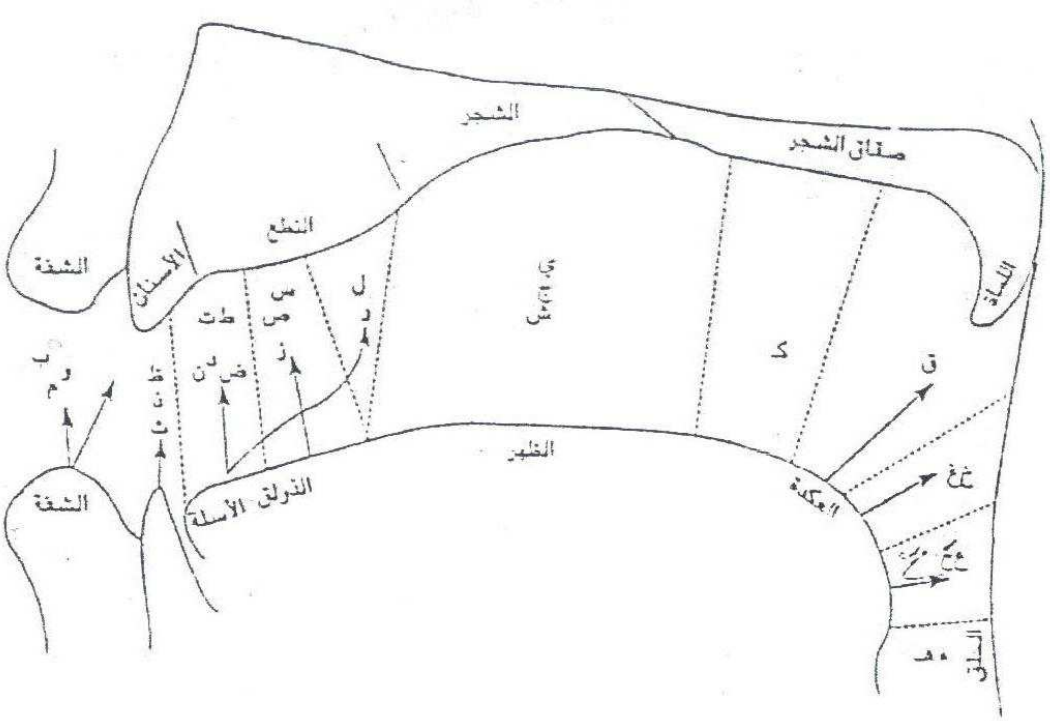

قائمة المراجع

1- القرآن الكريم، مصحف المدينة المنورة، وفق رواية ورش عن الإمام نافع، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.
2- أبوالفتح عثمان بن جني،" الخصائص"، تحقيق: محمد علي النجار، طبعة2، دون سنة النشر.
3- جعفر دك الباب،"الموجز في شرح دلائل الإعجاز"، مطبعة الجليل، طبعة1، دمشق، (1980).
4- عبد الرحمن بن خلدون،" المقدمة"، دار الفكر، لبنان، (2002).
5- عمار ساسي، "اللسان العربي و قضايا العصر"، دار المعارف،دون طبعة، البليدة،(2000)
6- عمارساسي:"المصطلح في اللسان العربي من الفهم إلى الإستعمال"، محاضرة ألقيت في جامعة سوسة،،تونس،(2006).
7- محمد الصغير بناني،" المدارس اللسانية في التراث العربي و في الدراسات الحديثة"، دار الحكمة دون طبعة، الجزائر،(2001).
8- حلمي علي مرزوق،" محاضرات في فلسفة البلاغة العربية"، مكتب كريرية إخوان، دون طبعة بيروت،(1982).
9 - إسماعيل بن حمَاد الجوهري،" الصحاح(تاج اللغة و صحاح العربية)"، تح: أحمد عبد الغفار عطَّار دار العلم للملايين، طبعة2، بيروت،(1979).
10- أحمد بن محمد الفيومي،"المصباح المنير"،المكتبة العصرية،دون طبعة،لبنان،دون سنة النشر.
11- أبو الفضل بن منظور،" لسان العرب"، تح و تعليق: مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، طبعة3، لبنان،(1993).
12- أبو القاسم الزجاجي،" الإيضاح في علل النحو"، تح: مازن المبارك، دار النفائس، طبعة3، بيروت ،(1979).
13- أبو يعقوب السكاكي،" مفتاح العلوم"، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية،طبعة1، لبنان (2000) .
14- عبد الرحمن الحاج صالح،" التحليل العلمي للنصوص: بين علم الأسلوب و علم الدلالة، و البلاغة العربية"، مجلة المبرز، المدرسة العليا للآداب و العلوم الإسلامية، العدد 6، جويلية-ديسمبر، الجزائر 1995).
15- عبد الرحمان الحاج صالح،"تكنولوجيا اللغة و التراث اللغوي العربي الأصيل"،مجلة بحوث و دراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر،الجزائر،(1999)
16- عمار ساسي،"المدخل إلى النحو و البلاغة في إعجاز القرآن الكريم"، دار المعارف، البليدة،دون طبعة،(2005)
17- أحمد ماهر البقري،" النحو العربي (شواهده و مقدماته)"، مؤسسة شباب الجامعة، مصر، دون طبعة (1977).

18- عبد القاهر الجرجاني،" كتاب المقتصد في شرح الإيضاح"، تح: كاظم بحر مرجان، منشورات وزارة الثقافة و الإعلام، الجمهورية العراقية،دون طبعة ،(1982).
19- أبو محمد بن قتيبة،" مشكل تأويل القرآن"، شرحه و نشره: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية لبنان، طبعة3، (1981).
20- الرضي الإستربادي،" شرح كافية ابن الحاجب"، شرح و تحقيق: عبد العال سالم مُكرم، عالم الكتب القاهرة، طبعة1، (2000).
21- موفق الدين بن يعيش،" شرح المفصل"، عالم الكتب، دون طبعة، بيروت،دون سنة النشر.
22- عبد الله عنبر،" علامة الإعراب: مقاربة بنائية بين تحولات المعنى و تشكيل النص"، مجلة الدراسات للعلوم الإنسانية و الإجتماعية، المجلد 25، العدد 1،(1998).
23- سالم علوي،" وقائع لغوية و أنظار نحوية"، دار هومة، الجزائر،دون طبعة،(2000).
24- السيد الشريف الجرجاني،" التعريفات"، تح: عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب،لبنان، طبعة1، (1996).
25- أبو حيان التوحيدي،"الإمتاع و المؤانسة"، صححه: أحمد أمين و أحمد الزين، المكتبة العصرية، دون طبعة، لبنان،دون سنة النشر.
26- جلال الدين السيوطي،"الإتقان في علوم القرآن"،عالم الكتب،دون طبعة، بيروت، دون سنة النشر.
27- عبد العزيزعتيق،" المدخل إلى علم النحو و الصرف"، دار النهضة العربية، دون طبعة، بيروت، دون سنة النشر.
28- - محمدالطنطاوي،" نشأة النحو العربي و تاريخ أشهر النحاة"،دون طبعة ،دون سنة النشر.
29- صلاح الروّاي،" النحو العربي: نشأته، تطوره، مدارسه، رجاله"، دار غريب للطباعة، دون طبعة القاهرة، (2003).
30- عصام نور الدين،" تاريخ النحو (المدخل، النشأة و التأسيس)"، دار الفكر اللبناني، طبعة1،(1995).
31-تمام حسان،"الأصول- دراسة ابستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي"،دار الثقافة،دون طبعة،القاهرة،(1991).
32- مصطفى حميدة،" نظام الإرتباط و الربط في تراكيب الجملة العربية"، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان،طبعة1،مصر،(1997).
33- خميس حسن الملخ،" التفكير العلمي في النحو العربي"، دار الشروق للنشر و التوزيع،دون طبعة الأردن،دون سنة النشر.
34- مهدي المخزومي،" في النحو العربي –نقد و توجيه"، دار الرائد العربي،طبعة2،لبنان، (1986).
35- عبد القاهر الجرجاني،" دلائل الإعجاز"، تعليق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني،طبعة3 ،القاهرة (1992).
36- محمد حماسة عبد اللطيف،"النحو و الدلالة –نقد و توجيه- مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي"، دار الشروق،طبعة1،القاهرة،(2000).
37- محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، تح: طه عبد الرءوف سعد، الدار الذهبية، دون طبعة القاهرة،دون سنة النشر.
38-Georges Mounin, "dictionnaire de la linguistique", Quadrige, Presses Universitaires de France, Paris, Juillet,(2000

39- محمد جمال الدين القاسمي،" قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث"، دار الكتب العلمية،طبعة1،لبنان،(1979)
40- أمين الخولي،"مناهج التجديد في النحو و البلاغة والتفسير والأدب"، دار المعرفة، طبعة1،(1961).
41-- ديان لارسن فريمان،" أساليب ومبادئ في تدريس اللغة"، ترجمة عائشة موسى سعيد، النشر العلمي و المطابع، جامعة الملك سعود،دون طبعة، المملكة العربية السعودية،(1985).
42- فتيحة بن عمار،" دراسة تحليلية تقويمية لأنواع التمارين النحوية للسنة السادسة من التعليم الأساسي و اقتراح أنماط جديدة بناء على النظرية الخليلية الحديثة"، رسالة لنيل درجة الماجستير في اللسانيات التعليمية، المدرسة العليا للآساتذة في الأدب و العلوم الإنسانية، مارس 2003م، (لم تنشر).
43- عبد الرحمان الحاج صالح،"الأسس العلمية و اللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي"،مجلة بحوث و دراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر،الجزائر،(2007)
44- أحمد بن فارس،" مقاييس اللغة"، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجليل،دون طبعة، بيروت،دون سنة النشر.
45- أبو عمربن عبد ربه الأندلسي،" العقد الفريد"، شرح و ضبط: أحمد أمين و أحمد الزين و إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي،دون طبعة، لبنان،(1982).
46- عبد القادر حسين،" أثر النحاة في البحث البلاغي"، دار النهضة للطبع و النشر، الفجالة،دون طبعة، القاهرة،دون سنة النشر.
47- أبو عثمان عمرو بن بحرالجاحظ،"البيان والتبيين"،تقديم:نهاد نورالدين جرد،منشورات وزارة الثقافة،دون طبعة،دمشق،(2001).
48- الخطيب القزويني،" الإيضاح في علوم البلاغة"، شرح و تعليق: محمد عبد المنعم الخفاجي، الشركة العالمية للكتاب،دون طبعة،بيروت،دون سنة النشر.
48- أحمد مصطفى المراغي،" علوم البلاغة(المعاني والبيان والبديع)" ، دار الكتب العلمية، طبعة3 بيروت،(1993).
49- أبو هلال العسكري،" الصناعتين (الكتابة و الشعر)"، تح: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية،دون طبعة، صيدا، بيروت،دون سنة النشر.
50- عبد العزيز عتيق،" في تاريخ البلاغة العربية"، دار النهضة العربية،دون طبعة، بيروت، دون سنة النشر.
51- محمد الصغير بناني،" البلاغة و العمران عند ابن خلدون"، ديوان المطبوعات الجامعية، دون طبعة الجزائر،(1996).
52- أمين بكري الشيخ،"البلاغة العربية في ثوبها الجديد- علم المعاني"، دار الملايين، طبعة1 بيروت،(2001).
53- عبد الرحمان الحاج صالح،"النظرية الخليلية الحديثة"، مجلة اللغة و الأدب، العدد 10،(1990).
54- محمد درازالطنطاوي،" في أصول اللغة"، مكتبة نهضة الشرق،دون طبعة، جامعة القاهرة، دون سنة النشر.
55- عبد القادر حسين،"المختصر في تاريخ البلاغة"، دار الشروق، طبعة1، (1982).
56-السخاوي،" المقاصد الحسنة" ،دون طبعة،القاهرة،(1956).
57- مصطفى صادق الرافعي،" إعجاز القرآن و البلاغة النبوية"، راجعه و اعتنى به: درويش الجويدي المكتبة العصرية،دون طبعة، صيدا، بيروت، (2004).

58- حسين الحاج حسن: النقد الأدبي في آثار أعلامه، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، طبعة1، بيروت، (1996).
59- ابن حجرالعسقلاني،" فتح الباري بشرح صحيح البخاري"،تح:عبد العزيزعبد الله بن باز،دار الحديث دون طبعة، القاهرة، دون سنة النشر.
60- - مصطفى الصاوي الجويني،" البلاغة المقارنة"، دار المعرفة الجامعية،دون طبعة، اسكندرية (1995)
61- أحمد أبو حاقة،" البلاغة و التحليل الأدبي"، دار العلم للملايين،طبعة3،بيروت،(1996).
62- خديجة السايح،" مناهج البحث البلاغي في النصف الأول من القرن العشرين في مصر"، منشأة المعارف بالاسكندرية،دون طبعة، مصر،(2000).
63- الطاهرقطبي،" بحوث في اللغة –الإستفهام بين النحو و البلاغة (دراسة مقارنة)"، ديوان المطبوعات الجامعية، القسم الثالث، سلسلة الدروس في اللغات و الآداب،دون طبعة، الجزائر،دون سنة النشر.
64- عبد السلام شقروش،"سبل الإستفادة من النظرية التوليدية التحويلية لإعادة صياغة نظرية النحو العربي"،مجلة أعمال ندوة تيسير النحو،الجزائر،2001).
65- محمد علي بن علي التهانوي،" كشَّاف اصطلاحات الفنون"، دار الكتب العلمية،طبعة1، بيروت لبنان،(1998)
66- عبد الرحمان الحاج صالح،" الجملة في كتاب سيبويه"، مجلة المُبرز، المدرسة العليا للآداب و العلوم الإنسانية، العدد 4،الجزائر، (1995).
67-R .Galisson et D. Coste," Dictionnaire de didactique des langues", Librairie Hachette,(1976).
68- عبد الرحمان الحاج صالح،"مدخل إلى علم اللسان الحديث: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية"، مجلة بحوث و دراسات في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر ،(2007).
69- ممدوح عبد الرحمن،" من أصول التحويل في نحو العربية"، دار المعرفة الجامعية،دون طبعة، مصر،دون سنة النشر.
70- مخلوف بلعلام،" ظاهرة التقدير في كتاب سيبويه"،بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه،جامعة بن يوسف بن خدة بالجزائر،كلية الآداب و اللغات،2003/2002 م(لم تنشر).
71- عبد القادرالمهيري،"نظرات في التراث اللغوي"، دار العرب الإسلامي،دون طبعة،(1993).
72- ابن هشام الأنصاري،" شرح قطر الندى و بل الصدى"، تأليف: بركات يوسف هبود، دار الفكر، دون طبعة، لبنان، (2001).
73- عبد الرحمان الحاج صاح،" المدرسة الخليلية الحديثة و مشاكل علاج العربية بالحاسوب"،مجلة بحوث ودراسات في اللسانيات العربية،موفم للنشر،الجزائر، (2007).
74- نصر حامد أبوزيد،" إشكاليات القراءة و آليات التأويل"، المركز الثقافي العربي، دون طبعة،(1996)
75- عبد القاهر الجرجاني، "أسرار البلاغة"، تح:محمود محمد شاكر، تح:محمود محمد شاكر،دار المدني بجدة،طبعة1،(1991).
76- عبد الواحد وافي،" فقه اللغة"، دار النهضة، الفجالة،دون طبعة، مصر،دون سنة النشر.
77- جلال الدين السيوطي،" الإقتراح"، طبع حيدر آباد،دون طبعة،(1984)
78- أبو بكر بن السراج،"الأصول في النحو"، طبعة4،لبنان،(1999).

79- عبد الفتاح لاشين،" التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر"، دار المريخ، دون طبعة المملكة العربية السعودية،دون سنة النشر.
80- إبراهيم مصطفى،" إحياء النحو"، دار الآفاق العربية، دون طبعة، القاهرة، (2003).
81- أحمدشامية،" خصائص العربية و الإعجاز القرآني (نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية)"، ديوان المطبوعات الجامعية،دون طبعة، الجزائر، (1995).
82- جعفر دك الباب،" النظرية اللغوية العربية الحديثة"،منشورات إتحاد كتاب العرب،دون طبعة،(1996).
83- صالح بلعيد،" التراكيب النحوية و سياقاتها المختلفة عند الإمام عبد القاهر الجرجاني"، ديوان المطبوعات الجامعية،دون طبعة، الجزائر،(1994).
84- عبد القادر حسين،" المختصر في تاريخ البلاغة"، دار الشروق، طبعة1، (1982).
85- أبو بشر عمرو بن قنبر سيبويه،" الكتاب"، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة،طبعة3، (1988).
86- أحمد مطلوب،"بحوث لغوية"، دار الفكر،طبعة1،عمان،(1984).
87- عبد القادرالمهيري،" مساهمة في التعريف بأراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة و البلاغة"، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، العدد 11، (1974).
88- ابن المقفع،" رسائل البلغاء"، تح: محمد كُرد علي،طبعة4،القاهرة،(1954).
89- محمد محمد أبو موسى،" دراسة في البلاغة و الشعر"، مكتبة وهبة،طبعة1،القاهرة،(1991).
90- أحمد مطلوب،" معجم المصطلحات البلاغيةوتطورها(عربي-عربي)"، مكتبة لبنان، طبعة2، لبنان، (1996)
91- حاتم الضامن،"نظرية النظم"،منشورات وزارة الثقافة والإعلام،دون طبعة،،بغداد،(1979).
92- أحمد مومن،"اللسانيات:النشأة والتطور"،ديوان المطبوعات الجامعية، دون طبعة،(2002)
93- - محمد بركات أبو علي،" دراسات في الأدب"، دار وائل للطباعة و النشر، طبعة1، عمان (1999).
94- محمد العيد رتيمة،" دراسة لغوية لمفهوم الآية في القرآن الكريم"، مذكرة لنيل شهادة دكتوراه الدولة جامعة الجزائر، معهد اللغة العربية و آدابها، 1993/1992م، (لم تنشر)
95- محمد زكي العشماوي،" قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث"، دار النهضة العربية، دون طبعة بيروت،(1979).
96- درويش الجندي،"نظرية عبد القاهر في انظم"،مكتبة نهضة مصربالفجالة،دون طبعة،(1960)
97- ممدوح عبد الرحمان،"العربية و الفكر النحوي"،جامعة الإسكندرية،دون طبعة،(1996)
98- سعد، سليمان حمودة،" البلاغة العربية"، دار المعرفة الجامعية،دون طبعة، جامعة الإسكندرية،(1996).
99- شريف صلاح الدين،"تبسيط مصطلح الحديث"،دار الدعوة الإسلامية،دون طبعة،مصر،(2005).
100- مجمع اللغة العربية،" المعجم الوسيط"، دار الدعوة بتركيا،دون طبعة،مصر،(1989).
101- محمدالدسوقي،" منهج البحث في العلوم الإسلامية"، دار الأوزاعي، طبعة1، (1984).
102- صحيح مسلم بشرح الإمام محي الدين النووي المسمى،"المنهاج"،تح:الشيخ خليل مأمون شيحا،دار المعرفة،طبعة5،لبنان،(1998).

103- محمد عجاج الخطيب،" الوجيز في علوم الحديث"، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية،دون طبعة، الجزائر، (1989).
104- عبد الرحمن طالب ،" السنة عبر العصور"، ديوان المطبوعات الجامعية،طبعة2،الجزائر،دون سنة النشر.
105- أبو داود سليمان بن الأشعث السجتاني،" سنن أبي داود"، مطبعة مصطفى البابي الحلبي،دون طبعة،مصر،(1952).
106- أحمد سعدي،" البناء اللغوي في البيان النبوي من خلال المتواتر لفظًا"، مذكرة ماجستير في اللغة العربية، جامعة سعد دحلب بالبليدة، كلية الآداب و العلوم الاجتماعية، 2002/2001م، (لم تنشر)
107- محمود الطحَّان،" تيسير مصطلح لحديث"، مكتبة المعارف،دون طبعة، الرياض، (1981).
108- أحمد بن حنبل الشيباني،"مسند الإمام أحمد"،تح: أحمد محمد شاكر، طبع دار المعارف، دون طبعة القاهرة،دون سنة النشر.
109- أبو البقاءالكفوي،"الكليات"،مؤسسة الرسالة،طبعة2، (1993)
110- أبو عيسى الترمذي،" الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي"،تح: مصطفى محمد حسين الذهبي،دار الحديث،طبعة1،القاهرة، (1999) .
111- يوسف خليف،" دراسات في القرآن و الحديث"، مكتبة غريب،دون طبعة، القاهرة،دون سنة النشر.
112- طاهر الجزائري،"توجيه النظر إلى أصول الأثر"،مكتبة المطبوعات الإسلامية،طبعة1،سوريا، (198).
113- بدر الدين بن جماعة،" المنهل الرَّوي في مختصر علوم الحديث النبوي"، تح: محمد الدين عبد الرحمن رمضان، دار الفكر،طبعة2،دمشق،سوريا، (1986).
114- مصطفى سعيد الخن و بديع السيد اللحَّام،" الإيضاح في علوم الحديث و الإصطلاح"، دار العلم الطيب،طبعة4،بيروت، (2003)
115- محمد بن أبي الفيض مولانا جعفر الشهير بالكتاني،" نظم المتناثر من الحديث المتواتر"،دار الكتب العلمية،طبعة1،بيروت،لبنان،(1983).
116- نصر سلمان،"الموجز في علوم الحديث"، دار الهدى،دون طبعة، الجزائر،(2003).
117- جلال الدين السيوطي،" تدريب الراوي"، تح: عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة القاهرة،طبعة1 مصر،(1959).
118- محمد الصبَّاغ،" الحديث النبوي(مُصطلحه، بلاغته، كتبه)"، المكتب الإسلامي،طبعة4،دمشق، (1982).
119- ابن الصلاح،" مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث"، دار الهدى،دون طبعة، الجزائر، (1991).
120- ابن حجر العسقلاني،" نزهة النظر –شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر"، حقق و علَّق عليه: عمرو عبد المنعم، مكتبة ابن تيمية،طبعة1،القاهرة،دون سنة النشر.
121- الفاضل أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين،" فتح المغيث شرح ألفية الحديث"، دار الكتب العلمية،طبعة1، بيروت، لبنان، (1993).
122- أبو البقاء العكبري،" إعراب الحديث النبوي"، تح: عبد الإله نبهان، دار الفكر،دون طبعة، دمشق سوريا،(1989).
123- الشريف الرضي،" المجازات النبوية"، تح: طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي و شركاه،دون طبعة، القاهرة،دون سنة النشر.

124- الإتحاد الأممي للجامع العلمية،"المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي"،مطبعة بريل في مدينة ليدن،دون طبعة،(1967)
125- مهدي المخزومي،" في النحو العربي –نقد و توجيه"، دار الرائد العربي،طبعة2،لبنان،(1986).
126- نبيلة بن قويدرو سارة تيتان،" دراسة لغوية لبعض الأحاديث النبوية المتواترة لفظًا و معنى"، مذكرة لنيل شهادة ليسانس تخصص لغة، جامعة سعد دحلب، قسم اللغة العربية و آدابها، 2003/2002م.(لم تنشر)
127- محمود السعران،" علم اللغة(مقدمة للقارئ العربي)"، دار النهضة العربية،دون طبعة، بيروت، لبنان،دون سنة النشر.
128- الخليل بن أحمد الفراهيدي،" العين"، تح: عبد الله درويش، مطبعة المعاني،طبعة1،بغداد،(1967)
129- إياد الحصني،"معاني الأحرف العربية"،دون طبعة،(2006).
130- الإمام مالك،"الموطأ"،دار الفكر،طبعة1،بيروت،(1991.)
131- مصطفى حركات،" الصوتيات و الفنولوجيا"، دار الآفاق،دون طبعة، الجزائر،دون سنة النشر.
132- كمال بشر محمد،" علم اللغة العام (أصوات اللغة العربية)"، دار المعارف،طبعة2، مصر، (1973)
133- أبو بكر الجزائري،"منهاج المسلم"،دار الغد الجديد،طبعة1،مصر،(2005.)
134- مجد الدين الفيروز أبادي،" القاموس المحيط"، الهيئة المصرية للكتاب،دون طبعة، (1977).
135- عبد العليم بوفاتح،" آراء و أفكار حول الجملة الشرطية في العربية"، مقالة نُشرت في مجلة اللغة العربية، العدد 14، الجزائر، شتاء(2005).
136- ابن هشام جمال الدين الأنصاري،"رسالة المباحث المرضية "،دارابن كثير،طبعة1،دمشق،(1987).
137- محمد خان،" الإعجاز ... و نظرية النظم لدى الجرجاني أو الخطاب من الإبلاغ إلى الخلود"، مجلة التواصل، العدد 8، جوان 2001م.
138- المختار في القواعد و البلاغة و العروض،المعهد التربوي الوطني،دون طبعة، الجزائر،دون سنة النشر.
139- شرف الدين علي الراجحي،" مصطلح الحديث و أثره على الدرس اللغوي عند العرب"، دار النهضة العربية،طبعة1، بيروت،(1983).
140- الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البُستي،" روضة العقلاء و نزهة الفضلاء"، شرح و تحقيق: محمد مُحي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية،دون طبعة، بيروت،دون سنة النشر.
141- أحمد كشك،" وظائف الصوت اللغوي محاولة لفهم صرفي و نحوي و دلالي"، دار المعارف،طبعة1،القاهرة،(1983).
142- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه،" الكتاب"، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة،طبعة3، (1988).
143- عائشة عبيزة،" الدلالة التركيبة و القرائن النحوية – دراسة لأسلوب الشرط- (سورة البقرة نموذجًا)"، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الدراسات اللغوية، جامعة الجزائر، 2001/2000م.(لم تنشر)
144- خليل عودة أبو عودة،" بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين"، دار البشير للنشر و التوزيع،طبعة2،عمان، (1994).
145- خليل حلمي،" مقدمة لدراسة اللغة"، دار المعرفة الجامعية،دون طبعة، الإسكندرية،(1997)
146- سعد سليمان حمودة،" البلاغة العربية"، دار المعرفة الجامعية،دون طبعة، جامعة الإسكندرية،(1996).

147- محمد مرتضى الحسيني الزُبيدي،" لقط اللآلئ المتناثرة في الأحاديث المتواترة"، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،طبعة1، لبنان، (1985).
148- عبد القادر عبد الجليل،" الأصوات اللغوية"، دار صفاء للنشر و التوزيع،طبعة1، عمان، الأردن، (1998).
149- أبو الفتح عثمان بن جني،" سر صناعة الإعراب"، دار القلم،دون طبعة، دمشق،دون سنة النشر.
150- ابن قيم الجوزية،" روضة المحبين و نزهة المشتاقين"، دار الفكر،طبعة1، لبنان، (2004).
151- عمارساسي،" الإعجاز البياني في القرآن الكريم-دارسة تطبيقية في آيات المحكمات العبادات و العاملات"، دار المعارض، دون طبعة،الجزائر، (2004)
152- الإمام مسلم،" صحيح مسلم"، دار الكتب العلمية،دون طبعة، بيروت، لبنان،دون سنة النشر.
153- أحمد الهاشمي،"جواهر البلاغة"،دار إحياء التراث،دون طبعة، بيروت، دون سنة النشر.
154- حسام البهنساوين" التراث اللغوي العربي و علم اللغة الحديث"، مكتبة الثقافة الدينية، طبعة1، (2004).
155- صبحي التميمي،" هداية السالك إلى ألفية ابن مالك"، دار البعث، طبعة2،(1990).
156- بسام بركة،"علم الأصوات العام(أصوات اللغة العربية)"،مركز الأغاني القومي، دون طبعة، لبنان، دون سنة النشر.
157- محمد مرتضى الحسيني الزُبيدي،" تاج العروس من جواهر القاموس"، دار الحياة، دون طبعة، دون سنة النشر.
158- أبو الأعلى المودودي،"مبادئ الإسلام"،شركة المؤسسة الصحفية الأردنية،طبعة3،دون سنة النشر.
159- محمد عقله ،" الإسلام –حقيقته و موجباته"، شركة الشهاب للنشر و التوزيع، دون طبعة، الجزائر، دون سنة النشر.
160-أبو العباس القسطلاني،"إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري"، دار الكتاب العربي، طبعة7، لبنان،1323).
161- محمد الصالح الصديق،" توجهات نبوية في الدين و الأخلاق و الاجتماع"، ديوان المطبوعات الجامعية، دون طبعة، الجزائر،(1996)
162- أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي،"شرح السنة"، تح:شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش،المكتب الإسلامي، طبعة1،(1971).
163- أحمد مختار عمر ،" دراسة الصوت اللغوي"، عالم الكتب، دون طبعة، القاهرة، دون سنة النشر.
164- خولة طالب الإبراهيمي: مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، دون طبعة، الجزائر، (2000).